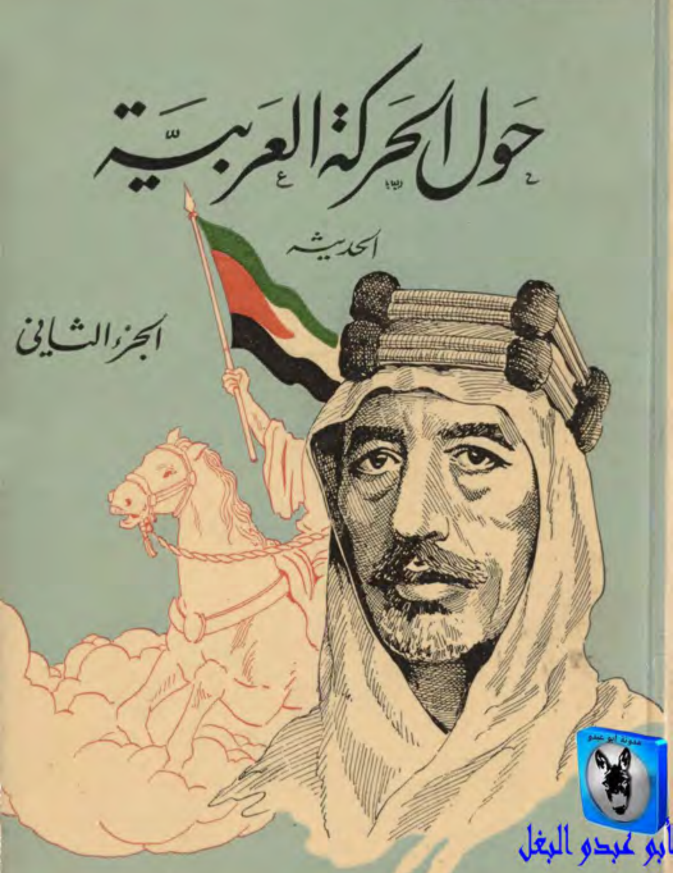
محمد عزة دروزة

حول الحركة العربية الحديثة

الجزء الثاني



الناشر: المكتبة العصرية - صيدا

حول

الحركة العربية الحديثة

الجزء الثاني (١)

فرنسا والحركة العربية

تاريخ ومذكرات وتعليقات

تأليف

محمد عزة دروزه

يحتوي هذا الجزء الكلام على فرنسا والحركة العربية
في سوريا ولبنان والمغرب العربي

(١) احتوى الجزء الاول الكلام على الفكرة العربية الحديثة وانبعاثها وادوارها في عهد الدولة العثمانية والثورة العربية وأدوار العهد الفيصلي في الشام وصور متنوعة عن هذا العهد وجمعياته ونشاطه .

بسم الله الرحمن الرحيم

قدمت قبل مدة قليلة الجزء الاول من هذا الكتاب للطبع ؛ وقد وفق الله إلى تقديم الجزء الثاني هذا ، وارجو أن يتم توفيقه الى تقديم بقية الاجزاء .

وقد رأيت ان اذكّر بما قلته في تقديم الجزء الأول وهو أن هذا الكتاب لم يكتب ليسد الفراغ في تاريخ الحركة العربية الحديثة ؛ وانما هو مزيج من احداث ومشاهدات ومذكرات وتعليقات متصلة بهذه الحركة او « حولها » . وبسبب ذلك يبدو بعض الثغرات فيه من وجهة التاريخ والوقائع وتسلسلها .

ومن تحصيل الحاصل ان نقرر بهذه المناسبة ان الواجب القومي يحتم كتابة تاريخ عربي عام واف ومحرر ثم كتابة تاريخ مفصل للحركة العربية الحديثة . وهذا وذاك يحتاجان إلى جهد ونشاط واستعداد قد لا يكون في طوق الفرد .

وأنه لحري بامانة الجامعة العربية ان تقوم بهذا العبء لأنه عمل قومي عظيم واجب التحقيق ، ولا يغني فيه ما تعلنه من مكافآت في سبيل سد بعض الثغرات فيه ؛ لانه ليس عملاً ينهض به فرد فيما نعتقد إذا اريد ان يكون وافياً ومرضياً .

وحري بالقطر السوري خاصة ان يسد هذا الفراغ بالنسبة لاقاليمه وللحركة العربية التي نشأت وترعرعت فيه على الأقل ؛ ولاسيما ان بعض الكتاب في العراق ومصر قد بذلوا جهوداً لا بأس فيها في سبيل سد الفراغ بالنسبة لبلديهم . فعسى ان تنشط الحكومة السورية بواسطة احد معاهدها الرسمية ، او القادرون من ابناء الشام الى القيام بهذا الواجب القومي قبل ان يذهب كثير من معالم واعلام هذه الحقبة .

دمشق الشام ٦ ربيع الثاني ١٣٦٩ - ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠

عزة دروزة

تمهيد

استعراض وجيز لمطامع وصلات فرنسا بالبلاد العربية

إنّ صلة فرنسا بالعرب ومطامعهـــا ببلادهم ليست حديثة . واذا صرفنا النظر عن موقف شارل مارتيل في وجـــه الغافقي في القرن الهجري الاول الذي كان من نتائجه معركة بواتيه الفاصلة، وعن صلات شارلمان بالدولة العباسية في القرن الهجري الثاني فان من الممكن ان تكون الحروب الصليبية التي نشبت في القرن الحادي عشر الميلادي والخامس الهجري هي البداية العملية لتلك الصلة والمطامع، وهي الأصل الذي مايزال ممتداً اليه ما دار ويدور في خلد فرنسا من مزاعم ومطامع وتقاليد نحو بلاد العرب. فقد كان الافرنسيون هم الكتلة الكبيرة البارزة في حملات هذه الحروب الأولى التي نتج عنها قيام المملكة اللاتينية التي شملت فلسطين واماكن عديدة اخرى في ساحل البلاد الشامية الاخرى وداخلها ؛ وكان ملك هذه المملكة الرئيسي افرنسياً كما كان اكثر امراء الامارات اللاتينية التي قامت في المدن والثغور الشامية الاخرى افرنسيين . ومع ان حكم المملكة اللاتينية الافرنسية قد انتهى في فلسطين نتيجة لوقعة حطين الفاصلة في القرن الهجري السادس وبعد ان استمر نحو سبعين سنة فان الامارات اللاتينية الافرنسية ظلت مدة اخرى قائمة ؛ بل ومنها ما ظل قائماً نحو قرن ونصف او اكثر . وفي هـذه السنين الطويلة توثقت الصلات بـــين الافرنسيين ونصارى الشام وخاصة الكاثوليك والموارنة الذين تجمع بينهم الكثلكة ؛ كما ان كثيراً من افراد الحملات الصليبية الافرنسيين استقروا في بلاد الشام وتوطنوا ، وكانوا نواة اخرى تمد تلك المزاعم والمطامع والتقاليد .

وتعبير الافرنج او الفرنجة الذي كان يطلقه كتاب العرب على الاوروبيين إنما هو محرف عن الافرنسي وفرنسا . وفي هذا ما فيه من الدلالة على ان الافرنسيين كانوا اقوى الكتل الاوروبية التي اتصلت بالعرب وبلادهم واكثرها وابقاها اثراً .

وفي القرن السابع الهجري كان لويس التاسع والمسمى بالقديس يطرق ابواب مصر على رأس حملة صليبية جديدة انتهت بهزيمة منكرة وبأسر الملك نفسه في واقعة المنصورة . وطبيعي ان هذه الحملة استمرار في ما كان يدور في خلد الافرنسيين من مطامع ومزاعم نحو البلاد العربية .

وفي اواسط القرن السادس عشر الميلادي نالت فرنسا من سلاطين الدولة العثمانية منحاً ملاحية وتجارية جعلت لها حق التفوق والرجحان في موانىء الشرق العربي العثماني على جميع الاجانب ، حتى انه لم يكن لاي سفينة اجنبية ان تزور احدى هذه الموانىء إلا تحت الراية الافرنسية . وسارع كثير من تجار مرسيليا وغيرها الى اقامة المحلات والوكالات التجارية في حلب واسكندرون وطرابلس الشام ويافا وعكا وحيفا ومصر والتوطن فيها والاستمتاع بفوائد هذه المنح ؛ ثم اخذت البعثات الثقافية والدينية الافرنسية تأتي إلى البلاد العربية فتنشىء في ظل هذه المنح المعاهد العلمية والدينية وتبث الدعاية لفرنسا، وتعيد ما انقطع من الصلات بينها وبين اهلها وخاصة نصاراها، حتى غدت هذه المنح في ادوار ضعف الدولة العثمانية امتيازات وحقوقاً ملزمة تسبغ على منشآت فرنسا ومصالح رعاياها حصانة وتمنحها حرية واسعة ، وحتى غدت فرنسا تسمي نفسها بقوتها حامية نصارى الشرق وخاصة الطوائف الكاثوليكية وتسعى جهدها في توطيد هذه الصفة لها لدى الدول الاوروبية الاخرى .

- ٢ -

ولقد كانت هذه المزاعم والتقاليد والمحاولات والمنح والامتيازات مما جعل فرنسا الحديثة تفكر في ان مصر وسوريا هي حصتها الطبيعية من تركة الدولة العثمانية التي كان يفكر في تقسيمها بعد الحرب الروسية العثمانية ١٧٦٨ – ١٧٧١ التي خرجت منها الدولة منهوكة القوى وبدت في دور مشابه لدور النزع ، حتى لقد فكرت حكومتها في اخذ هذه الحصة بالقوة وعهدت الى البارون دونوت عام ١٧٧٤ بالقيام برحلة ظاهرها التفتيش على القنصليات الافرنسية في الشرق العربي وباطنها درس وسائل امكانيات فتح مصر او النزول الى سواحل سوريا والاستقرار فيها ؛ وقد عاد هذا فقدم مخططا مفصلاً لمرفأ بيروت واكد امكان نجاح غزوة عسكرية على الاسكندرية ؛ ولكن ظروفاً دولية اخرى اعاقت فرنسا عن هذه الخطوة .

وفي آخر القرن الثامن عشر اي في عام ١٧٩٨ خطت فرنسا خطوة عملية بسبيل ذلك فكانت غزوة نابليون الى مصر التي استهدفت هدفين : الاول اقامة الامبراطورية

الافرنسية العربيـــة والثاني طرد الانكليز من جميع اماكنهم في الشرق وتدمير مراكزهم التجارية في البحر الأحمر وجعل هـذا البحر تحت حكم وسيطرة الجمهورية الافرنسية حصراً كما نص عليه امر حكومة الديركتوار . وقـد سار نابليون في تصرفاته في هذا النطاق ، واخذ يعد العدة لاتخاذ مصر وبلاد الشام قاعـدة لتحطيم الامبراطورية البريطانية في الهند واستغلال امكانيات البلاد العربيـــة في التجنيد والتموين والنقل بسبيل ذلك ، كما غـــدت فكرة الاستقرار في مصر بعد ذلك واتخاذها مستعمرة افرنسية اساساً لتصرفاته فيها . وكان الامر كذلك لدى الجنرال كليبر الذي خلفه في قيادة الحملة حينما غادر مصر قافلاً الى فرنسا في السنة التالية بل ولدى قواد الحملة ورجالاتها البارزين جميعاً على مايستفاد من مدونات الحملة ومذكرات القواد والمشاريع الافرنسية المتنوعة التي انشئت او حوول انشاؤها .

وقد اخفقت الحملة في النهاية . فقد تعقب الاسطول الانكليزي اسطول الحملة حتى ادركه في ميناء بوقير قرب الاسكندرية وحطمه تقريباً فانقطع حبل الصلة والمدد بينها وبين فرنسا ؛ وحرض الانكليز الدولة العثمانية وتحالفوا معها على الحملة ونتج عن ذلك حملات وحروب متتابعة كان من احداثها غزو نابليون لفلسطين واستيلاؤه على بعض اجزائها ثم ارتداده خائبـــاً امام قلعة عكا ، كما كان من احداثها قدوم الجيوش العثمانية والجيوش الانكليزية المتحالفـة الى ارض مصر ونشوب الحرب بينها وبين الحملة ؛ وعظم على المصريـين من ناحية اخرى ان يحكمهم اجانب عنهم في الدين واللغة والجنس ، ولاسيما انهم وقفوا من دولة الخلافة العثمانية موقف العدو المحارب ، وارهقوهم الى هذا بالضرائب والتكاليف ، فقامت في مصر حركات ثورية متتابعة في مختلف الانحاء ، وقابلها الافرنسيون بشديد القمع والتنكيل والتدمير والقصف وهتك الحرمات والمقدسات وباهظ الغرامات على ما تكرر منهم في بلاد المغرب والشام بعد ذلك وغدا طابعاً لهم ؛ فاتسعت الهوة واشتد العـداء بين الحملة والمصريين ؛ وقتل احد الفدائيين السوريين وهو سليمان الحلبي الازهري كليبر ففقدت قائدها الصارم ؛ وكانت وقائع الحرب مع الجيوش العثمانية والانكليزية في فلسطين ومصر واحداث الثورات المتتابعة في مصر قد انقصت قوى الحملة وانهكتها كثيراً ، واشتد تضييق الجيوش الانكليزية والعثمانية عليها أخيراً حتى تمكنت من إجلائها

عن كثير من المدن والقلاع والمواقع الحصينة ؛ فلم يجد قوادها مناصاً من نفض ايديهم من مصر والرضاء بالجلاء النهائي عنها بعد ان استقروا فيها نيفاً وثلاثة اعوام.

على ان الظروف عـــادت فخدمت الافرنسيين بعض الشيء في تحقيق بعض اهدافهم . فقد تحسنت الصلات بين فرنسا والدولة العثمانية بعد قليل من جلاء الحملة الافرنسية فاستغلوا الموقف في عرقلة مصالح الانكليز ؛ وغضب هؤلاء حتى جاهروا الدولة العثمانية بالعداء ، ورأوا في موقفها حجة تذرعوا بها في احتلال مصر بعد ان اجلوا عنها الافرنسيين عام ١٨٠١ ؛ فجاؤوا سنة ١٨٠٧ واحتلوا الاسكندرية ورشيد ، وكان ذلك في اوائل ولاية محمد علي الكبير ؛ فقاومهم هذا مقاومة شديدة وهزمهم وساعدته الظروف على ردهم خائبين ؛ فتوطد العداء بينهم وبينه ، واغتنم الافرنسيون الفرصة فوطدوا صلاتهم به واخذوا يعاونونه في نهضته راقاموا في ظل ذلك المنشآت الثقافية والتجارية ونالوا خاصة امتياز قناة السويس الذي بـدا أنه اقوى ضربة افرنسية ضد انكلترة ومواصلاتها وامبراطوريتها الهندية ، وكان من اسباب اشتداد التنافس بين الدولتين في مجال الدولة العثمانية .

وفي اثناء ذلك قوي اتجاه فرنسا نحو المغرب العربي الذي رأتـــه اسهل منالاً واقل مجالاً للتنافس لتقيم فيه الامبراطورية العربية الافرنسية التي اخفقت في اقامتها في المشرق ؛ فخطت خطواتها الباغية عام ١٨٣٠ نحو الجزائر وعام ١٨٨٢ نحو تونس وعام ١٩١٢ نحو مراكش ، مع عدم إغفالها تحين الفرص لتوطيد مركزها وتغذية مطامعها في هذا المشرق ايضاً ، وكان من مظاهر ذلك التوسع في المنشآت الثقافية والدينية وبث الدعاية بين النصارى والسعي في سبيل نيل الامتيازات الاقتصادية من مد سكك حديدية وانشاء موانىء ومصارف وغيرها . . .

ولقد نشبت خلافات طائفية في جبل لبـــنان ادت الى فتن اهلية دامية بين الدروز والموارنـة واشتدت واتسعت خاصة في سنة ١٨٦٠ فسارعت فرنسا التي ثبت في محاضر التحقيق والمدونات العيانية ان لعملائها وقناصلها يداً في اثارتها الى انتهاز الفرصة حيث دعت الى مؤتمر اوروبي وحيث اخذت على عاتقها ارسال حملة عسكرية الى بلاد الشام بالنيابة عن الدول الممثلة في المؤتمر لاتخاذ التدابـير الوافية لحماية النصارى وتوطيد الامن املاً بأن تكون الفرصة فرصة لتوطيد قدمها وتحقيق

هدفها. وقدأحبط التنافس الشديد بينها وبين انكلترة فرصتها، ولكن الحركة انتجت قيام نظام استقلالي اداريّ في لبنان ، وقوت الصلات والرغبات والعواطف بين فرنسا ونصارى سوريا ولبنان وموارنتهم خاصة .

ولقد كان احتلال انكلترة لمصر عام ١٨٨٢ معكراً لمطامعها واهدافها وآمالها في مصر وبلاد الشام وعاملا مقوياً للتنافس بين الدولتين حول الشرق العربي ، ولاسيما انها كانت تعتبر هذه البلاد حصتها الطبيعية ! وظل التجاذب بين الدولتين مستمراً لم يهدأ نوعاً ما إلا بعد اتفاق عام ١٩٠٤ الذي كان على حساب البلاد العربية مشرقها ومغربها ، فقد كانت فرنسا قد سارت في سبيل تحقيق اطماعها في المغرب اشواطاً كبيرة في الجزائر وتونس وبقي عليها قفزة مراكش ، وكانت الظروف الدولية غير مواتية كثيراً ، فاضطرت الى التخلي عن مطامعها ومزاعمها في مصر ووافقت على اطلاق يد انكلترة فيها مقابل اطلاق هذه يدها في المغرب الاقصى « مراكش » . وقد عرف ذلك الاتفاق باسم اتفاق « الجنتلمان » الذي احرى به ان يسمى اتفاق اللصوص . . .

وقبيل الحرب العالمية الاولى تجدد الكلام حول تصفية الدولة العثمانية او تقسيمها الى مناطق نفوذ . ونتيجة لذلك عقد بين فرنسا وانكلترة اتفاق « لصوص » آخر عام ١٩١٢ اشار اليه بوانكاره وزير الخارجية الافرنسية في مجلس الشيوخ قائلا : ان لنا في سوريا ولبنان مصالح تقليدية نريد ان نجعلها محترمة، ويسرني اني استطيع ان اضيف الى ذلك ان الظن بوجود خلاف على هذا الامر بيننا وبين الحكومة الانكليزية لا سبب له ، فقد صرحت لنا الحكومة المذكورة بمنتهى الود انه ليس لها في تلك الاقطار غرض في عمل ولا مقاصد تنويها ولا اماني سياسية ترغب فيها من اي نوع كان . . .

ولعل اللجنة التحضيرية لمؤتمر باريس العربي قد عنت هذا الاتفاق وقد ثارت مخاوفها من هذا التصريح وما كان يدور في نطاقه من احاديث تدل على ما تبيته فرنسا من مقاصد واطماع حينما ذكرت في بيانها ما ذكرت عن ما يبيت للبلاد العربية وخاصة لزهرة الوطن العربي سوريا من مقاصد ونوايا لمحوها في احاديث الساسة ومغامراتها على ما نقلناه في الجزء الاول .

وقد كانت الحرب العالميـة الاولى ونتائجها الفرصة السانحة لفرنسا لتخطو نحو تحقيق اهدافها كاملة في سوريا ولبنان فاغتنمتها بدون مبالاة بما كان في ذلك من نكث وبغي بغية ضم الجنـاح الشرقي العربي في عرض البحر الأبيض الى الجناح المغربي العربي في هذا الحوض وتوطيد الامبراطورية الافرنسية العربية الكبرى التي ظلت تحلم بها وتجد في سبيلها امداً طويلا .

- ٣ -

وإذا كانت بعض مزاعم فرنسا ومحاولاتها بسبيلها مما اشرنا اليه في هذا الاستعراض الوجيز لم يصطبغ بصبغة المناوأة للحركة العربيـة الحديثة على اعتبار سبقه لانبعاث هذه الحركة بصورة عملية وجدية فان استمرار تلك المزاعم والمحاولات بعد انبعاث هذه الحركة عام ١٩٠٨ قد طبع هذه المزاعم والمحاولات بتلك الصبغة بطبيعة الحال . على ان فرنسا لم تقصر في هذه المناوأة عملياً وصراحة ايضاً في اثناء الحرب العالمية الاولى بالرغم مما تعرفه من آمال العرب وما تحملوه من عسف واضطهاد وبذلوه من جهود وتضحيات ، وما كان من مشاركتهم الفعلية في الحرب ، وبالرغم مما بدا منها من تشجيع ادبي للحركة المذكورة قبيل الحرب وفي سياق انعقاد المؤتمر العربي في باريس سنة ١٩١٢ ، وبالرغم كذلك مما كان رجال الحكم فيها يصدرونه من تصاريح رسمية منفردة حيناً ومشتركة مع بريطانيا واميركا حيناً آخر في صدد توكيد نزاهة القصد الذي يحارب الحلفاء من اجله ، وعزمهم على تحرير الامم المستضعفة من الامم المتسلطة عليها وجعل الحق لها في تقرير مصيرها وإبطال حق القوة في فرض الارادة والاملاء والتحكم والاستغلال الاستعماري، مما ظهر انه لم يكن الا كذباً وتضليلا وانه كان يخفي وراءه المطامع والمقاصد المريبة، ثم بالرغم مما كان وظل كتاب فرنسا وشعراؤها وادباؤها يتبجحون به من امومة فرنسا للحرية ومبادىء الثورة الافرنسية وما كان لها من اثر في تحرير الانسانية ، وما بذلته فرنسا من جهود في خدمة هـذه المبادىء والدفـاع عنها مما اندمج في اسطورته كثير من شباب العرب المثقفين بالثقافة الافرنسية ، ونقول اسطورته لأن التاريخ لم يسجل لفرنسا منذ ان اعلنت ثورتها الكبرى موقفاً فيه دفاع صادق ومخلص عن حرية امة مضطهدة وحقوقها ،

ولأن كل ما سجله لها هو عكس ذلك على خط مستقيم وبدون اي استثناء ؛ سواء في ماتبع الثورة من مغامرات نابليون وحروبه وبسط سيطرته على قسم من الشرق العربي وعلى اوروبا ، او ما كان من فرنسا بعد ذلك من غزوات باغية ومواقف ظالمة في المغرب العربي هدفت الى محو كيان اهله وتبديل وجهه واستنزاف ثروته ودمه وطمس كل مظهر من مظاهر حريته وقوميته وطابعه ، وسواء في ما كان من تصرفاتها الاستعمارية الباغية في البلاد الاسيوية والافريقية الاخرى التي نكبت بها .

فمنذ اخذت بريطانيا تتبادل الرسائل مع الملك حسين في صدد انحياز العرب الى جانب الحلفاء وفي صدد تحقيق الاهداف العربية القومية وشمولها بدأ تجهم فرنسا لما تحتويه رسائل الحسين من مطالب قومية في بلاد الشام ، وبدأت اطماعها ومزاعمها التقليدية التي لم تكن لتفوت أحداً من اصحاب النظر تبدو قوية صريحة ، وتغدو عقبات مزعجة في سبيل التوافق والتطابق . ومما لا ريب فيه أن ما كان من مراجعات الانكليز وتحفظاتهم في الرسائل بشأن سوريا وسواحلها وأهلها انما كان بتأثير فرنسا ومساعيها . وقد أدرك الحسين هذا ومداه في مستقبل البلاد العربية والحركة العربيه إدراكاً ظهر أثره في ما كان منه من ملاحظات وتحذيرات نقلنا شيئاً من عباراته فيها في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولقد بدأت هذه المساعي بين فرنسا وروسيا وبريطانيا في سنة ١٩١٥ استعجالاً للتفاهم على تقسيم الاسلاب واستمرت بينما كان مكماهون والحسين يتبادلان الرسائل وانتهى باعتراف الدول المذكورة لبعضها بما تبتغي من أسلاب فكان لفرنسا جميع سوريا عدا مينائي عكا وحيفا اللتين تركتا لانكلترا مع القسم الجنوبي من العراق الذي يدخل فيه بغداد؛ مقابل اعتراف الدولتين لروسيا بماتريده من مضايق البسفور والدردنيل والانحاء التركية الاخرى . وقد دخل القسم الشمالي من العراق أي ولاية الموصل في نصيب فرنسا . ولم يكد يجف مداد تلك الرسائل حتى عقدت معاهدة سايكس بيكو الافرنسية الانكليزية بالحاح من فرنسا حتى لاتكون تلك الرسائل التي احتوت عهود بريطانيا للعرب في الاعتراف باستقلالهم عثرة فيما بعد في سبيل مطامعها ومدعياتها، حيث احتوت هذه المعاهدة تقطيع اوصال العراق والشام ووضع أقسام منها تحت حكم وإدارة فرنسا وانكلترا مباشرة وقيام دولة عربية او حلف دول

عزبية في أقسام منها على ان تكون اجزاء معينة من هذه الدول تحت نفوذ وحماية بريطانيا وأجزاء معينة أخرى تحت نفوذ وحماية فرنسا، وحيث جعلت إدارة فلسطين دولية باستثناء عكا وحيفا اللتين جعلتا تحت الحكم الانكليزي المباشر، فكانت ابشع مؤامرة غادرة مزق فيها وطن واحد وامة واحدة شر ممزق، وجعلا فضلا عن ذلك مادة جذب ودفع وتشاد في ما كان من تنوع النفوذ والسيطرة في القسم الواحد مما فيه انكى ما يمكن ان يبيت من سوء قصد وكيد لحياة هذه الامة والوطن، كل هذا في حين تعهدت بريطانيا في هذه الاثناء بالاعتراف باستقلال العرب في كل مكان لها فيه حرية العمل .

الاستمرار في المناوأة عقب انتهاء الحرب في الداخل والساحل

ثم لم تكد الحرب تنتهي في بلاد الشام ويدخل فيصل دمشق على رأس كتائب الثورة العربية التي ساعدت جيوش الحلفاء مساعدات قيمة اعترف فيها غير واحد من قواد الحلفاء ورجالهم حتى اخذت السلطات الافرنسية تقف موقف المناوىء للاهداف القومية العربية ظاهراً وخفياً ورسمياً وغير رسمي، وفي المنطقة الساحلية التي احتلتها فصائلها بعد طي العلم العربي عنها وكان ذلك من آلم مظاهر هذه المواقف وانكاها - وفي المنطقة الداخلية التي قامت فيها الحكومة العربيـــة الفيصلية على السواء؛ حيث كانت تبث الدعـاية التخويفية والتهويلية في الساحل وبين النصارى خاصة من العرب والمسلمين والشرفاء والفكرة العربيـــة ونتائجها وتصور العرب وفيصل بصورة الغرباء الدخلاء، وتتعقب كل حركة استجابة من المسلمين والنصارى على السواء للفكرة العربيـة ودعوتها؛ وحيث كانت تجري المرتبات الضخمة على انصارها ومواليها وفي سبيل كسب الانصار والموالين وخاصة على الصحافة اللبنانية المسيحية، وتؤسس صلات بينها وبين بعض الوجهاء وغير الوجهاء من مسلمين وغير مسلمين في الداخل هادفة الى توجيههم في اتجـاه معاكس للاتجاه القومي ووقوفهم موقف المثبط تارة والمتذمر تارة والمثير للنعرات الاقليمية والدينية تارة مما كانت آثاره تظهر من آن لآخر وتؤدي الى مشاكل وارتباكات مزعجـــة للعهد الفيصلي

ورجاله. وقد امتدت اليد الافرنسية فيا امتدت اليه في هذا العهد الى دروز حوران بواسطة بعض المأجورين من دروز لبـــنان بقصد البلبلة والتشويش واثارة روح الطائفية والتذمر والتمرد مما ظهر آثاره بما كان من نمدو ورواح بين جبل الدروز وبيروت ، وبما كان يعود به الرائحون من المال والخلع المفرية والشوائع والنفثات المشوشة المسمومة حتى جاء وقت اخذ هذا يصبح كالسيل إذا صح التعبير حيث صار الغادون الرائحون يذهبون قوافل وجماعات درن ماتستر وتكتم كما كان الامر حين بدئه . وقد حاول بعض رجال العهد مع عقلاء الدروز ومخلصيهم الوقوف في وجه هذه الحركة المزرية فلما اشتدت رؤي الافضل تركها حتى يسأمها الافرنسيون انفسهم وقد كان .

- ٤ -

فهذا الجزء من كتابنا سيحتوي صوراً لما كان من فرنسا ضد الحركة العربيـة والشعب العربي في المشرق والمغرب من مواقف وادوار ؛ وسيكون الكلام فيه على سوريا اولا ثم لبنان ثم المغرب العربي . وتقديم الكلام على سوريا ولبنان مع ان نكبة المغرب العربي بفرنسا قد سبقت نكبتها بها هو بسبب اتصال ذلك بالحركة العربية الحديثة التي كانت سوريا ولبنان مسرحاً مباشراً لها من جهة وبقصد الاتساق من جهة ثانية مع تسلسل الحديث الذي انتهى في الجزء الاول بانهيار العهد الفيصلي الذي كان في الحقيقة اثراً من آثار تلك المواقف والأدوار .

على ان هذا التقديم لا يتناقض مع الترتيب الزمني ايضاً اذا ماذكرنا ان مطامع ومزاعم ومحاولات فرنسا قـد كانت بالنسبة لسوريا ولبنان سابقة على ما هو واضح من الاحداث والادوار التي استعرضناها آنفاً .

الباب الاول

فرنسا وسوريا

الفصل الأول

العهد الانتدابي الاول

١٩٢٠ - ١٩٣٦

- ١ -

لما تم لفرنسا احتلال سوريا الداخلية وهدم العهد الفيصلي فيها على ما ذكرناه في الجزء الاول قررت مضاعفة جهودها بدون تريث في محاوبة الفكرة العربية والحركة بسبيلها . واخماد شعلة تلك وتعطيل هذه وشلها ولو بقوة الحديد والنار لانها لم تكن تجهل ان عهد فيصل ليس إلا مظهراً للفكرة ، وان سوريا وخاصة دمشق كانت من اهم المراكز التي نشأت وتوعرعت فيها هذه الفكرة وقامت فيها الحركة بسبيلها، كما لم تكن تجهل ان عهد فيصل قد وسع انتشارهما وقواهما حتى صارت دمشق تغلي بهما في كل مناسبة وفرصة ، ولاسيما ان سوريا قد تمتعت بالكرامة والعزة القومية بكل معانيها في هذا العهد ، ولم تكن تجهل كذلك ان اخماد الشعلة وتعطيل الحركة لا بد منها لتحقيق مطامعها الاستعمارية في القطر السوري بشطرية الساحل والداخل مما املته عليها تجاربها الباغية في المغرب العربي .

ومن اول ما فعلته انشاء محكمة عسكرية في دمشق استمرت قائمة الى آخر ايامها في سوريا ومحاكمة عـــدد كبير من رجال الحركة السوريين والفلسطينيين واللبنانيين الذين غادروا دمشق غيابياً والحكم عليهم باحكام الاعدام والحبس الطويل متوخية بذلك نشر الارهـاب في جو سوريا اولاً وسد باب الرجوع ثانياً امام من تعرف فيهم قوة العقيدة القومية والنشاط والنضال . اما الذين بقوا في سوريا من الذين يمتون الى عهد فيصل وروحه ولم يكونوا بارزين بروز اولئك فقد اصلتت فوق رؤوسهم السيف ووقفت لهم بالمرصاد تحصي عليهم الانفاس وتسارع الى اخماد كل نشاط وحركة منهم بالتشريد والنفي والمحاكمات العسكرية في خطير المناسبات وتافهها .

وكذلك كان من اول ما فعلته إعلان حل الجيش العربي ووضع اليد على مخازن السلاح وجمعه باقي الوسائل من ايدي المسرحين والمتطوعين والاهلين عامة، ونقل غير قليل من كبراء ضباط الجيش المنحل الى جزيرة ارواد معتقلين تحت رقابة صارمة وفرض غرامة حربية مقدارها مئتا الف جنيه ذهبية وجبايتها بالحديد والنار.

ولقد جهزت سبع حملات عسكرية على جبال اللاذقية وحملتين على جبل عامل وحملة على منطقة حصن الاكراد واخرى على حوران ، وحملات عديدة على المنطقة الواقعة بين اسكندرونه غرباً وحماه شرقاً وجسر الشغور شمالاً فهاجمت هذه الحملات القرى ، واحرقت ودمرت منها اكثر من ثلاثمائة ، وصادرت ماوجدته فيها من اموال واعلاق وباعته علناً واعتقلت عدداً كبيراً من سكانها حتى لقد شمل الاعتقال عدداً غير يسير من النساء بحجة ايواء الثوار واعدمت عدداً كبيراً من المعتقلين .

البعثة الانتدابية

وقد ابقت الحكم صورياً بيد حكومة علاء الدين الدروبي التي كانت مؤلفة من المعتدلين والمستسلمين ، وسارعت في ذات الوقت الى انشاء بعثة انتدابية في دمشق باشراف مندوب المفوض السامي جعلتها ناظمة لجميع السلطات والاعمال الحكومية والتشريعية والادارية والاقتصادية والأمنية وانشأت هيئة مصغرة لهذه البعثة في حلب باشراف معاون مندوب المفوض ، وهيئات مصغرة اخرى باشراف معاونين في مركز المحافظات . واقامت بالاضافة الى ذلك مستشاراً الى جانب كل وزير وكل محافظ وكل قائمقام مع ما يحتاج اليه من مساعدين وتراجمة جعلت اليهم الامر والتوجيه والحل والعقد .

ولقد لفت هذا الاسراف في الوظائف وتعقيداتها نظر موسيو جو نار احد رجال مجلس الشيوخ فوصفه وصفاً تهكمياً لاذعاً امام مجلسه في جلسة ٦ نيسان ١٩٢١ حيث قال :

« عندما يصل المسافر يشعر ان في المفوضية الافرنسية مصالح عديدة مهمة وحالما يدخل السراي يخيل اليه انه منتقل الى اعظم وزارات باريس بعدد موظفيها والى

جانب معاون المندوب السامي مستشارون يوازي عددهم عدد الوزراء ومعاونيهم في فرنسا . ويريد كل مستشار أن يكون له مكتب خاص . وحيثما التفت ترى معاوني مستشارين ومستشارين متدربين وموظفين وكواتب - وما اكثر الكواتب - وترى الى جانب هؤلاء اركان حرب الجنرال غورو وغرفته السياسية ومصلحة الاستعلامات وبالاختصار موظفين كثيرين يخطئهم العدد . ففي المفوضية اذن عدد يزيد كثيراً على ما ينبغي ولا تكاد تجد رابطة في ما بينهم ويكاد كل منهم يجهل الآخر ويتصرف منفرداً بنفسه . واذا نظرت الى شكل الادارة في الحكومات الاربع التي احدثت اخيراً وهي لبنان الكبير ودمشق وحلب والعلويين رأيت المستشارين مرة اخرى حول كل حاكم من حكام هذه الاقطار وفي كل منها حكام فرنسيون ماعدا دمشق وترى مستشارين الى جانب الرئيس في كل متصرفية واظن ان في جانب هؤلاء المستشارين مستشارين مساعدين ايضاً . . . »

سلطان المفوض السامي

اما المفوض السامي فقد كان بمثابة الملك بما كان يحيط به نفسه من مظاهر الابهة والسلطان ، واصبح مصدر السلطات ورئيسها جميعاً ، يسير في نظام فردي ديكتاتوري لايبالي بما يصنع ولايرى انه مسؤول عنه امام احد ، ويمنح نفسه ماشاء من صلاحيات تشريعية واجرائية وقضائية ، ويصدر ما يشاء من قوانين ولوائح ، ويلغي بجرة قلم ما لا يروقه من انظمة وقوانين موجودة (١) .

وقدابعد كل صالح سليم العاطفة عن الوظائف وخاصة عن الرئيسية منها وقصرت هذه على المائعين والمستسلمين والمتآمرين الذين كانوا على صلة ما بالفرنسيين ووكلائهم.

ومثل هذا فعل في الشرطة والدرك وكتائب الجيش المحلي التي انشئت بعد قليل بحيث كانت هذه القوى وسائل طيعة لتنفيذ كل ما ترسمه السلطات الفرنسية

(١) انتفخت هذه التصرفات والصلاحيات السلطانية الواسعة الى ان اصبح المفوض السامي يلغي دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويعتقل رئيس جمهورية ورئيس وزراء ويعزلهم وينشىء دولة ودستوراً ومجلساً نيابياً ويعين رئيس جمهورية ورئيس وزراء بجرة قلم ايضاً كما فعل في سنتي ٩٣٠ و٩٤٣ في سوريا ولبنان .

من خطط ، والتفنن في التزلف الى هـذه السلطات بما يتسق مع ما تبيته من مقاصد مع الاحتفاظ بقياداتها العليا والثانوية للضباط الافرنسيين .

المصالح المشتركة

ثم سلخت عن الحكومة السورية مصالح كثيرة جداً وانشأت لها ادارة خاصة سمتها المصالح المشتركة وجعلتها مرتبطة مباشرة بالمفوضية العليا وتدار بواسطة رؤساء وموظفين افرنسيين مع مساعدين من اللبنانيين في الدرجة الأولى والسوريين في الدرجة الثانية من تلك الطبقة التي ذكرناها آنفاً متذرعة الى ذلك باشتراك هذه المصالح بين سوريا ولبنان ، فكانت هذه الادارة حكومة داخل حكومة ، مع الامتياز الكبير لها دون مصالح الحكومة السورية العادية . وقد كانت تشمل الجمارك والبرق والبريد والهاتف والسكك الحديدية والموانىء والمطارات والمنائر والمحاجر ومراقبة الشركات والامتيازات والاحتكارات والملكية الفنية والتجارية والصناعية والأمن العام والجوازات وكتائب الجيش المحلي وشؤون العشائر الخ . .

وكانت ايرادات هذه المصالح تجبى من قبل ادارتها الافرنسية وتجعل لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية السامية وملحقاتها وعلى الجيوش المحلية بالاضافة الى مرتبات موظفي هذه المصالح ونفقاتها وكانت تبلغ احياناً ضعفاً ونصفاً من مرتبات ونفقات الحكومة السورية برمتها .

الموظفون الافرنسيون

وعين بالاضافة الى كل هذا عدد عديد من الافرنسيين في المصالح الحكومية السورية وخاصة ما يسمى بالمصالح الفنية كالمعارف والكاداسترو والري والاشغال والتجارة والصناعة ؛ كثير منهم لا مؤهلات لهم إلا فرنسيتهم ، وتظاهرهم بالنفخة الكاذبة والشعوذة المكشوفة ، وكان في مرؤوسيهم من يفوقونهم كفاءة وعلو شهادة .

المصرف السوري اللبناني وعملته الورقية

وكان من اول الاعمال التي بادرت اليها السلطات الافرنسية انشاء فرع للمصرف السوري اللبناني الذي كان انشىء في لبنان في العهد الفيصلي ومنح امتياز اصدار العملة الورقية، واصدار تشريع بتداول هذه العملة في سوريا. وجلّ رأس مال هذا المصرف افرنسي كان في بدئه عشرة ملايين فرنك ثم رفع الى عشرين مليوناً ومنح الامتياز مقابل سندات الدفاع الوطني على الخزينة الافرنسية. وقد اشترى في البدء سندات بقيمة خمسة وعشرين مليون ليرة سورية اصدر مقابلها بنفس القيمة عملة ورقية. ولم يكن لتلك السندات قيمة وثيقة كما انه لم يكن من الضمانة الذهبية لهذه العملة إلا قدر زهيد جداً؛ فغدت هذه العملة نافذة في سوريا ولبنان تؤخذ بها سلعها وذهبها أخذاً هو بالسلب اشبه. ولقد خلف المصرف السوري اللبناني المصرف العثماني، وكان للسوريين واللبنانيين فيه ودائع بقيمة مليوني جنيه ذهباً فأصدر المفوض السامي تشريعاً اعيدت الودائع بموجبه إلى اصحابها من تلك العملة الورقية فعاد على المصرف من هذه العملية وحدها ربح يوازي رأس ماله على حساب خسارة اصحاب الودائع من اهل البلاد! وكثيراً ما بلغت ارباح هذا المصرف ١٠٠ ٪ و١٥٠ ٪ بسبب ما كان يناله من امتيازات ويصدر من اجله من تشريعات ويغرق السوق بعملته التي يسحب منه مقابلها الذهب والسلع!

ضباط الاستخبارات

ومن جملة ما كان إقامة ضباط باسم ضباط الاستخبارات في مختلف مدن سوريا وقبائلها؛ فأنشأوا شبكة جاسوسية واسعة حشدوا فيها كل حاقد وفاسق وفاسد، واخذوا يستعينون بهم على اثارة النعرات والتفرقة والوشايات التي كانت وسيلة من وسائل الكيد والمكر والارهاب والارهاق، وقد كان من امرهم في ما بعد ان كانوا يؤلبون الاشرار على الاخيار، ويوجهون ما كان يجرى من معارك انتخابية في المجرى الذي ترسمه السياسة الافرنسية؛ ثم وصل امرهم الى تأليب انصارهم ومواليهم على الحركات الوطنية والأهداف الوطنية والعهود الوطنية ورجالاتها.

ايديهم في الاوقاف والمناهج والبادية

وبما كان كذلك وضع الاوقاف الاسلامية تحت اشراف مفتش إفرنسي يأتمر بأمر البعثة الافرنسية ، وتوسيد المناصب والوظائف الوقفية والدينية الى الانصار والمتزلفين والمنافقين ليكونوا وسيلة من وسائل دعايتهم .

كذلك اسرع الافرنسيون الى تعديل مناهج التعليم في مختلف الدرجات الدراسية ، وجعلوا للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية المركز الممتاز فيها ليضمنوا نشوء الجيل السوري الجديد نشأة افرنسية موالية .

ولم يغفلوا البدو والبادية السورية في منهجهم فأنشأوا الصلات بينهم وبين مشايخها واستبدلوا بمن اشتبهوا فيه من هؤلاء المشايخ اشخاصاً آخرين واغدقوا عليهم المرتبات والمنح ليضمنوا طاعتهم وهدوءهم .

استغلالهم الحالة الطائفية في الدروز والنصيرية في سبيل توطيد استعمارهم

كذلك عمدوا إلى استغلال الصفة الطائفية الخاصة في الدروز والنصيرية والشركس والأرمن . هادفين بذلك الى جعل جبل الدروز وجبال اللاذقية حصنين عسكريين واستعماريين لهم ، تحت اشرافهم او حكمهم المباشر ، والى جعل الدروز والعلويين والشركس والأرمن عدة لهم في الأزمات والمواقف العصيبة .

ولقد كان للدروز تقاليد وعادات واعتبارات وزعامات ، وكانت احداث تاريخية وثورية في زمن الدولة العثمانية تمت الى هذه التقاليد والعادات والاعتبارات والزعامات بصلة ؛ ولقد جرت التقاليد الجاهلية على ان ينظر السنيون اليهم بنظر غير مستحب من ناحية العقائد والطقوس الدينية مما ادى الى انقباضهم عن اخوانهم في العروبة انقباضاً فيه شيء من الحذر والتكتم والخصوصية .

وحالة الدروز هذه تنطبق برمتها على النصيرية الذين سموا بالعلويين ايضاً وسميت منطقتهم اللاذقية ببلاد العلويين وجبال العلويين لانهم فيها اكثرية .

ولقد استغل الافرنسيون هذه الحالات الطائفية الخاصة واخذوا يبثون في

رؤوس الطامعين والطامحين من الزعماء الخاوف من السوريين والوحدة السورية وانها وسيلة لابتلاعهم وغمرهم بالاكثرية السنية وحرمانهم من الوظائف والمناصب والمنافع .

ولقد كانوا مهدوا لهذا في المنطقتين منذ عهد فيصل ؛ فاستطاعوا أن ينشئوا بينهم وبين بعض زعماء الدروز ومتزلفيهم وطامعيهم الصلات وان يوجدوا لهم فيهم الانصار والاعضاد. وكانت مهمتهم في النصيرية اسهل لان منطقة اللاذقية كانت تحت احتلالهم منذ انتهاء الحرب . ومما عمدوا إلى بثه فيهم بصورة خاصة انهم ليسوا عربا وانهم من بقايا الصليبيين دماً وروحاً وان تسمية النصيرية هي معدلة او محرفة من كلمة النصرانية ، واستغلوا ما كان من اختصاص السنيين في المنطقة نفسها وخاصة في مدينة اللاذقية وهم اقلية بالنسبة اليهم بالمناصب والرعاية في زمن الدولة العثمانية ؛ وعينوا بعض نابهيهم ومتحركيهم في المراكز والوظائف وصاروا يقدمونهم على السنيين ؛ مما ساعد على إتيان هذه الحركة بثمرتها العاجلة حيث اصبح النصيرية او بالأصح الطامحون والطامعون والمتحركون منهم يشعرون بشخصيتهم الخاصة ويرون هــــذا مفيداً لهم مادياً ومعنويا ، ويوثقون صلاتهم بالافرنسيين ويتقربون اليهم ويتمسكون بهم ويظهرون لفرنسا الاخلاص في سبيل الاحتفاظ بإصار لهم ؛ ولاسيما انهم قد تمكنوا بذلك من رقاب سوادهم وتسخيرهم لمصالحهم ومنافعهم تسخيراً قويا فشت فيه السخرة والرق والرشاوى والغرامات وابتزاز الاموال والاملاك فشواً عظيما اصبح الشعب به بعد قليل من الزمن يعاني شدائد الضنك والفقر .

وقد جند الافرنسيون عدداً كبيراً من شبان المنطقتين في كتائب الجيش المحلي التي انشأوها بعد قليل وعينوا بعض نابهيهم وابناء اسرهم المتزعمة ضباطاً ؛ فكان ذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الخطة المرسومة .

وبثوا كذلك الخاوف من السوريين في الجاليتين الشركسية والارمنية وجعلوهم يرون فيهم حماتهم وفي الارتباط بهم فائدتهم. وجندوا منهم عدداً كبيراً في كتائب الجيش وعينوا بعض نابهيهم ضباطاً فكان هـــذا كذلك وسيلة من وسائل توثيق الارتباط ونجاح الخطة المرسومة .

بل لقد حاولوا أن يفعلوا شيئاً من هذا في حلب وحمص وحماه ويثيروا الطامعين الطائعين على العاصمة والتمرد عليها استهدافـــاً لتفريق الكلمة وتأريث البغضاء بين اهل الوطن الواحد والامة الواحدة .

وهكذا قامت في سوريا إدارة استعمارية شديدة جعلت اكبر همها ان تحول دون اي تقدم جدي وان تصد أي حركة قومية ، وان تعطل اي حيوية ونشاط ، وان تبث روح التفرقة بين مختلف الفئات والطوائف والمقاطعات ، وان تشغل الناس بمشاكل ومشاغل توهن قواهم وتعطل نشاطهم ، وان تستغل خيرات البلاد وثرواتها وتجارتها اوسع استغلال وابشعه .

- ٣ -

تجارب الحكم الهزيلة

ولم تلبث هذه الخطط الماكرة الخبيثة ان اخذت تؤتي اكلهـــا بسرعة ، وفي ميدان الحكم والادارة اولاً حيث اخـــذت اصوات الطامعين في المراكز والمناصب المتآمرين مع السلطات الافرنسية والمندمجين في توجيهاتها في حلب وجبال اللاذقيـــة والدروز ترتفع ضد حكومة الشام التي كانت حكومة سوريا الداخلية جميعها . وتظاهر المفوض السامي بالاستجابة الى رغبات السكان فخلق من حلب دولة ومن منطقة اللاذقية دولة ومن جبل الدروز دولة ومن دمشق دولة ؛ وذلك بعد اسابيع معدودة من الاحتلال، وأزال بذلك مظهر الحكومة السورية الواحدة الشاملة ، وتوارى شكل الوزارة ليحل محله شكل الحاكم العام في عواصم هـذه الدويلات .

وبما كان في جبل الدروز نتيجة للدسائس والتوجيهات التي اشرنا اليها ان تم الاتفاق بين السلطات الافرنسية وزعماء الجبل على ان يكون الجبل مستقلا ومرتبطاً بالمفوضية العليا مباشرة ، وان قرر المجلس التمثيلي الذي نشأوه الى جانب الحاكم الدرزي بناء على ذلك الاتفاق قبول الانتداب الافرنسي ورغبتهم في بقائهم مستقلين ضمن كيانهم الخاص وغير مندمجين مع سوريا . ونقول من قبيل الاستطراد ان الافرنسيين بالرغم مما كان من مماشاة زعمـــاء الجبل والأمر لهم في ما وجهوه واوحوه ابوا إلا المزيد فاستسنحوا أول فرصة لجعل ذلك المجلس يقرر ان يكون الحاكم العام افرنسياً تحقيقاً لهدف الادارة الافرنسية المباشرة وترسيخ القدم الاستعمارية العسكرية الذي استهدفوه ، فبدأ بهذا العهد السير نحو فرنسة الجبل ان صح التعبير فغدت الأعياد والمراسم الافرنسية مرعية في الجبل ، وصارت اللغة الافرنسية في مناهج التعليم والمظاهر الافرنسية المتنوعة تشغل المكان الأول فيه . وهكذا نقض الافرنسيون ما ابرموه مع زعمـــاء الجبل وبدت خفايا نواياهم الغادرة التي ستروها بتخويف الدروز من الاندماج باخوانهم السوريين واستهدفوا بها في الحقيقة دمجهم بهم ، بل التحكم فيهم تحكم المالك بملكه لانهم لم يكونوا ليفكروا يوماً بأن يكون من شأن الدروز ان يندمجوا فيهم ويصبحوا منهم . ولقد كان من امر احد حكام الافرنسيين ان انتفخ بما وصل اليه فأخذ يتصرف فعلا مع الدروز تصرف الطاغية مما كان سبباً من اسباب الثورة الكبرى على ما سوف نشير اليه بعد .

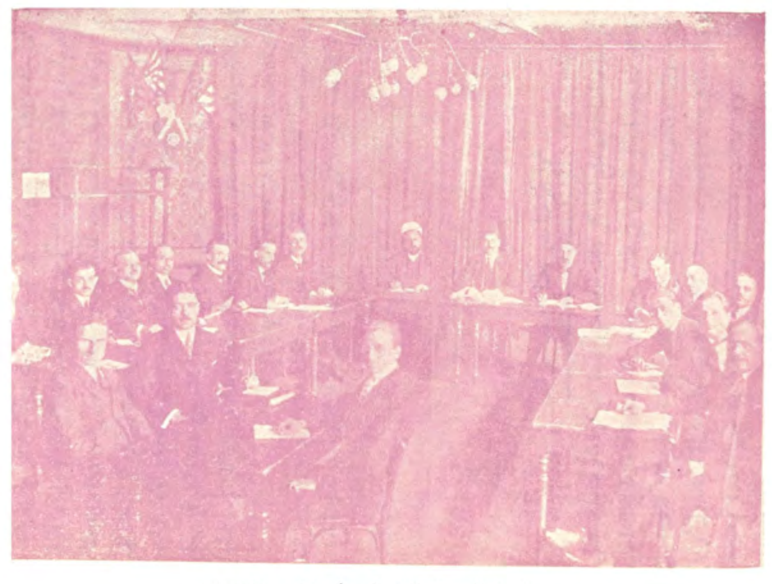
ومثل ما جرى في جبل الدروز جرى في منطقة اللاذقيـة حيث انشأوا مجلساً تمثيلياً اكثريته من النصيرية وحمـــلوه على اعلان الرغبة في الانتداب الافرنسي والاستقلال المحلي وعدم الاندماج في السوريين ، ولقد كان على رأس هـذه المنطقة قبل انهدام العهد الفيصلي حاكم افرنسي عام فأبقى الحـال على ما هو عليه بعد ذلك ايضاً ، وجعلوا المجلس التمثيلي يسيفه ويقره . واخذ الحكام الافرنسيون يسرعون الخطى في محاولة فرنسة المنطقة وترسيخ قدمهم الاستعمارية والعسكرية فيها ، فجعلوا اللغة الافرنسية لغة التعليم واخذوا يطبعون المنطقة بالمظاهر الافرنسية المتنوعة ،

واهتموا خاصة للتبشير المسيحي بين اهلها وتحويلهم الى نصارى اهتماماً كبيراً بدت آثاره فيما كان من تهافت المبشرين الكاثوليك الى المنطقة وكثرتهم وعظيم مساعيهم ونشاطهم .

على ان الافرنسيين لم يلبثوا ان اصطدموا بحقيقة الواقع فرأوا أن حياة هذه الدويلات غير طبيعية لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة الادارية والاجتماعية الى درجة انها كانت ارتجالا صبيانياً اكثر منه اي شيء آخر . وكان صدر صك الانتـــداب من جمعية الامم ينص على تشجيع الحكم الوطني في سوريا . فهذا وذاك املى عليهم ان يتظاهروا بتصحيح الموقف فعمدوا اولا الى انشاء اتحاد بين هذه الدويلات وجعلوا لهذا الاتحاد مجلساً ، ثم بدلوه بدولة واحـــدة ضمت دولتي دمشق وحلب فقط واعادوا نظام مجلس الوزراء الذي يعبر عن شيء من معنى الحكم الذاتي وانشأوا للدولة مجلساً تمثيلياً تدعيما لهـــذا المعنى ، غير انهم جردوا الدولة من اي معنى من معاني الدولة ومظاهرهـــا وكانت الوزارة وزارة إدارية لا غـير ، وبقيت سلطات المفوض السامي والبعثة الافرنسية والمستشارين الافرنسيين على ما وصفناه قبل ، بحيث كان الشكل المستأنف ستاراً زائفاً للمنهج الاستعماري المرسوم والمستمر والى هذا فقد ابقيت منطقتا جبل الدروز واللاذقية خارجتين عن هذه الدولة لها حكومتان محليتان ومجلسان تمثيليان خاصان، استمراراً في المنهج الاستعماري والعسكري فيها والذي ينطوي فيه هدف سلخها عن الام وتوطيد الحكم الافرنسي المباشر فيها وتبديل معالمها .

آثار التدابير الاقتصادية الاستعمارية

وكذلك لم تلبث تلك الخطط الماكرة الخبيثة ان آتت اكلها في ميدان الاقتصاد، حيث عدلت انظمة الجمارك فرفعت رسوم كثير من مواد الصناعة التي تحتاج اليها الصناعات المحلية وكثير من المواد الضرورية الاخرى في حين فسحت المجال امام الصناعات والسلع الافرنسية ، فارتفعت اسعار الأولى وحرمت البضائع المحلية من كثير من حاجاتها مما اخذ يؤدي إلى تضاؤلها حتى نزل عدد المناويل في حلب من



المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف سنة ١٩٢١

(١٥٠٠٠) يعمل فيها (٦٥٠٠٠) عامل الى (٢٠٠٠) يعمل فيها (٨٠٠٠) عامل وفي دمشق من (٥٠٠٠) منوال يعمل فيها (٢٥٠٠٠) عامل الى (١٥٠٠) يعمل فيها (٣٥٠٠) عامل ، كما ارتفعت حاجات الحياة ارتفاعاً ناء به ظهر السوري ؛ وحيث اختل الميزان التجاري اختلالا عظيما فبلغ العجز الذي منيت به ثروة البلاد من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٠ أربعة ميليارات فرنك من فرنكات ذلك التاريخ المرتفعة نسبياً بالنسبة لفرنكات اليوم على ما ذكرته احدى النشرات الرسمية ؛ ويبدو الرقم كبيراً إذا ما لوحظت النسبة بين القوة الاشترائية للنقد قبل خمس وعشرين سنة وبينها اليوم ، وحيث فسح المجال للشركات الافرنسية لتحتل المركز الممتاز في البلاد وتتمتع بشتى التسهيلات التشريعية وغير التشريعية ، وتحتكر الامتيازات والمشاريع الاقتصادية الكبرى فيها حتى لقد بلغ عدد ما نالته من امتيازات في برهة وجيزة ثلاثة وعشرين بالاضافة الى نكبة البلاد بالمصرف السوري اللبناني وعملته الورقية وما سلب بطريقها من ذهب البلاد وسلعها وثرواتها .

وفضلاً عن هذا فقد زيدت الضرائب حتى بلغ بعضها ١٠٠ ٪ و ٥٠ ٪ زيادة عن السابق فكان هذا ثالثة الاثافي في الضربة الاقتصادية التي انزلها الافرنسيون في البلاد.

- ٤

عجز فرنسا عن اطفاء الشعلة الوطنية

على ان فرنسا لم تستطع مع كل ذلك ان تطفىء شعلة الفكرة العربية وان تشل الحركة القومية بسبيلها في الشام، بل ظلت هـذه وتلك متقدة متحركة في الداخل والخارج، وتزداد بتصرفات الافرنسيين وبغيهم اتقاداً وشدة في احيان كثيرة، ولم تستطع فرنسا في حال ان تجعل سوريا تسيغ الانتداب بشكل من الاشكال وترضى به صراحة او مؤولا بدلا عن الاستقلال والسيادة اذا استثنينا جبل الدروز ومنطقة اللاذقية .

الحركات الثورية المتنوعة قبل الثورة الكبرى

ولقد ظلت عصابات الثوار في مناطق اللاذقية وشمال حلب وبعلبك تنشط نحو سنة وتكبد الافرنسيين الخسائر وتزعجهم أيّما إزعاج وخاصة في المنطقتين الاوليين. وكان بطل المنطقة الاولى الشيخ صالح العلي الذي بدأت حركته الثورية منذ عهد فيصل على ما اشرنا اليه قبل اي ان ثورته استمرت سنتين ونيفاً. اما حركة شمال حلب فقد بدأت هي الاخرى في عهد فيصل وكان ابراهيم هنانو وصبحي بركات هما اللذان يقومان بتدبيرها بالتعاون مع الهيأة المركزية للفتاة، ثم انفرد في ادارتها وقيادتها ابراهيم هنانو، وكانت بطولته في هذه الحركة مما مهد له الطريق ليتزعم الكتلة الوطنية وبالتالي ليتزعم الحركة الوطنية في سوريا بعد بضع سنين.

وفي الشهر الاول من الاحتلال الباغي وقعت حادثة ثورية خطيرة جداً حيث قتل رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وزميله في الوزارة عبد الرحمن اليوسف. فقد خرجوا من دمشق بالقطار الى حوران للنظر في امر الغرامة الباهظة التي فرضها الافرنسيون على البلاد، فقابلتهم الجماهير الساخطة في محطة خربة الغزالة واطلقت عليهم الرصاص. وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث ذهب الطاغية غورو الى القنيطرة فاعترضت طريقه عصبة من المجاهدين رتب امرها في شرق الاردن من قبل الشهيد احمد مربود واطلقت النار عليه، وكان معه حقي العظم حاكم دولة دمشق، فنجا غورو من رصاصة اصابت كمّ يده المبتورة، واصيب العظم بثلاث رصاصات غير قاتلة وقتل مرافق غورو الحربي وبعد بضعة اشهر من هذا الحادث جاء كراين عضو لجنة الاستفتاء الاميركية لزيارة دمشق ليتعرف على اثر الاستفتاء واحوال البلاد بمناسبة اعتزامه على نشر تقرير التحقيق، واجتمع بالناس في بعض الاحياء واستمع الى تذمرهم وشكاويهم، واعادت هذه الزيارة الى الاذهان ذكرى العهد الفيصلي واهاجت النفوس. فلما اعتزم الرحيل اجتمع جمهرة من رجال الحركة وشبابها حوله للوداع، وخطب بعض الشبان خطباً حماسية، واخذ الشباب ينشدون احدى اناشيد ذلك العهد «نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية» كما اخذوا يهتفون بسقوط الانتداب والخائنين وكان الدكتور شهبندر الشخصية البارزة في هذه المواكب.

ولقد اثار هذا الموقف الافرنسيين لانهم رأوا فيه بوادر خيبة الامل الذي ظنوا أنهم حققوه من ارهاب الناس واخماد الروح الوطنية والقومية فيهم ، فاعتقلوا الشهبندر مع بعض رجال العهد الفيصلي من الاستقلاليين وغيرهم ممن استطاع ان يبقى في دمشق ، فألهب الاعتقال الناس وقامت مظاهرات صاخبة ، واعلن الاضراب العام في دمشق ، فكشرت السلطات الافرنسية عن نابها وانزلت دوريات من الجيش الى الشوارع واعلنت الادارة العرفية ، ومنعت التجول ، ثم حاكمت من رأت ان تحاكمـــه وحكمت عليهم بالحبس وارسلتهم الى ارواد ، فعادت الاضطرابات والمظاهرات والاعتقالات والمحاكمات ثانية ، وسرت من دمشق الى المدن الاخرى ، ووقعت اشتباكات دموية في بعضها ، ولم تستطع السلطات ان تقبض على ناصية الحال إلا بشق النفس . ومما كان جديداً في بابه إضراب دمشق في هـذه الحوادث اسبوعاً كاملاً ، وهو اول اضراب طويل في بلاد الشام كان منوالاً نسج عليه وطوّل فيه فيما بعد في سوريا ثم في فلسطين .

هذا إلى ما كان من حوادث متفرقة لم تنقطع سلسلتها طيلة السنوات الثلاث التالية ، مهما كانت ثانوية فان توالیها كان يقض مضاجع الافرنسيين ويعكر عليهم آمالهم ، ويكون مظهراً قوياً لاستمرار الشعلة الوطنية واحتجاجاً صارخاً على وجود المستعمرين وتصرفاتهم وبغيهم . ولقد اثر عن سراي احد المفوضين الساميين من مقال له انه كان في سنة ١٩٢٢ وحدها خمس وثلاثون حركة ثورية كبدت الافرنسيين آلافاً من الضحايا . وظل الامر على هذا الحال إلى ان انفجرت الثورة الكبرى عام ١٩٢٥ . ونسجل هنا ان الحوادث املت على السلطات شيئاً من الحكمة او بالاحرى رغبة في التخدير والملاينة فأطلقت سراح سجناء ارواد بعد سنة ونصف مع ان منهم من كان محكوماً عشرين سنة وعشر سنين واقلهم خمس سنين .

النشاط السياسي في الداخل وحزب الشعب

وفي اوائل عام ١٩٢٥ جاء سراي مفوضاً سامياً جديداً ، وبدا منه ما يدل على رغبة فرنسا في وضع دستور للبلاد تقوم على اساسه حكومات وطنية تنفيذاً لنص

صك الانتداب الذي تم وضعه وتصديقه في عصبة الامم قبل هذا التاريخ بأمد غير بعيد ، ومسايرة للعواطف والمطالب الوطنية التي لم تخفت ولم تستسلم ، لعل هـذه الطريقة تنجح في ما لم ينجح فيه الحديد والنار او تخمد ما بدأ يشتد اتقاده من تلك العواطف بالتجارب والشباك الايجابية . وكان من خطوات المندوب الجديـد في سبيل ذلك ارسال رسائل الى فريق من اعيان البلاد ومفكريها في شهر تموز لعام ١٩٢٥ يطلب منهم ابداء آرائهم في الاسس التي يحسن ان يقوم عليها الدستور لتستنير الحكومة الافرنسية بها في خطوتها التي اعتزمتها مما يدل في ذات الوقت على اصطباغ تلك الرغبة بالصبغة الاستعمارية في العزيمة على فرض الدستور من عندهـا فرضاً . وبالرغم من ذلك اغتنم رجال الحركة الفرصة لاستئناف النشاط ، واوفدت دمشق وحلب وفودها اليه يتمثل فيها مختلف الفئات لتطالب بالوحـدة السورية الطبيعية والاستقلال التام، والغاء الاشكال المزيفة من الحكام والمجالس التمثيلية ، وانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد وقيام حكومة مسئولة امام مجلس نيابي حر ، ومنع تدخل المستشارين ، ووضع حـــد لشركات الاستثمار ، والعودة الى اساس الذهب في العملة ، والعفو العام عن المحكومين والمنفيين والمبعدين السياسيين . ثم اقدم الفريق البارز من رجال الحركة الموجودين في سوريا على تأسيس حزب الشعب وفق المنهج الذي طالبوا به فأخذ ينشط ويعمل على انعاش الروح الوطنية وتوجيه الناس الى ميثاقهم القومي .

وبعد قليل من ذلك كانت زيارة بلفور دمشق فكانت رسيلة لاظهار العواطف الوطنية المستيقظة نحو الجزء الجنوبي من سوريـــا الذي نكبه تصريح هذا الوزير المشؤوم بالصهيونية ، حيث تجمهر الشعب يريد الفتك به ، وحيث قامت المظاهرات تهتف بسقوطه وسقوط دولته وسقوط الانتداب والتجزئة والصهيونية وحياة سوريا المستقلة الموحدة ، ونتج عن المظاهرات اشتباكات استشهد وجرح فيها عـدد غير يسير من الشعب، ولم تستطع السلطات تسكين الهياج إلا بشق النفس وبعد تهريب بلفور من دمشق تهريباً .

النشاط السياسي في شرق الاردن ومصر واوروبا

هذا في داخل البلاد . وقد كان نشاط رجال الحركة القومية في خارجها كذلك قوياً ومتنوعاً خلال هذه الفترة. وكانت ميادين هذا النشاط عمان ومصر واوروبا.

فمنذ ان ذاع قدوم عبدالله بن الحسين الى معان من الحجاز بقصد استئناف النضال في سبيل تحرير سوريا والانتقام للعهد الفيصلي وكان ذلك نتيجة لاتصال بعض رجال الحركة القومية بالملك حسين اخذ رجال الحركة الذين خرجوا مع فيصل وتفرقوا في فلسطين وشرق الاردن ومصر واوروبا يقصدون عمان الذي حط عبد الله فيها رحاله في تاريخ ٩ مارس من سنة ١٩٢١ بناء على مساعي نبيه العظمة ورفاقه الذين كانوا حلوا في شرق الاردن قبل ذلك . ولم تلبث هذه البليدة التي لم تكن إلا بيوتاً طينية اكثر سكانها من الشراكسة ان زخرت بأولئك الرجال، وان اخذت الحركة القومية تبدو فيها جياشة تذكر الناس بالعهد الفيصلي، والتفوا حول عبدالله يتداولون في ما يجب وما يمكن . واستأنف حزب الفتاة او الاستقلال نشاطه فألف رجاله هيأة مركزية اخذت تعقد الاجتماعات وتبحث في شؤون الساعة ، وتضم اليها بعض الرجال والشباب على غرار ما كان في دمشق . ثم كان اجتماع عبد الله بشرشل واتفاقهما على ان يتولى الاول الحكم في شرق الاردن كأمير على امارة مستقلة تستمد العون والمشورة من الانكليز ، فتعاون رجال الحركة مع الأمير على تنظيم الحكم في الامارة وتقلدوا مناصبها الرئيسية في العاصمة وغير العاصمة ، واعتبروا ما كان محطة لا بأس فيها للحركة التحريرية واخذوا يرسمون الخطط للسير في سبيل ذلك ، بل بدأ بعضهم بالسير فعلا وكان لهم اثر في حوادث محطة خربة الغزالة واطلاق النار على غورو وتغذية وترتيب بعض الحركات الثورية التي كانت تتوالى في انحاء الشام والتي ذكر مراي عنها ما ذكر على ما اشرنا اليه من قبل .

وممن كان احتشد من رجال الحركة في عمان وحاولوا اتخاذها محطة للحركة التحريرية وتعاونوا مع عبد الله بن الحسين في المرحلة الاولى ، ونشطوا في اعادة الحياة والحركة للفتاة وحزب الاستقلال على ما وعته الذاكرة، نبيه العظمه وعادل

ارسلان وعوني عبد الهادي وعزة دروزه وخير الدين الزركلي والشيخ كامل القصاب وحسن الحكيم وسامي السراج ويوسف ياسين ومحمد الشريقي واحمد مريود واحمد حلمي عبدالباقي وامين التميمي وجميل المدفعي ورشيد طليع وعبدالستار السندروسي ومسلم العطار ومصطفى الغلاييني وغيرهم من امثالهم الذين لم تعهم الذاكرة .

ونسجل مع الاسف ان الامل باستمرار السير من هذه المحطة لم يلبث أن خاب، حيث اخذ الامير يعتقد انه ليس من امل في نجاحه ، مدفوعاً الى عقيدته هذه بعدم الثقة في الشعب وامكانياته والشعور بالضعف والحاجة الى الغير ، وهي خدلة بدت ظاهرة في اثناء الثورة في ابيه ثم في اخيه فيصل على ما ذكرناه في المناسبات السابقة بالرغم عن ما كان من امكانيات كبيرة في المكان الجغرافي وفي السكان وفي الشعور الذي ظل متوفزاً في مختلف انحاء سوريا تحتاج الى شيء من الجهد والدأب والتضحية، واتجه امله إلى امكان الوصول الى نتيجة ايجابية في صدد استعادة العرش السوري عن طريق المناسبات الحسنة والمساعي الودية ، فاستدعى رضا الركابي واسند اليه رئاسة الحكومة ، واخذ يتجهم لرجال الحركة القومية او بالأحرى للاستقلاليين ويرى في نشاطهم خطراً على امارته الجديدة وامله الطريف ، فأخذ الناس ينفضون من حول عمان واستمر التشاد بين الامير وبين الذين بقوا لبقاء املهم في الانتفاع بهذه المحطة بأي شكل كان امداً غير قصير ، حتى ابلغهم وجوب الخروج من منطقة الامارة ، ولم يلبثوا أن تلقوا دعوة من الملك حسين فسافروا إلى مكة على مضض موقنين ان هذه الدعوة ليست الا تدبيراً مقصوداً لتخليص الامير من الحاحهم وخطر حركاتهم ، وأن تبدل موقفه منهم ومن فكرة السير الجدي التحريري التي كان متحمساً لها في ما اذاعته من مناشير قوية عند وصوله معان ، واتجاهاته الطريفة ، إنما كان بنصيحة الانكليز الذين ارتبط مصيره بهم ، بما له صلة لا شك فيها بما كان من تفاهم بينهم وبين الافرنسيين كان من نتائجه إطلاق يد هؤلاء في سوريا واطلاق يد اولئك في فلسطين وشرق الاردن .

ولقد كان فريق من رجال الحركة القومية والعهد الفيصلي أمّ مصر قبيل الانهيار والعهد وبعده واستأنفوا نشاطهم في سبيل تحرير سوريا ووحدتها، وانضم اليهم بعض المنفضين من عمان . وقد بدأ نشاطهم بعد اشهر قليلة من الانهيار حيث ارسل كل

من حزب الاتحاد السوري ورئيس المؤتمر السوري السيد رشيد رضا وبعض اعضائه وجماعة حزب الاستقلال احتجاجاتهم إلى جمعية الامم على ما جرى ويجري في سوريا. ثم دعا حزب الاتحاد السوري الى عقد مؤتمر في جنيف لتوحيد جهود الاحزاب والجماعات القومية السورية، وعقد المؤتمر فعلا في صيف عام ١٩٢١ وشهده مندوبون عن حزبي الاستقلال والاتحاد السوري ، وعن بعض الجمعيات العربية في المهجر كما شهده مندوبون عن الوفد العربي الفلسطيني الذي كان إذ ذاك في انكلترة بسبيل القضية الفلسطينية ، ورأس المؤتمر ميشيل لطف الله رئيس حزب الاتحاد ، وكان نائباه الحاج توفيق حماد من مندوبي وفد فلسطين والسيد رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري وسكرتيره العام شكيب ارسلان ، وسمي المؤتمر السوري الفلسطيني، واتخذ قرار المؤتمر السوري العام باستقلال سوريا الناجز بحدودها الطبيعية ورفض الانتداب والصهيونية ميثاقاً له ، وانبثق عنه لجنة تنفيذية تمثل الاحزاب والجماعات التي اشتركت فيه كما انبثق عنه وفد لدى جمعية الامم مؤلف من شكيب ارسلان واحسان الجابري ورياض الصلح لمتابعة النشاط ، وارسل مذكرات مسهبة وقوية في بيان حق العرب الشرعي في استقلال بلادهم ووحدتها والاحتجاج على ما كان من نقض عهود العرب ومناقضة المبادىء التي اعلنها الحلفاء والبلاد العربية المحروقة وفرض الانتداب عليها برغم رغبات اهلها واحتلالها، وطالب بالجلاء عن جميع انحاء سوريا وتمكين اهلها من ممارسة حقهم في الاستقلال والوحدة. وظلت اللجنة التنفيذية التي اتخذت القاهرة مركزاً لها من ناحية والوفد من ناحية ثانية ينشطان في مصر واوروبا سنوات طويلة ويبرهنان على استمرار شعلة الفكرة العربية والحركة العربية ، ويتضامنان مع العاملين في هذا السبيل في داخل البلاد وخارجها .

- ٦ -

الثورة الكبرى ومقدماتها واهدافها وادوارها

وفي صيف عام ١٩٢٥ انفجرت الثورة السورية الكبرى واستمرت الى صيف عام ١٩٢٧ ، ومع انها بدأت في جبل الدروز ضد تصرفات حاكم الجبل الافرنسي

وكان لها مقدمات أثارت النفوس وهيأتهـــا لها ، فانها كانت في سيرها واتساعها واهدافها مظهراً للاباء القومي ضد الاستعمار الافرنسي الذي كان يهدف الى اخماد الروح القومية وفرض السيطرة عـــلى البلاد وبث الفرقة بين اهلها وتوهين قواهم وكيانهم، وامارة قوية على استمرار اتقاد الشعلة الوطنية والحركة العربية وجيشانها وبسبيل ميثاق الاستقلال التام والوحدة الطبيعية السورية الذي كان نتيجة من نتائج هذه الحركة والذي قرره المؤتمر السوري العام ، بما سجله قرار زعماء الدروز ومناشير سلطان الاطرش قائد الثورة العربية، ثم مذكرة رجال الحركة القومية في مصر المقدمة للمندوب السامي جو فنيل الذي خلف سراي الذي انفجرت الثورة في عهده ، وما صدر بعد ذلك من مذكرات ومفاوضات ومناشير من زعمـاء الثورة ورجال الحركة ووفودها داخل البلاد وخارجها .

وكان من امر بدئها ان الحاكم الافرنسي العام في الجبل كاربيه اخذ يسير في سياسة شاذة من القسوة والارهاب ونشر جو الجاسوسية والوشايات ، ولم يتورع عن الضرب والصفع والاهانات المتنوعة للبارزين من ابناء الجبل زعماء وموظفين حتى بلغت تصرفاته حداً لا يطاق،فأخذ الزعماء يرفعون اصواتهم بالشكوى والتذمر ، والفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان الاطرش وارسلوا وفداً الى سراي يطالبون بالحكم الوطني الذي كان الافرنسيون عاهدوهم عليه ، ويسردون ما يقاسونه من الحاكم الافرنسي ، فكانت مقابلة سراي للوفد ومطالبـــه فظة ، يهددهم بالنفي والتنكيل ، فزاد هـــذا من التذمر ، وازداد الافرنسيون شدة في قمع التذمر بالاعتقالات والغرامات والاعتداآت المتنوعة الاخرى لأنهم رأوا في الحركة قضاء على السياسة التي ترسموها وساروا فيها خطوات غير يسيرة ، ثم احتالوا عـــلى جلب جماعة من زعماء الجبل إلى دمشق بصفة وفـــد واعتقلوهم ونفوهم الى تدمر والحسجة واعتبروا رهينة على تخفيف الجبل غلواء شكاويه وتذمراته والجنوح الى خطة الخضوع والرضاء التي ساروا عليها من قبل، ثم حاولوا ان يحتالوا على سلطان رئيس اللجنة الوطنية فأخفقوا ، وقام هذا بحملة تحميسية في قرى الجبل ، فبادر الافرنسيون الى قمع الحركة بالشدة ، وسيروا سرية بسبيل ذلك فقابل سلطان

ورجاله المبادرة بمثلها ، وكان من نتيجة ذلك إحراق دار البعثة الانتدابية في صلخد والقضاء على أكثر أفراد السرّية . وكان هذا في أواخر شهر تموز ١٩٢٥ ، فهال الأمر الافرنسيين وأرسلوا حملة كبيرة قوامها ثلاثة آلاف فقابلها الدروز وكانت معركة كبرى عرفت بمعركة المزرعة دحرت فيها الحملة وقضي على نصفها واستولي على أثقالها وسلاحها وعتادها ومؤنها . وقد كان زعماء الدروز اتصلوا من قبل بزعماء حزب الشعب في دمشق وتعاهدوا على التضامن ؛ فلما قويت الحركة واشتدت جنح الافرنسيون الى الملاينة والمراوغة فذهب وفد من حزب الشعب الى الجبل لتوكيد التواثق وتحذير الدروز من الانخداع ، وتعاهدوا من جديد على عدم عقد صلح منفرد والاستمرار في الحركة إلى أن يتحقق الميثاق القومي ، ووعدت دمشق بتهيئة القوى الثورية للاشتراك في العمل وتخفيف العبء عن الجبل ؛ وشعر الافرنسيون بالأمر فاعتقلوا فريقاً من أركان حزب الشعب منهم فوزي الغزي وفارس الخوري وإحسان الشريف وعبد المجيد الطباخ وتوفيق شامية وعثمان الشرباتي ونفوا بعضهم إلى إرواد وبعضهم الى الحسجة(١) . ونجا الباقي والتحق بالجبل ومنهم جميل مردم والدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ونسيب البكري . وهنا تقررت الخطوات الحاسمة فوسدوا قيادة الثورة العامة لسلطان الأطرش والتفوا حوله يسندونه ويعاونونه؛ وصدر أول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ ٢٣ آب ١٩٢٥ يدعو فيه السوريين إلى السلاح والجهاد في سبيل ميثاقهم القومي وكرامتهم وعزتهم الوطنية ، وأخذت الثورة تشتد وتتسع فكانت المعارك المهمة التي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعرى ورساس في حوران واستبسل بنو معروف وكبدوا الافرنسيين الخسائر الجسيمة رغم توالي النجدات وعدم تكافؤ المعدات . ثم تعدت الثورة الجبل الى حماه حيث ثار مجاهدوها بقيادة فوزي القاوقجي الذي كان ضابطاً في الجيش المحلي فإقليم البلان ووادي التيم ؛ وكانت دمشق مسرحاً من مسارحها حتى لقد جاء وقت كانت أحياؤها ومخافرها الداخلية تحت سيطرة المجاهدين التامة ، وحتى كاد مجاهدوها يعتقلون سراي فيها . وقد جنّ جنون الافرنسيين فسلطوا فصائلهم وفصائل السنغاليين ومتطوعة

(١) الحسجه مركز في شمال سوريا وفي باديتها ويبعد عن دمشق نحو (٧٥٠) كيلو متراً . أما إرواد فجزيرة صغيرة قريبة من الساحل السوري .

الشراكسة ليعملوا النهب والتحريق والتدمير وقتل الناس بدون تفريق بين الثوار وغير الثوار وتشهير المقتولين وجرجرتهم في الأزقة في دمشق ، وقصفوها وقصفوا حماة أيضاً وأوقعوا فيها دماراً واسعاً كما قاموا بحملة تحريق وتدمير على كثير من قـــرى غوطة دمشق وحماه والجبل . ولكن كل هذا لم يكن ليزيد النار إلا شدة وضراماً . ومثل أبطال الجبل ودمشق وحماه والغوطة والبلان ووادي التيم أدواراً رائعة من الجرأة وقوة الشكيمة والتصميم ؛ وراح منهم عدد كبير ضحـايا غالية ؛ وعمت الثورة مختلف الطبقات ، وعلى مختلف الوجوه مـــن مقاتلين ومعاونين ومؤازرين ومخبرين وممولين ومموّنين ؛ وقد نشط رجال الاحزاب والحركة القومية الذين كانوا خارج البلاد فاشترك بعضهم في الثورة وقيادتها كما فعل ذلك بعض من بقي في البلاد ، وقام باقيهم بجهود ضخمة في جمع التبرعات وتنظيم الحملات وتزويد الجبهات بالسلاح والعتاد والمؤن والكساوي وبث الدعـايات في مختلف الأوساط الشرقية والغربية والأوروبية والأميركية .

ولقد عمد الافرنسيون إلى بث الخوف في نصارى جبل عامل وراشيا وحاصبيا وتسليحهم وتحريضهم ومدّهم بعصابات من الموارنة ودفعهم جميعاً إلى القتـــال في جانبهم كما أخذوا يجمعون السلاح من مسلمي لبنان سنييهم وشيعييهم ودروزهم بقصد إرهابهم وإرهاب الثوار معاً في جعلهم تحت رحمة الذين سلحتهم من النصارى وخاصة من الموارنة ، وحذراً من امتداد نار الثورة وسريانها فيهم في آن واحد . وقد فطن زعماء الثورة إلى هـــذا المكر اللئيم فأذاعوا المناشير المنبهة لسوء نوايا الافرنسيين والمطمئنة للنصارى والمتضمنة توكيد سمو أهداف الثورة ونوايا القائمين بها . ومع ذلك فلم تذهب هذه الحركة سدى حيث وقعت بعض الحوادث المؤسفة بين النصارى والثوار في مناطق راشيا وحاصبيا وجبل عامل مما تعمده الافرنسيون بسبيل تحقيق خططهم في التفرقة وإثارة الخوف والعداء بين طوائف البلاد وطبقاتها .

جوفنيل وبهلوانياته

على أن فجائع الثورة وأخبارها أثارت قلق فرنسا واضطرتها بعد انفجارهـــا بثلاثة أشهر إلى سحب سراي وتعيين جوفنيل مكانه ، وهو سياسي محنك آمـــل

الافرنسيون فيه القدرة على تهدئة الأمور . وكان هذا أول مفوض سياسي حيث كان أسلافه من العسكريين .

ولقد كان سراي يتهم الانكليز بتعضيد الثورة ، ويرى من أدلة ذلك اتخاذ الثوار فلسطين وشرق الاردن مراحاً ومنتجعاً ومصحا . وقد كان رجال الحركة القومية الذين تولوا تنظيم شئون الثورة وتمويلها وتموينها من الخارج يقيمون وينشطون في البلدين بحرية نسبية؛ فرأى جوفنيل أن يزور لندن للتفاهم على ماينبغي من تدابير في هذا الصدد . ويظهر أنه كان للانكليز مطالب متصلة بالحدود السورية الفلسطينية والعراقية فتم التفاهم في هذه الزيارة على تحديد جديد يرضي الانكليز ويضمن عونهم المطلوب . ثم قدم جوفنيل الى القاهرة وأخذ يتصل برجال اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ؛ وقد جنح في بدء الاتصال إلى التوافق مع ميشال لطف الله على تحديد العلاقات بين سوريا وفرنسا بمعاهدة تتضمن الاعتراف باستقلال سوريا وقيام حكم وطني دستوري وإصدار عفو عام ؛ ثم عقد رجال الحركة والأحزاب اجتماعاً تدارسوا فيه الموقف وتقدموا بمذكرة مفصلة ضمنوها أهداف الحركة ومطالبها وكانت مصوغة بقالب قوي اتخذه جوفنيل وسيلة للاحتجاج والتوقف عن المفاوضات ، وغادر القاهرة إلى سوريا حيث أخذ يطلب إلقاء السلاح قبل الدخول في أي مفاوضة ، والاعتماد على العدالة الافرنسية بكلمات طنّانة مبهمة . والحق إن جوفنيل حاول أن يلعب دوراً بهلوانياً بثرثرته وتصريحاته ووعده ووعيده، ولكنه لم يكشف عن أية رغبة صادقة عنده أو عند حكومته في الاستجابة لصوت الحق ؛ وظهر أن ما كان منه إنما كان مراوغة وتخديراً وكسباً للوقت إلى أن تصل الحملات الكبرى التي أزمعت فرنسا على ارسالها للقضاء على الحركة والاستمرار في ما رسمته من منهج باغ ، وفرض الحلول المزيلة الخداعة .

على أن زعماء الثورة ورجال الحركة لم ينخدعوا فظلوا من ناحيتهم يصرون على تأليف حكومة يرضون عنها ، وإعلان العفو والموافقة على معاهدة تتضمن الاعتراف بالاستقلال والوحدة والحكم الدستوري النيابي قبل إلقاء السلاح .

يقظة الامة وروحها

ولقد كان تشاد قوي بين الروح الوطنية والخداع الافرنسي سجل فيه نصر عظيم للروح الوطنية بالرغم عن ما كان خلاله من بعض العثرات والدور الباهتة . فقد حاول جوفنيل أن يوجد ثغرات في الصفوف فأمر السلطات باختيار وفد من وجهاء دمشق ليقدموا مطالب البلد ، وانتخب الوفد باشراف الافرنسيين في أذار سنة ١٩٢٦ ولكن المطالب التي قدمها لم تختلف في جوهرها عن المطالب القومية حيث تضمنت دعوة جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور على أساس السيادة القومية ، وعقد معاهدة تحل محل الانتداب يعترف فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الاقتصادي على شرط عدم اخلالها بالسيادة ، وإنشاء جيش وطني لتمهيد الجلاء عن البلاد ، ودخول سوريا في جمعية الامم ، وتوحيد جبلي الدروز واللاذقية مع سوريا ، وإعادة الاقاليم السورية المنضمة إلى لبنان ، وقيام حكومة وطنية موقتة تمهد لقيام حكومة دائمة على اساس الدستور الجديد ، وإعلان العفو العام ، والتعويض على منكوبي الثورة .

وقدم صبحي بركات رئيس الحكومة استقالته ناصحاً بإجابة مطالب البلاد لتهدئة الحالة ، فدعا جوفنيل الشيخ تاج الدين الحسني لاستلام منصبه فاشترط هذا الموافقة على مطالب البلاد كمنهج لحكومته ، وقدم لائحة بهذه المطالب مماثلة للائحة وفد الشام ؛ وكان كل هذا نتيجة لقوة تلك الروح وأثر جو الثورة . وقد أخذت جوفنيل العزةُ بالاثم وتكشفت نياته الاستعمارية على سجيتها إزاء هذا التصميم على عدم الانخداع فعين إفرنسياً لرآسة الحكومة . ولقد حاول أن يفرق بين السوريين والدروز فاخذ حاكم الجبل الافرنسي بناء على توجيهاته يذيع اذاعات يغمز فيها زعماء الثورة من الدروز لاهمالهم إستقلال الجبل واستغراقهم في الدعوة الى استقلال سوريا ودمج الجبل فيها ، ويمجد الدروز ويحرضهم ويخوفهم ويطمعهم ؛ ولكن هذه المحاولات باءت بالاخفاق كذلك .

ومما جرى أن جوفنيل أرسل الامير أمين أرسلان إلى الجبل بكتاب وجه

الخطاب فيه للشعب الدرزي وطلب فيه آراءهم في الموقف ، فعقد وجهاء الجبل وذوو الشأن فيه اجتماعاً كبيراً في دامه بتاريخ ٢٨ شباط ٩٢٦ تداولوا فيه الامر ووقعوا على كتاب جوابي طالبوا فيه الاعتراف باستقلال سوريا التام ووحدتها وإنشاء جيش وطني يمهد للجلاء الافرنسي . وتأليف مجلس تأسيسي يضع دستوراً لسوريا تنبثق عنه حكومة سورية وطنية ، وإصدار عفو عام ؛ مما أثار حنق جوفنيل وخيبته وحمله على إرسال جواب قال فيه ان الكتاب يجعل كل مفاوضة مباشرة وغير مباشرة مع العصاة مستحيلة وإنه لن يقبل بعد الآن سوى الخضوع بدون قيد وشرط .

وعمد جوفنيل إلى حيلة اخرى فدعا إلى انتخابات عامة في مناطق حلب وحماه وحمص بقصد التعرف الى آراء ممثليها وبث روح التفرقة بينها وبين دمشق وحوران اللتين استثنيتا من الانتخاب ؛ ففطن اهل تلك المناطق للحيلة فأظهروا عزمهم على مقاطعة الانتخابات ، وظلوا صامدين بالرغم من التهديد والوعيد والترهيب والترغيب . وبالرغم مما كان من اعتقال الوطنيين البارزين فيها ونفيهم ، ولقد استطاعت السلطات أن تحمل بعض العناصر الموالية لها في حلب على الاشتراك في الانتخابات فأعلنت المدينة الاضراب وقامت المظاهرات وارتفع اصوات الاحتجاج والاستنكار ، وكانت اشتباكات راح فيها عدد غير يسير من ابنائها شهداء وجرحى وحوكم بسببها بعض الوطنيين والشباب . ومع ذلك كله فإن المنتخبين هذا الانتخاب المزيف المغموس بالدم على علاتهم حينما دعوا إلى الاجتماع وتقديم المطالب لم يسعهم تحت تأثير الجو القومي الشديد الا أن يقدموا مطالب متسقة مع المطالب القومية مما أثار حنق جوفنيل ودفعه الى الغاء مجلسهم ! ولقد سرت هذه الروح القوية إلى المنطقة الغربية الساحلية بمناسبة إعلان العزم على منحها دستوراً نكاية بسوريا فقامت حركة واسعة للمطالبة بالانفصال عن لبنان والانضمام الى سوريا في صيدا وصور وجبل عامل وطرابلس الشام وبعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع ومن قبل مسلمي مدينة بيروت أيضاً، وعمد جوفنيل إلى حيلة جديدة حيث دفع الشريف عبد المجيد حيدر (١) إلى الحركة بحجة الرغبة في إقامة عرش سوري يتوسده

(١) هو ابن الشريف حيدر الذي عينه الاتحاديون اميراً على مكة بدلا من الحسين حينما أعلن هذا ثورته . وقد اقام جل أيام الحرب في بيروت ولبنان .

وتتحقق مطالب البلاد على يده إذا هدأت الثورة ؛ ولكن الحيلة أخفقت كذلك لفقدان طابع الاخلاص والصدق عليها .

اشتداد الضغط على الثوار وأثره

وفي أثناء ذلك أخذت النجدات المنتظرة تتوارد من فرنسا فاغتنم جوفنيل الفرصة فاتصل بالداماد أحمد نامي التركي الاصل(١) وفاوضه على تأليف الوزارة ، واتصل هذا برجال الحركة الوطنية فتطابقوا على التعاون معه إذا وافق المندوب السامي على منهج وطني للوزارة . وقد كان هذا المنهج مستمداً من لائحة الشام ؛ وإزاء هذا العناد القومي الذي لم يلن في أثناء اشتداد الثورة وخفوتها وبالرغم عن متنوع الاساليب والمحاولات التي عمد اليها رأى جوفنيل نفسه مضطراً إلى المسايرة إنقاذاً لسمعته كسياسي معدود كانت باريس تعوّل عليه في تهدئة الحال وتمشية الأمور فتبادل مع أحمد نامي الرسائل حول المنهج والموافقة عليه وتألفت الوزارة في شهر مايس واشترك فيها من الوطنيين لطفي الحفار وفارس الخوري وحسني البرازي .

ولكن الروح الاستعمارية الغادرة لم تغير خطتها فمع ان الوزارة تألفت على أساس منهج معين متفق عليه تناول في ما تناوله توحيد جبل الدروز واللاذقية واستعادة الاقاليم المضمومة الى لبنان وتسكين الاضطرابات والنفوس الثائرة بالتسامح والملاينة فإن جوفنيل ومعاونيه من جهة وقواد القوى العسكرية من جهة اخرى لم يلبثوا أن تجاهلوا هذا ، وأن أخذوا يسيرون في خطة معاكسة بالنسبة للمسائل الأولى ، وان تذرعت السلطات العسكرية بأسباب تافهة فقصفت الميدان بالمدافع ودمرت فيه نحو الف منزل ، وأباحت بمقياس واسع ، وأخذت تضيق الخناق على مراكز الثورة الرئيسية ، وتعيد تمثيل أدوار التنكيل والتحريق والتدمير والغرامات . وعمدت السلطات الافرنسية الى الاستعانة على هذه المقاصد بالمتطوعة الشركسية والأرمنية والاسماعيلية والنصيرية والمارونية والدرزية من كتائب الجيش المحلي والتي اعدت خاصة لمثل هذه المواقف على ما قلناه قبل. وكان ينطوي في هذا التدبير اللئيم بنوع خاص نية إضرام نار الحقد والبغضاء والفتنة بين

(١) الداماد لقب كان يطلق على من له صلة مصاهرة بالاسرة العثمانية ومعنى الكلمة « صهر »

سكان البلاد وجعل هـــذه العناصر والطوائف تستمسك بالافرنسيين وتخاص في خدمة أغراضهم خوفاً من أهل البلاد وطمعاً بالحظوة .

ولقد كان لكل ذلك أثر ما في تخفيف حركة الثورة بالرغم بما أبداه المجاهدون من بسالة وإقدام وبطولة في مختلف الجبهات. واغتنم جوفنيل الفرصة فأباح لمتطوعة الشركس والأرمن هذا الحي فعاثت فيه تحريقاً ونهباً وفتكاً وهتكا، ووسعت نطاق قمعها حيث تناول قرى الغوطة بالتحريق والتدمير والنهب وتقتيل الابرياء الذين لا علاقة لهم بأعمال الثورة والتمثيل بمن ظفروا به من رجال الثورة تمثيلاً لئيما . . مما أحدث رد فعل شديد في الشعب ، وحمل الوزراء الوطنيين الثلاثة على المطالبة بالكف عن سياسة القمع والسير في نطاق المنهج المتفق عليه بالنسبة للوحدة والاقاليم المضمومة إلى لبنان ؛ ويظهر أن زملاءهم في الوزاوة لم يتضامنوا معهم في الموقف فطلبوا من الرئيس تعديل وزارته وجعلها متجانسة ومخلصة للمنهج المتفق عليه ؛ فلم يلبثوا أن فوجئوا باستقالة الوزارة وإعادة تأليفها بدونهم ، وباعتقالهم مع سعد الله الجابري وفوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي ونفيهم الى الحسجة ثم إلى أميون لبنان حيث بقوا كذلك شهوراً عديدة ولم ترد إليهم حريتهم إلاّ بعد انسحاب جوفنيل بمدة طويلة .

- ٩ -

وفي أواسط عام ١٩٢٦ انسحب جوفنيل من سوريا نتيجة للضجة التي ثارت حول كوارث التدمير والطغيان في القمع ولاخفاقه في مراوغاته وحيله وإيجاد فئة تتعاون معه على ما أراده من حلول هزيلة . وقد ظلت الثورة مشتعلة بعده مدة اخرى ، غير أن الحملات القوية الجديدة أخذت تنجح في ضغطها وتطويقاتها واستطاعت ان تضطر المجاهدين الى الانسحاب خطوات بعد خطوات من جبهات القتال في الغوطة ثم في الجبل ؛ ولا سيما ان التعب أخذ يدب فيهم ، والعتاد والمال والوسائل الضرورية تشح بين أيديهم حتى اذا كان صيف عام ١٩٢٧ كانت بقية السيوف وخاصة بني معروف قد نزحت الى شرق الاردن . وعنا كشر الانكليز عن نابهم لهم ، حيث كانوا نالوا ما يريدونه من فرنسا من تعديلات حدودية ، فاضطروا الى الالتجاء إلى قريّات الملح في أراضي المملكة السعودية بعد أن نال

بعض رجال الحركة الاذن لهم بذلك من الملك عبد العزيز ، وأقاموا فيها بضع سنوات متجلدين صابرين على الشظف والحرمان بعد نضال رائع وبطولة فائقة امتد امدهما سنتين طويلتين ، هذا مع التنبيه على أنهم ظلوا على صلة بالحركة الوطنية في خطوات الحلول النصفية التي حاولت أن تفرضها فرنسا ، وكان لصلتهم تأثير توجيهي قوي في مختلف أدوار هذه الخطوات .

امور مؤسفة في صفوف العاملين في الثورة وأثرها

ونقول مع الاسف إنّ رجال الحركة الذين اشتركوا في الثورة وتنظيمها وتمويلها وتموينها لم يبقوا اثناءها متماسكين متضامنين ؛ فقد وقع بينهم انشقاق في صدد ادارة الثورة وتمويلها وتموينها، وسرى ذلك إلى صفوف المجاهدين وقادتهم مما نتج عنه بعض صور ووقائع محزنة ، وكان ذلك من عوامل ماطرأ على حركة الثورة من فتور وضعف ، وما كتب لحركات القمع الشديدة من نجاح ؛ وقد كان هذا الانشقاق شبه امتداد لما كان من حركات انشقاقية وتشاد وتجاذب بين رجال العهد الفيصلي ، حيث كان المتشادون المتشاقون يمثلون الفئتين المتشادتين المتشاقتين في ذلك العهد أو يمتون اليهما .

اثر الثورة في الروح الوطنية

على ان ذلك الجهاد الأبي القوي والضحايا العزيزة ، والعزيمة القوية لم تكن لتذهب سدى . فقد كان ذلك كله دلائل قوية وهاجة النور على قوة الروح القومية في الشعب السوري وتقديره قيمة الحرية والكرامة والاستقلال ، وإبائه الضيم والخسف والخضوع الذي أراد المستعمر الغشوم فرضه عليه، واقدامه على التضحيات الباهظة في سبيلها اذا تزعم حركاته زعماء وضعوا نصب اعينهم التضحية والاقدام واسعفت الوسائل والظروف؛ كما كان له صدى قوي في الاوساط السياسية العالمية ، وكان مادة فياضة للاحتجاجات والدعاية التي قام بها رجال الحركة في الخارج ومدداً لاينضب استمدت منه الحركة الوطنية في الداخل في الادوار التالية لها قوة وعزيمة وروحاً . وليس من ريب في انه كان ذا اثر بليغ في فرنسا نفسها ، وأنه



سلطان الاطرش



مدينة دمشق تحترق



جثث شهداء الثورة تعرض في المرجه

فريق من شهداء الثورة السورية



احمد مربود — فائق العلي — عز الدين الحلبي

حمد البربور — توفيق الحلبي — صالح قنباز

حمد الاطرش — فؤاد سليم — عادل نكد

برهن لها على حيوية الشعب العربي وإبائه واستمرار اتقاد الشعلة القومية بل وازديادها اتقاداً، وعلى استحالة قتل الروح القومية الاستقلالية فيه مهما استطاعت كبح جماحها بالقوة الغاشمة المتفوقة ؛ ومحاولاتها بسبيل ايجاد حلول نصفية بعد انفجار الثورة تمت بصلة ما إلى المطالب الوطنية إنما كانت نتيجة لذلك الاثر . ولكن الروح الاستعمارية الباغية التي أملت عليها الغدر والتنكر لمبادىء الحق والحرية والوفاء منذ الأصل والتي كانت تتغلف احياناً بالاعتبارات العاطفية وأخرى بالتقاليد والمصالح كانت طاغية على رجالها ، فكان ذلك عاملاً في استمرار البـــلاء على سوريا واستمرار المراوغات والمخاتلات والغدر في المدة الطويلة التي تلتها .

- ٩ -

بونسو ومكره

وجاء بونسو في أواخر عام ١٩٢٦ خلفاً لجوفنيل ، وكانت الحملات العسكرية ضد الثورة في طريق النجاح . وقد أعلن فيما أعلن أنه آت لاتمام الخطة التي اعتزمها سلفه والتي وافقت عليها الحكومة الافرنسية وجمعية الامم والمستمدة من ميثاق هذه الجمعية ؛ وهي تمهيد السبيل لنمو سوريا ولبنان نمواً تدريجيا كدول مستقلة وتنشيط الاستقلال الداخلي على قدر ما تسمح به الظروف والاستمرار في القيام بواجبات الانتداب المعهودة إلى فرنسا ! وان كل هذا يجب ان يتضمنه الدستور المقبل ؛ غير أنه لايمكن ان يتم طفرة او ان يكون مـــن شأنه تخلي فرنسا عن مهمة ضمان الأمن والسكينة والارشاد . وهكذا دشن عهده ببشرى سيادة الروح الاستعمارية واستمرارها مع محاولة لفها ببرقع زائف .

ولقد اقام هذا المفوض في منصبه نحو سبع سنين أي مدة تعدل مدة جميع من سبقه، وقضت البلاد في عهده دوراً عجيباً أخر من المراوغات والمخاتلات والمحاولات بسبيل الحلول المزيلة . وكان هذا الرجل على عكس جوفنيل سكوتاً بارع المراوغة في صور الدس والاختبار والمشاورة وعدم الاهتمام للوقت ؛ حيث كان يمر الأشهر الطويلة بين خطوة وخطوة ومرحلة ومرحلة مع أن الخطوات والمراحل كانت تقتضي التلاحق . وكان هذا متعمداً من دون ريب للتخدير وايجاد الثغرات وصرف الافكار

إلى انتظار نتائج الخطوات والمراحل بشيء من الأمل والسكوت .

ولقد قضى نحو ثمانية عشر شهراً منذ قدومه بحجة الدرس والاختبار والمشاورة مع باريس ؛ ثم خطا خطوته إلى دعوة جمعية تأسيسية تضع دستوراً لسوريا وينبثق عنها حكومة ممثلة للشعب تسير مع فرنسا في طريق الحل الملائم للقضية ، وقداصدر تصريحاً وعد فيه بحرية الانتخابات ، وقيد الدستور المطلوب وضعه مع ذلك بنطاق مهمة فرنسا الانتدابية المستندة إلى صك الانتداب ، وأصدر عفواً استثنى فيه عدداً كبيراً من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية . وهكذا كانت خطوته الأولى في سبيل حل قضية سوريا متعثرة بالروح الاستعمارية وكانت خطواته التالية كذلك طيلة عهده، مع ما كان في خطوته من تظاهر بالرغبة في مسايرة المطالب الوطنية على النحو الذي كان رجال الحركة والجهاد يصرون عليه مما يصح ان يسجل انه اثر من آثار الثورة والحركة.

الكتلة الوطنية

وفي اثناء هذه الحقبة نشأت الكتلة الوطنية على انقاض حزب الشعب الذي غادر عدد من أعضائه البلاد منذ انفجار الثورة ولم يعد ينشط خلالها . وقد انضم إلى اعضائه الذين بقوا في البلاد فريق آخر من المتسقين معهم في المبادىء الوطنية . فغدت هذه التشكيلة تمثل الحركة القومية في سوريا وتقودها وظلت كذلك إلى الحرب العالمية الثانية ، وكان ينضم اليها من آن لآخر من يتيسر له العودة من رجال الحركة أو من ترى في انضمامه فائدة من رجال البلاد الآخرين .

وبمناسبة تصريح بونسو ودعوته إلى جمعية تأسيسية عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة اجتماعاً ضم جمهرة الرجال الوطنيين الذين ظلوا خارج البلاد وتقرر فيه اذاعة بيان بوجوب تضمن الدستور وحدة سوريا الطبيعية وسلطانها القومي بدون شائبة ؛ وأذاع سلطان الاطرش بياناً مثل هذا وموجباً أن يكون جبل الدروز ضمن الوحدة السورية ، وعقد أنصار الوحدة في مناطق لبنان واللاذقية مؤتمراً في دمشق قرروا فيـــه تأكيد الميثاق القومي والمطالبة بالنص على الوحدة

السورية التى تضم جبل الدروز ومنطقة اللاذقية والاقضية الاربعة وجبل عامل وسائر المناطق التى ضمت إلى لبنان وصار بها كبيراً ولم تكن منه قبل ذلك . وقد كان غورو أعلن بتاريخ ٣١ آب سنة ١٩٢١ ضم جبل عامل وصيدا وصور وطرابلس الشام وحصن الأكراد وبيروت وراشيا وحاصبيا والبقاع وبعلبك الى لبنان القديم وسماه لبنان الكبير ضارباً بعواطف ورغبات أهل هذه البلاد التي لم تكن داخلة فيه عرض الحائط ، وكانت الاقضية الاربعة تابعة لولاية سوريا وجبل عامل وصيدا وصور وطرابلس والحصن وبيروت تابعة لولاية بيروت التي كانت تضم كذلك لوائي عكا ونابلس في فلسطين ، واكثرية البلاد المنضمة مسلمة .

وقد كانت الوفود المشتركة في هذا المؤتمر من الطبقة الوطنية المحترمة في مناطقها والمعبرة عن رأي أهلها تعبيراً صادقاً . وقد كان لهذه الحركات والبيانات أثر قوي في شد أزر الكتلة الوطنية وتثبيتها كما كانت إعلاناً جديداً عن تغلغل فكرة الوحدة القومية في مختلف المناطق الشامية ، وعن تذمر الذين ضموا إلى لبنان بالرغم عنهم .

- ١٠ -

الجمعية التأسيسية والدستور

وفي ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٨ جرت انتخابات الجمعية التأسيسية واشتركت الكتلة الوطنية فيها بالرغم عما كان من تقييد بونسو الدستور بنطاق الانتداب وغموض وعوده ومقاصده ، وأذاعت بياناً أكدت فيه حرصها على تحقيق الأهداف القومية في هذه الخطوة ، فحالف مرشحيها النجاح بمقياس متناسب مع الروح الوطنية التي كانت سائدة بقوة الثورة وتضحيات البلاد وبطولة المجاهدين مما لم يكن يتوقعه الافرنسيون وجعلهم يحسبون له الحساب. وسارت الجمعية في عملها إلى ان تم وضع دستور احتوى فعلا مطالب البلاد كالنص على السيادة والوحدة وعدم اعتبار ما كان من تجزئة ، وحقوق رئيس الجمهورية بصفته ممثل السيادة القومية ، وحقوق المجلس النيابي ومسؤولية الوزارة أمامه والتمثيل الخارجي والجيش الخ .

وقد كانت المواد التى تنص على ذلك والتى عرفت بالمواد الست موضوع تشاد

بين الجمعية وبونسو (١) ؛ لأن هـــذا اعتبرها متعارضة مع مهمة الأنتداب وغاياته وطالب بحذفها . وأبت الجمعية ذلك بقوة وتأثير النواب الوطنيين لأن الدستور بدونها يغدو تافهاً والدولة تكون محرومة من سيادتها واستقلالها . وجرت الاتصالات والمراجعات بسبيل التوفيق، ولقد سارت الجمعية في هذا الطريق شوطاً غير يسير حتى أثر عــن ابراهيم هنانو زعيم الكتلة الوطنية قوله « لقد تساهلنا إلى ان كدنا نقع في الخيانة » حيث اقترحت من جملة ما اقترحته للخروج من المأزق هذه التعديلات :

أولا ان أحكام المواد ٧٣ و٧٤ و٧٥ و١١٠ و١١٢ تنفذ باتفاقات خاصة بين الحكومتين السورية والافرنسية ريثما تعقد المعاهدة لتحديد العلاقات بين الدولتين.

ثانيا تعدل المادة الثانية من الدستور على الوجه الآتي : البلاد السورية وحدة سياسية لاتتجزأ وحقوق الاعتراض على التجزئة مضمونة .

غــير ان الروح الاستعمارية أبت ان تتساهل لأنهـا رأت في التساهل انهزامـا وتخليا عن مطامعها ، فأجل بونسو الجمعية الى اجل غير مسمى ورفض ما قدم له من حلول تساهلية ولم يعبأ بما كان من احتجاج الجمعية التأسيسية والهيئات الوطنية واستيائها ، ولم يخجل من ترديد نغمة سوء النية وعدم الثقة والرغبة في الشغب التي

---

(١) هذه نصوص المواد الست المذكورة :

المادة (٢) ان البلاد السورية المنفصلة عن السلطنة العثمانية ذات وحدة سياسية لاتتجزأ ولاعبرة لكل تجزئة طرأت بعد الحرب العامة حتى اليوم .

المادة (٧٣) لرئيس الجمهورية حق العفو العام . أما العفو الخاص فلا يمنح الا بقانون .

المادة (٧٤) يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وابرامها . اما المعاهدات التي تنطوي على شروط تتعلق بسلامة البلاد أو بمالية الدولة ، والمعاهدات التجارية وسائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة فلا تعد نافذة الا بعد موافقة المجلس عليها .

المادة (٧٥) يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين الأجانب السياسيين ويقبل الممثلين ويعين الموظفين والقضاة ويرأس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون .

المادة (١١٠) تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص .

المادة (١١٢) رئيس الجمهورية يعلن بناء على اقتراح مجلس الوزراء الأحكام العرفية في الاماكن التي تحدث فيها اضطرابات او قلاقل . ويجب ان يعرض اعلان الاحكام العرفية المذكورة على المجلس النيابي فوراً . فاذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة .

كان الافرنسيون يرددونها إزاء المواقف الوطنية . ثم اذاع بعد سنة بقرار منه دستور الجمعية التأسيسية بعد إدخال كثير من التعديلات عليه، ووضع مادة اضافية اخيرة وهي المادة (١١٦) التي تعطل استعمال رئيس الجمهورية وحكومته بعض الحقوق والصلاحيات التي ذكرت في المواد الست الآنفة الذكر حيث عدلت المواد ٢و٥و٨ و١٤ و١٧ و٢٤ و٤١ و٦٨ و٧٥ و١٠٧ و١٠٨ و١١٥ والغيت المادة ٦٠؛ والتعديلات متصلة بالوحدة والجيش والحرية الشخصية وحرية الصحافة واللغة العربية والانتخابات وصلاحيات رئيس الجمهورية ومدته، وممثلة للروح الاستعمارية المتحكمة في الافرنسيين، ومحققة لرغبة التدخل وشل معنى السيادة . اما المادة (١١٦) المضافة فهذا نصها :

« ما من حكم من احكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز ان يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسوريا لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الامم . ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد المتعلقة بالمحافظة على الامن والدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلائق الخارجية ولا تطبق احكام هذا الدستور التي من شأنها ان تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسوريا اثناء مدة التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد باتفاق يعقد بين الحكومتين الافرنسية والسورية . وعليه إن القوانين المنصوص عليها في مواد الدستور والتي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا يناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا القرار ، وإن القرارات ذات الصفة التشريعية او التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الافرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين . »

وقد أثارت هذه التعديلات والتحفظات العجيبة التي مسخت الدستور والاستقلال والسيادة وحرية مجلس النواب والحكومة ورئيس الجمهورية الهياج وقامت المظاهرات الاحتجاجية ، وأضرب الناس في دمشق وغيرها ، وأعلنت الكتلة الوطنية أنها لن تتقيد بها وأنها لن تتراجع عن اعتبار دستور الجمعية هو القائم الواجب احترامه وتطبيقه . ودعا سلطان الأطرش الى مؤتمر يعقد في مربض المجاهدين في الصحراء فاستجاب اليه فريق كبير من رجال الحركة الوطنية ، وقرر المؤتمر تجديد العهد على إنقاذ سوريا وتحقيق مطالبها وحقوقها كاملة .

ومما جرى أن بونسو أقدم على حركة أثبتت إصرار فرنسا على النهج الاستعماري الخاص بجبل الدروز ومنطقة اللاذقية مما أشرنا اليه في مناسبة سابقة ؛ حيث أصدر مع دستور سوريا ثلاثة دساتير اخرى واحداً لجبل الدروز وثانياً لمنطقة اللاذقية وثالثاً لمنطقة الاسكندرونة تنص على استقلال هذه المناطق مالياً وإداريا ، وحصر دستور سوريا الممسوخ في مناطق دمشق وحوران وحلب وحماه وحمص .

- ١١ -

الجمهورية السورية الاولى في ظل الانتداب

وصبر سنتين طويلتين ثم أعلن في أوائل ايلول من عام ١٩٣٢ موعداً لانتخاب المجلس النيابي الذي ينص عليه دستوره . وقد حصل قبيل هذا الاعلان من زعماء الدروز والعلويين الأنصار المندمجين في السياسة الافرنسية والذين كانوا يتحكمون بتعضيد فرنسا في رقاب شعبيهم على مضابط ببقاء الانتداب الافرنسي والرغبة في الانفصال والكيان الخاص مقدمة لما يراد أن تكون عليه المعاهدة المزمع عرضها على سوريا . ولم يكتف بهذا بل حصل على مضابط من المسيحيين الأنصار بطلب بقاء الانتداب والرغبة في الحماية الافرنسية والنص على ذلك في المعاهدة !

وجرت الانتخابات فنفذت السلطات الافرنسية ما بيتته وتدخلت تدخلاً فظيعاً في الانتخابات لضمان فوز مرشحيها ، وكان لعمالها وضباط استخباراتها خاصة دور كبير في هذا الباب حيث أمكنهم نشر جو كئيب من الارهاب ، وأصلت السيف على رؤوس زعماء الوطنيين وصحفهم واجتماعاتهم ، وشجع الأنصار والمأجورون على نشر المناشير ضدهم وإلصاق تهمة التآمر على الوطن والمآرب الذاتية والهوس بهم . ولقد أدى تدخل السلطات السافر في الانتخابات لصالح مواليها ضد الوطنيين إلى مظاهرات وهياج وتحطيم صناديق الانتخاب في أماكن كثيرة ووقوع اشتباكات بين الجيش والشعب وجرح عدد من الأهالي واعتقال عدد كبير من الشباب في دمشق وحلب وحماه . وكانت نتيجة الانتخابات فوزاً ساحقاً لمرشحي السلطات بحيث بلغ عددهم ٥١ من ٦٩ ؛ وقد قدمت الطعون الموثقة بالوثائق الدامغة ولكن اكثرية المجلس بتشجيع السلطات لم تعبأ بذلك وصدقت الانتخابات واعتبرتها صحيحة .

ولقد تردد نواب الكتلة الوطنية في الاشتراك في المجلس بعد هذه النتيجة ، ثم رأوا أن يسيروا في الشوط مرحلة أخرى فقرروا الاشتراك في المجلس والوزارة . وقد انتخب محمد علي العابد رئيساً للجمهورية بموافقة الوطنيين الذين تفادوا بهذا نجاح مرشح السلطة صبحي بركات ، مع أن محمد علي العابد كان ممن فازوا في الانتخابات من مرشحيها . وتولى رئاسة الوزارة حقي العظم الذي كان كذلك من مرشحيها ودخل جميل مردم ومظهر رسلان من الكتلة فيها .

المعاهدة الانتدابية ورفضها

وبعد قليل ظهر ما كان مبيناً حيث عرض المفوض السامي معاهدة معدة لاتحقق سيادة ولا وحدة فقررت الكتلة انسحاب ممثليها من الوزارة وأعلنت عزمها على مقاطعة المجلس فأجّل عرض المعاهدة .

واعفي بونسو من المنصب وعين دومارتيل خلفاً له . وقد اضطلع بعبء عرض المعاهدة وتصديقها . وقد تبادل التوقيع عليها فعلاً مع رئيس الوزارة في اواخر عام ١٩٣٣ ؛ وكانت تنص على توكيل فرنسا في تمثيل سوريا الخارجي ، وفرض مساعدة فرنسا العسكرية في حفظ الامن والدفاع ، وبقاء الانتداب الى ان تقبل سوريا في عصبة الامم ، وتعليق مساعدة فرنسا في هذا القبول على وصول سوريا الى حالة من الرقي تسمح بذلك ، وفرض مساعدة فرنسا في تنظيم دوائر الحكومة والدرك والشرطة والجيش لتحقيق ذلك الرقي في فترة قدرت بأربع سنين مبدئياً ، وبقاء قوات برية وجوية في اراضي سوريا للغايات المذكورة ، كما كانت تنص على استقلال جبل الدروز ومنطقة اللاذقية الذاتي والمالي والاداري . ولم تر فرنسا بأساً بعد كل هذه النصوص في النص على استقلال سوريا وسيادتها ، وعدم اعتبار وجود قواتها احتلالا ، واعتبار جبل الدروز ومنطقة اللاذقية جزءاً من سوريا !! جرياً مع الذهنية الاستعمارية بأن العرب يقنعون بالاقوال والاشكال ، وقد وجدوا منهم من يقنع بذلك ويوافق على المعاهدة .

وقد عرضت الحكومة المعاهدة على المجلس ، وكانت اخبارها قد اثارت هياجاً

وصخبا ؛ فاضطر كثير من نواب السلطات الى التوافق مع نواب الكتلة الوطنية وقرروا رفضها ووقعوا على مضبطة بذلك . ووزعت المعاهدة على النواب وبدىء بمناقشة عامة حولها ، والقى وزير المالية خطاباً مستفيضاً في الدفاع عنها في جلسة ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ وحينئذ تقدم جميل مردم الى المنبر فتلا مضبطة الرفض ؛ وبدا ان السلطات كانت تتوقع ذلك حيث وقف مندوب المفوض السامي وتلا قبل ان ينتهي جميل مردم من تلاوة السطر الاخير من المضبطة قراراً من المفوض بوقف المجلس جاء فيه انه قرر وقف مذاكرات المجلس لانه خرق احكام مواد الدستور بمناقشته في موضوع غير موضوع الميزانية المعروضة عليه تحت تأثير المظاهرات . ولكن محضر الجلسة كان قد دوّن الوقائع والمضبطة ايضاً . وقد امر المفوض الحكومة بسحب المعاهدة من المجلس فأرسل رئيس الوزارة كتاباً جاء فيه انه ثبت قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك في مسؤوليات المعاهدة ولذلك رأى فخامة المفوض السامي استردادها لانه لا يجوز وضع اعباء المناقشة فيها على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها ممارسة الاحكام الدستورية والتقاليد النيابية . .

على ان اكثرية اعضاء المجلس اجتمعت في دار رئيسها بعد ان منعت الاجتماع في دار البرلمان ووقعت بياناً احتجت فيه على تدخل السلطات الانتدابية ووقفها الحياة النيابية ، واعلنت توكيد رفضها للمعاهدة المغايرة لرغائب الامة من وحدة وسيادة واستقلال. وهكذا باءت المحاولة بالاخفاق، واثبتت سوريا وعيها، وجرفت قوة روحها الوطنية كتلة كبيرة من مرشحي السلطات الذين اختارتهم ليكونوا آلات طيعة في يدها ؛ وكان لهذه النتيجة رد فعل عظيم في البلاد فاقيمت حفلات الحفاوة والتكريم للنواب ، كما قامت المظاهرات الاحتجاجية على تعطيل المجلس .

ولم تكن السلطات التي تستملي الروح الاستعمارية لتخجل مما قالته وفعلته مع انه هو الذي لا يتفق مع المنطق والحق والدستور والواقع .

ومن المؤسف ان الوزارة ظلت في الدست بالرغم عن مامنيت به من صدمة واخفاق وبالرغم من وقف المفوض السامي للحياة النيابية التي انبثقت من دستور نافذ وقامت الجمهورية الاولى وحكومتها على اساسه ؛ بل انها لم تبال فضلا عن ذلك ان تكون واسطة تبليغ لقرارات المفوض السامي ؛ بل ولقد سارت شوطاً ابعد في النكاية

حيث نفذت ايعازاً انتقامياً فأنزلت مخصصات اعضاء المجلس وملاك ديوانه رغم نص الدستور .

على ان كل هـذا الاندماج والمالأة لم ينجها من المصير المحتوم ؛ فقد اوعز لها بالاستقالة بعد قليل من هذه التمثيلية لتحل محلها حكومة الشيخ تاج الدين .

حكومة الشيخ تاج الاولى

وحاول هذا اقناع الكتلة الوطنية بالتعاون معه للخروج من المأزق ؛ وقد كان التوتر مشتداً بين الكتلة والسلطات فلم تر الكتلة هذه المرة وجهاً ولا فائدة في ما دعيت اليه فألف وزارته من عناصر أخرى ؛ وظلت الكتلة تتولى تسيير الحركة نحو تحقيق الميثاق وتوالي احتجاجها ونشاطها .

وقد ادى هـــذا الموقف السلبي الى اشتداد التوتر بين السلطات الافرنسية وحكومة الشيخ تاج من جهة وبين الكتلة التي كان الشعب يؤازرها وينضوي تحت لوائها من جهة اخرى .

قوة الحركة الوطنية واضرابات عام ١٩٣٥

ولم تكد تنتهي سنة ١٩٣٤ حتى اخذت الحركة الوطنية تعود الى قوتها وتزعج السلطات الحكومية السورية والانتدابية معاً وكان شعارها سقوط الحكومة التاجية وتحقيق الميثاق على يد الكتلة . وقد كانت الى هذا حركة مقاطعة للكهرباء والترام قادها فخري البارودي أحد رجال الكتلة احتجاجاً عـلى تعسف الشركة الاجنبية ، فكانت هذه الحركة وسيلة الى الهاب الشعور الوطني المتقد ، وعمدت السلطات الى القمع بالعنف فاعتقلت فخرياً وبعض مساعديه ونفتهم الى مركز في الصحراء كما اعتقلت كثيراً من مساعديه الآخرين فازدادت النار اشتعالاً واعلنت دمشق الاضراب العام وتبعتها المدن الاخرى ، واستمر اضراب دمشق خاصة نحو شهرين تكررت فيها المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدموية والاعتقالات ،

وغدت البلاد وخاصة دمشق في حالة ثورية عصبية، كانت تشتد كلما اشتد الافرنسيون في العنف والشدة . وبذل الشيخ ما استطاع من جهد لتلافي الحرج فلم يفلح، وخشي دومارتيل أن تتطور الامور الى ثورة كبرى جديدة ، ولم تزل صورة الثورة الكبرى ماثلة للعيان بما كبدته للافرنسيين من جهد وضحايا فجنح الى المسايرة ، راجتمع برئيس الكتلة الوطنية هاشم الاتاسي الذي استلم دفة الزعامة بعد موت هنانو ووقع الاثنان اتفاقاً مبدئياً على خطوط حل يتسق مع المطالب الوطنية على أن تجري المفاوضات بشأنها في باريس .

اقالة الشيخ والمعاهدة الثانية

ثم أقال حكومة الشيخ تاج في شباط ١٩٣٦ وعين حكومة انتقالية حيادية برآسة عطا الايوبي وعضوية وزراء رضيت عنهم الكتلة ، واعيد فخري البارودي من منفاه ، وأفرج عن بقية المعتقلين وكان ذلك مما اتفق عليه أيضاً ، فانفرجت الازمة وفكّ الاضراب الطويل الذي كان له صدى بعيد في الأوساط السياسية المختلفة والذي كان الاول من بابه أيضاً بجفاوة وطنية استشعر بها الشعب بعزته وكرامته . وسافر وفد المفاوضة المؤلف من رئيس الكتلة وبعض أعضائها وبعض اعضاء الوزارة الى باريس ومعهم دومارتيل وجرت مفاوضات انتهت بعقد معاهدة أيلول عام ١٩٣٦ التي كانت على غرار المعاهدة العراقية - الانكليزية حيث جعلها رجال الحركة الوطنية نموذجاً واسوة ... وقد نصت على السيادة والاستقلال وحق سوريا في التمثيل الخارجي ، وعينت فيها فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تتسلم الحكومة الوطنية خلالها ما في ايدي السلطات الانتدابية من دوائر وسلطات حكومية مشتركة وغير مشتركة وتدخل سوريا عقب انقضائها عصبة الامم . ومع انها كانت تنطوي على ثغرات عديدة وخاصة في صدد صفة الوحدة السورية حيث أصر الافرنسيون على ان يكون لجبل الدروز واللاذقية ومنطقة الاسكندرونة بعض الامتيازات والشخصية الخاصة، وكذلك في صدد مركز فرنسا السياسي والعسكري والارشادي والثقافي والاقتصادي حيث الحق بالمعاهدة ملاحق تسجل لفرنسا امتيازات

وحقوقاً ومنافع عـديدة في هـذه الشؤون فانها كانت على كل حال خطوة جديدة ومستقيمة الى تحقيق الميثاق القومي .

وقد جرت الانتخابات للمجلس النيابي الجديد ففاز مرشحوا الكتلة فوزاً كبيراً، وانتخب هاشم الاتاسي في كانون الاول من عام ١٩٣٦ رئيساً للجمهورية بدلا من محمـد عـلي العابد الذي نصح بالاستقالة تفادياً مـن الاقالة والخلع ، وتألفت أول حكومة يصح ان تسمى الحكومة الوطنية الاستقلالية برآسة جميل مردم وعضوية سعد الله الجابري وشكري القوتلي والدكتور عبد الرحمن الكيالي ، ونعت عهدها بالعهد الوطني .

الفصل الثاني

العهد الوطني الاول

١٩٣٦ - ١٩٣٩

- ١ -

الحيوية الوطنية في العهد الوطني

لم يكد هذا العهد يقوم وتستلم الحكم فيه الكتلة الوطنية التي كانت كثرتها من رجال الحركة القومية الأولين وممن كان لهم دور بارز في عهد فيصل وما بعده من عهود النضال حتى أخذ جو الشام يتبدل ويتبسم بعد ذلك العبوس المرير المديد، ويشبه بعض الشبه جوّها في عهد فيصل، وأخذ نسيم العزة القوميـــة يهب فينعش الأرواح ويثير الحماس، وأخذت الحركة العربية تستعيد جيشانها وحيويتها، والنشاط القومي يبدو قوياً، وأداة الحكم تدور في دائرة الاصلاح والاحياء والانعاش والتنظيم واستصدر العفو عن المحكومين من زعماء الثورة ورجال الحركة القومية فأخذوا يعودون إلى الشام وتقام لهم الاستقبالات الرسمية والشعبية الحافلة، وبالجملة فقد بدأ عهد يبعث في النفوس الاستبشار والتفاؤل .

دسائس الافرنسيين للعهد

غير أن الدسائس لم تلبث أن أخذت تدس لهـــذا العهد فتعكر صفوه، وتلبد جوه، وتعرقل سيره، وأخذ الناس يشعرون أن فرنســه الاستعمارية لم تتغير، وأن ما بدا منها من الجنوح للملاينة لم يكن الا من قبيل مسايرة الظروف الخارجيـة والداخلية، حيث كانت نذر الثورة تهدر في الداخل وشبح الحرب العالميـة بسبب أزمة عدوان الطليان على الحبشة واستعادة الألمان حيويتهم وحريتهم ومطامحهم يتراءى في الخارج

ولقد لعب الموظفون الافرنسيون المحليون وضباط الاستخبارات خاصة في سبيل إحباط هذا العهد دوراً لئيماً وفظيعاً جداً. فقد كانوا يتمتعون بالجاه والمراكز والنفوذ والمرتبات الضخمة والامتيازات ووسائل الاثراء المتنوعة، وكانوا المنفذين للسياسة الاستعمارية التي سير عليها خلال المدة الطويلة، ولم يكن أكثرهم ذوي كفاءات علمية وفنية وإدارية تفسح لهم مجال الرزق الواسع في ميدان آخر أو في فرنسه مثلا، ورأوا في نجاح هذا العهد قطع أرزاقهم ونهاية مجدهم، فقابلوه بالسخط واعتزموا الدس لهوإحباطه وعدم تيسير استلام أيإدارة أو صلاحية منالادارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي نصّت المعاهدة على تسليمها خلال فترة السنوات الثلاث للاحتفاظ بما كانوا يتمتعون به منجاه ورغد رزق من جهة، والكيد لرجال العهدالقوميينالذين وقفوا من السلطات الاستعمارية التي كانت تتمثل في اشخاصهم موقف المناضل منذ البدء والذين لم يندمجوا في ما كان يعرض من حلول هزيلة تحفظ لهم ذلك الرزق والمجد من جهة أخرى . فأخذوا يتآمرون على العهد ويكيدون لرجاله بكل وسيلة . وقد أكسبهم طول المران براعة وقدرة في الكيد والدس وإثارة الهواجس والفتن والأحقاد، كما أنهم استطاعوا مع الزمن أن يكونوا أنصاراً وأعضاءاً مأجورين أو طامعين أو حاقدين، ولم يتورعوا عن أي شيء في سبيل تحقيق غرضهم والوصول إلى هدفهم .

ولقد نجحوا في مؤامراتهم ومكائدهم بما بثوه من دعايات وتحريضات، وأثاروه من هواجس وفتن، وشجعوا عليه من شقاق ونفاق ومعارضة حزبية شخصية، وفتحوه تحت أقدام الحكومة من هوات هاوية، وأدخلوها فيه من مآزق محرجة، ونحتوه من أثلتها وأضاعوه من هيبتها ونفوذها وعطلوه من مشاريعها في سورية، وبما لفقوه من أكاذيب ورفعوه من تقارير في باريس، وقد استند رجال الأحزاب الاستعمارية والعسكرية إلى ذلك كله، واستغلوا ما كان من أزمات عالمية فحملوا الحكومة الافرنسية على أن تخطو في النهاية خطوتها الغادرة الىنكث العهد ونقض الميثاق، ونفض اليد من المعاهدة التي وقعتها، والعهد الذي قام عليها .

ومع أنه قد يكون ارتكب في هذا العهد ومن قبل رجاله القائمين بـه بعض الأغلاط ووقع بعض المفوات، وكان هناك بعض اجتهادات وأعمال خاطئة أو

تقصير في ما يجب العناية به من مختلف الشؤون وخاصة وسائل النضال وتقوية الجبهات الشعبية، أو كان هناك جنوح الى مسايرات ومساعدات إرضائية في الوظائف وغيرها، ومع أَن الضعف في بنية الامة ظل شديداً لا يمكن المكابرة فيه فان هذا وذاك كانا طبيعيين بعد أن مر بالبلاد ما مر من عهد طويل مملوء بالدسائس والمكائد والدعايات والعثرات والعراقيل والتوجيهات الاستعمارية، وبسبب عدم مران الفئات الصالحة فى أخلاقها وقابلياتها وعدم النضوج بوجه عام في شؤون الحكم والدولة، ثم بسبب ما كان جاثماً على صدر البلاد من كابوس إرث استعماري ضخم من القوانين واللوائح والموظفين والوظائف والمناهج والتنظيمات والشركات والامتيازات وجهاز الحكومة، وإنه كان في الامكان تحسن الحال واستقامة الأمور والسير في سبيل الاصلاح الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتشريعي والاداري، وتقوية بنية الامة لو تيسر لهذا العهد دوام وبقاء، ولم يقف الافرنسيون منه وبالتالي من الحركة العربية التي تمثل فيه موقف الغدر والدس كما وقفوا موقفهم من عهد فيصل والحركة العربية التي تمثلت فيه، والسائق لهم الى هذا الموقف هو السائق الى ذلك بطبيعة الحال، أي مناوأة الفكرة العربية وشل الحركة بسبيلها وتعطيل كل حيوية في الأمة والحيلولة دون أي تقدم وقوة فيها وتسخير البلاد وأهلها لسلطانهم وإستغلالهم وتحكمهم تسخيراً تاماً كل ما يمكن أن يسمحوا به أن يكون مضروبا عليه بستار شفاف مزيف من أشكال باهتة وكلمات جوفاء .

- ٢ -

عدم الحزم ازاء الدسائس

ومما يجدر بالتسجيل أن دسائس الموظفين الافرنسيين أخذت تلمس منذ أوائل هذا العهد بمختلف الاشكال فلم تقابل بالحزم الكافي، فكان ذلك عاملا في تماديهم في خطتهم الى أن وصلت إلى البشاعة التي لا يمكن أن تطاق، وظهرت أصابعهم الملوثة صريحة واضحة دون ما خجل او تستر في كثير من الاحداث والمناوآت والفتن .

ولقد كانت الجزيرة وجبل الدروز ومنطقة اللازقية خاصة من مسارح هذه الاحداث والمناوآت والفتن التي قام اولئك الموظفون بأدوارهم الخبيثة عليها، ووجهوا الى العهد وكرامته وهيبته أشد الطعنات منها .

موقف نصارى الجزيرة من العهد

ولقد كان من التياريين الذين يسمون أحيانا بالاشوريين تسمية مغلوطة جماعات ساكنة في البلاد التركية المتاخمة للعراق وسورية الشمالية، وكانت وسيلة شغب وفساد وتمرد في الانحاء التي كانت فيها في أيدي الاجانب ، فلما نجحت الحركة الكمالية اضطرت الى مغادرة الاراضي التركية فشجعهم الانكليز والافرنسيون على الهجرة الى العراق وسورية والتوطن فيها ، وأنزل الذين أتوا الى سورية في محطة القامشلي وحواليها في الجزيرة، ومنحوا الاراضي والمساعدات للتوطن والاستقرار، وادخل فريق منهم في الجيش السوري . وقد انضم اليهم بعض الذين هاجروا الى العراق حيث وقف هؤلاء من حكومة العراق واعتماداً على ما رأوه من عطف الانكليز ورعايتهم موقف المتمرد المشاغب، فكان باعثا للحكومة العراقية على التنكيل بهم، ففر المشاغبون من العراق الى سورية، وشجعهم الافرنسيون على التوطن عند اخوانهم السابقين، فتكوّن من هؤلاء وأولئك ومن بعض الشراذم العنصرية والنصرانية الاخرى مجموعة بلغ عددها نحو عشرين الفا استقروا في قرى الحسجه وعاموده والقامشلي، وقد وجد الافرنسيون في هذه المجموعة عنصر شغب ودس، واستجابت هي اليهم لتنال الرعاية والحماية الافرنسية في وسط الخضم العربي الاسلامي الذي هم فيه والذي تتكون أكثريته الكبرى المحلية من البدو والاكراد، فصارت لهم أنصاراً وأعضاداً وعيونا وأداة شر وفتنة، وكانت تتجه في كل اتجاه يريد الافرنسيون أن يكون فيه معاكسة ومغايرة للامال الوطنية والحركة العربية الاستقلالية، كما كان المجندون منها في مختلف الحركات والمواقف وسيلة تنفيذية صادقة في الاخلاص لهم موثوقة من قبلهم .

فلما كان العهد الوطني حرك ضباط الاستخبارات والموظفون الافرنسيون هذه

الاداة ودفعوها الى التمرد والشغب وفقا للمنهج الذي رسموه للتشويش على هذا العهد وإحباطه، فأخذت تطالب ببقاء الحماية الافرنسية، وعدم الاندماج في الحكم السوري، وجعل منطقتها ذات شخصية مستقلة كجبل الدروز ومنطقة اللاذقية، وتوافحت بقوة التحريض والتشجيع حتى وصل الامر بها الى منع كل من يودالتوطن في منطقتها ممن يريد الاعمار والعمل من أهل انحاء البلاد الاخرى المسلمين والبغي عليهم والكيدلهم وسد المنافذ في وجوههم والى التظاهر والاعتداء كذلك على موظفي الحكومة ورفض أوامرها وقوانينها والامتناع عن أداء ضرائبها على مرأى ومسمع من اولئك الضباط والموظفين، بل ولقد حاصر بعض اشقيائهم المحافظ مرة في بيته، واطلقوا النار مرة على محافظ آخر في طريقه الى الحسجة ليحل محل زميله، وخطفوا مرة ثالثة محافظا آخر وابقوه سجينا في مكان مجهول بضعه ايام كرهن على اجابة مطالبهم !

وفعلوا هذا في جبل الدروز الذي كان لهم فيه القدم الراسخة والاعضاد والانصار والذي انتهجوا نهجا خاصا فيه ليكون لهم نقطة ارتكاز وكيد في المواقف العصيبة . على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

دسائس الافرنسيين في جبل الدروز ضد العهد الوطني

ولقد كان المأمول أن تكون الثورة السورية الكبرى التي ساهم الدروز فيها بنصيب وافر جدير بالاعجاب والتقدير والفخر، والتي كان قائدها العام منهم وامتزج فيها دمهم بدم اخوانهم السوريين، والتي كان من أهدافها وحدة سورية واعتبار جبل الدروز جزءاً منها مما كان يتكرر قويا بارزاً في مناشير قائدها العام كافية لازالة النعرة الطائفية والانقباضية ، وغسل الهنات المتوارثة فيهم . غير أن الافرنسيين لم ييأسوا وظلوا على دسهم ومكائدهم ونهجهم الاستعماري الذي ترسموه بعدفتور الثورةوزاد فيجرأتهم في ذلك تغيب أبطالهم المجاهدين مشردين في الصحراء . فلما عقدت المعاهدة وانبثق عنها العهد الوطني واعترف فيها بجبل الدروز كجزء من سورية، ساروا على نفس الخطة في إبقاء الجبل مجالا لدسهم وكيدهم، واستغلوا



المرحوم الزعيم الكبير ابراهيم هنانو



فخامة الرئيس هاشم الأتاسي

ما نصت عليه المعاهدة من الاستقلال المالي والاداري المحلي فيه فأخذوا يشجعون أهله على التشدد في الاحتفاظ بشخصية جبلهم وطائفتهم ، ويعرقلون مساعي رجال العهد في اثارة الروح القومية فيهم ، وإقامة العهد الجديد على اساس التضامن والامتزاج التأمين بينهم وبين سائر أجزاء سوريا وابنائها مما هو طبيعي جداً لأن الدروز اقحاح في عروبتهم ولأن شخيصتهم الطائفية ليست إلا اثراً من اثار تيارات السياسة التي كانت في بعض أدوار التاريخ الاسلامي - ويدفعون بعض زعمائهم وأنصارهم وطامعيهم وآلاتهم ومأجوريهم الى الشعب على الحكومة الوطنية وممثليها وموظفيها حتى وصل الامر الى اقامة المظاهرات العدائية المسلحة ضد هؤلاء الممثلين والموظفين وطرد بعضهم على مرأى ومسمع من ضباط الاستخبارات والموظفين الافرنسيين ، بل لقد كان تشجيعهم على هذا الشعب جهرة وعياناً دون ما تستر ولا إستخفاء ، وجعلوا مشكلة الجبل من مشاكل هذا العهد ومنغصاته حتى استمرت المشكلة بعده أيضاً لمدة طويلة ، ولم تكد تنتهي الا في الحقبة الاخيرة .

دسائسهم في منطقة اللاذقية

وما فعلوه في جبل الدروز فعلوه في نصيرية منطقة اللاذقية التي نصت المعاهدة على اعتبارها جزءاً من سوريا والتي كانوا فيها أرسخ قدماً بسبب ما كان يوجد فيها من المسلمين السنيين النافذين في بعض المدن ، ولقد قووا أنصارهم من الزعماء والمشايخ بالمال والسلاح وحفزوهم إلى الوقوف موقف المتمرد الباغي على السلطات الحكومية السورية ، يتحدون نظامها وقوانينها وأمنها وهيبتها ، وكان هذا منهم كذلك جهرة بدون تستر أو استخفاء ، حتى لقد كانوا يستقبلون زعماء الشعب في بيروت وهم مدججون بالسلاح ومعهم اتباعهم المدججون به ايضاً ، كما كان ضباطهم يزورونهم في مراكز شغبهم ويتبادلون معهم الهدايا ، وجعلوا مشكلة هذه المنطقة من مشاكل العهد الوطني ومنغصاته التي استمرت بعده ايضا لمدة طويلة ولم تكد تنتهي إلا في الحقبة الاخيرة كذلك .

- ٣ -

خيانة الافرنسيين والانكليز في قضية الاسكندرون

ومما هو حري بالتسجيل من المواقف الغادرة الافرنسية في هـذا العهد حادث الاسكندرونه . فهذه المنطقة جزء متمم لسوريا من الوجهة الاقتصادية والجغرافية، وهي مسكونة بأكثرية عربية اكثرها من النصيرية وفيها اقلية ارمنية كما فيها اقلية تركية كبيرة .

ولقد حرص الافرنسيون وفاقاً للمنهج الاستعماري الذي ساروا عليه باستغلال كل فرقة طائفية وعنصرية ودينية في سوريا وتقويتها بسبيل مناوأة الفكرة العربية القومية وتوطيد اقدامهم على ان تكون هـــذه المنطقة بسبب ما فيها من مظاهر وفروق طائفية وعنصرية مسرحاً من مسارح دسهم وكيدهم ؛ فاعتبروها ذات شخصية خاصة كما فعلوا بالنسبة لمنطقتي جبل الدروز واللاذقية، وحكموها في اكثر الظروف حكما عسكريا مباشراً ، وجرياً على ذلك اصدروا لها دستوراً خاصاً حينما اصدر بونسو دستور سوريا كما فعل بالنسبة للمنطقتين على ما ذكرناه سابقاً . وفي معاهدة عام ١٩٣٢ نص على شخصية خاصة لهـا كما فعل مثل ذلك بالنسبة للمنطقتين المذكورتين ايضاً ، واصر الافرنسيون على شيء من مثل ذلك في معاهدة عام ١٩٣٦ وإن كان جاء اخف مما كان .

ولقد كان الاتراك بزعامة مصطفى كمال يبيتون في انفسهم الطمع في المنطقة ويعتبرونها جزءاً من دولتهم ويتحينون الفرص لتحقيق مطمعهم . وقـــد سجلوا تحفظهم في شأنه في اتفاق المدنة الذي عقدوه مع فرنسا على انفراد في سنة ١٩٢٠، فاعتبروا تحفظهم هـــذا تسجيلا لحق قبل به الافرنسيون ، فكان ذلك مما يقوي مطمعهم ؛ هذا مع التنبيه على ان هذا التحفظ لم يعد له قيمة بعد معاهدة لوزان التي عقدت بينهم وبين الحلفاء عام ١٩٢٢ والتي لم يسجل فيها شيء من هذا القبيل . ومما لا ريب فيه ان المنهج الاستعماري الذي انتهجته فرنسا وموظفوها قد كان عاملا في تقوية هـذا المطمع ؛ ولو لم ينتهجوه وغدت المنطقة محافظة عادية كسائر محافظات سوريا لكان من المحتمل ان لا تقع كارثة سلخها عن امها بغياً وغدراً .

ولقد استقرت حالة تركيا الحديثة وقويت خلال الخمس عشرة سنة التي مرت بين معاهدة لوزان وتاريخ الكارثة فقوي مطمعها في اللواء ، وغدا ضم المنطقة اليها طائفاً مستمراً في ذهن زعيمها ورئيس جمهوريتها . وكانت معاهدة ١٩٣٦ والعهد الوطني الذي قام على اساسها من الحوافز للحركة العاجلة خشية نجاح العهد وصعوبة تحقيق المطمع بعد مرور مدة من الزمن . وقد كان ما بدا من فرنسا وموظفيها من نية الغدر والنكث وإحباط عهد المعاهدة من مقويات امل تركيا وزعيمها والباعث على حركتهم ؛ فأخذوا في تحريك اتراك المنطقة اولا ودفعهم الى المطالبة بالانضمام الى تركيا أو قيام جهاز حكومي تركي فيها بزعم ان اكثرية سكانها تركية، ولم تلبث الحكومة التركية ان ظهرت على المسرح رسمياً وعلناً لتعضيد حركتهم ، فأثارت الموضوع في عصبة الامم .

ولقد كانت فرنسا وبريطانيا اعتزمتا التقرب الى تركيا واخذها لجانبهما حينما بدا من هتلر ما بدا وتأزمت الأحوال فسايرتاها في موقفها وتقرر نتيجة لذلك احصاء اللواء تحت اشراف لجنة دولية . وقد رافق الاحصاء ضغط وتلاعب سافرين من تركيا وفرنسا مما أثار سخط اللجنة وجعلها توقف عملية الاحصاء . ومع ذلك فقد ظلت تركيا تسير في سبيل غايتها وظلت فرنسا تستجيب اليها . ونتج عن ذلك وضع قانون اساسي تطبيقي للواء من قبل عصبة الامم في شهر مايس من عام ١٩٣٧ ، وقد نص القانون في ما نص على ان يكون اللواء مستقلا استقلالا داخلياً تاماً ، وتابعاً في الخارجية لسوريا فتطبق فيه الاتفاقات الدولية السورية ويرعى ممثلو سوريا وقناصلها شؤون اهله ويحمل هؤلاء جوازات سورية ، وكذلك نص على ان يكون بين اللواء وسوريا وحدة جمركية ونقدية ، واعتبر اللواء فيه مجرداً من السلاح وحظر فيه الخدمة الاجبارية وصناعة السلاح ومروره ، وجعل لتركيا ميناء حر في مرفأ اسكندرونة تكون متمتعة فيه بالسيادة التامة . وقد نص النظام فيما نص على ان يكون للواء مجلس تمثيلي ثمانية من اعضائه ترك وستة علويون واثنان سنيون وثلاثة من الطوائف المسيحية ، وان يكون له حكومة على رأسها رئيس منتخب من قبل المجلس لمدة خمس سنوات ، وان تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية الاولى واللغة العربية اللغة الرسمية الثانية . ثم عقدت اتفاقيات بين فرنسا وتركيا تبادلتا فيها التعهد بضمان الحدود بين تركيا وسوريا واللواء وبتأمين الامن في اللواء والدفاع عنه بواسطة قوة افرنسية وتركية متساوية .

ومع ما انطوى في هذا من نذر انسلاخ اللواء عن سوريا وقيام حكومة تركية تقريباً في اللواء فإن فرنسا اقنعت الحكومة السورية بالموافقة على امل ان يقف الامر عند حد الشخصية المستقلة اللواء ضمن الدولة السورية .

على ان الامر لم يقف عند هذا الحد. فقد اشتد جو اوروبا تلبداً في اواسط عام ١٩٣٨ واشتدت رغبة انكلترا وفرنسا في محالفة تركيا التي وجدوا فيها سداداً لحاجتهم، ولا سيما انهم ضامنون من بلاد العرب وحكوماتها ما يبتغون بالمعاهدات القائمة بينهم وبينها والتي احتوت ما احتوته من القيود والشروط وبواقع احتلالهم وسيطرتهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن فعرضوا عليها التحالف . وبالرغم من ان حاجتها الى هـــذا التحالف لا تقل عن حاجة فرنسا وانكلترة بل تزيد بسبب جوارها من روسيا وتحسبها المستمر منها فإن رجالها احسنوا استغلال الموقف من كل جهة ، وطالبوا بضم منطقة الاسكندرونه الى دولتهم . ووازن الافرنسيون والانكليز بين العرب والترك فوجدوا ان هؤلاء اقوى وزناً من الوجهة الحربية والسياسية بالرغم من تفوق العرب في العدد ، فلم يعبأوا بهؤلاء وفضلوا ارضاء الترك على حسابهم، ووافقوا على ضم المنطقة إلى دولتهم غير آبهين للعرب وحقوقهم ولا لشرف العهد الدولي الذي قطعوه على انفسهم والذي ينص بصراحة في صك الانتداب على تحظير التنازل عن ارض ما من سوريا، وسارع الاتراك فاحتلوا المنطقة ورفعوا عليها علمهم غير آبهين كذلك بالعرب وحقوقهم وعواطفهم . وكان ذلك في اوائل تموز من عام ١٩٣٨

وهكذا ارتكب الافرنسيون خيانتهم الكبرى ضد الوطن السوري العربي وشاركهم فيها الانكليز الذين كانوا دائماً وما يزالون ابطال المساومات على حساب العرب وحقوقهم وابطال المآسي الغادرة فيهم .

ولقد كان لهذه المأساة رد فعل جارح في نفوس السوريـــين حكومة وشعباً فقامت المظاهرات وارسلت الاحتجاجات ، وكان هذا كل ما في استطاعتهم ان يفعلوه إزاء المؤامرة الغادرة .

- ٤ -

عدم الانسجام في الافرنسيين وأثره في ما فاسته سوريا

ومما يجدر تسجيله بهذه المناسبة التناقض والتفكك وفقدان الانسجام في

اسلوب الادارة الافرنسية وبين كبار الموظفين الافرنسيين بل وصغارهم أحياناً كثيرة وفي سوريا وباريس مما يرتد اليه كثير من ما كان من مشاكل ومآزق وعثرات ومآس وعسف وبغي في هذا العهد بل طيلة المدة التي بليت فيها سوريا بفرنسا. فدو مارتيل الذي كان أكبر موظفيهم والناظم لسياستهم في سوريا كان قنع وصدق الرغبة في حل قضية سوريا على أساس التفاهم مع الكتلة الوطنية أولاً وعلى أساس مرض ثانيا ، واستطاع أن يقنع رجال حكومته في باريس فتطابقوا معه وكان بنتيجة ذلك عقد المعاهدة التي كانت تتضمن نصوصاً يصح أن نجعلها مرحلة صالحة بقطع النظر عن ما فيها من ثغرات . فالمفروض أن تصبح هذه النتيجة سياسة فرنسا العليا المرسومة وأن تكون هي الناظمة لأعمال وتصرفات الموظفين الافرنسيين الى أن يتقرر الانحراف عنها في الأوساط العليا التي رسمتها على الأقل . ولكن الذي وقع هو عكس هذا تماما . فالمندوب السامي عاد يحمل تلك القناعة والرغبة في السير في تطبيق ما تم التعاقد عليه سيراً نزيهاً يغذيه حسن النية على ما ظهر منه، بينما أباح كثير من الموظفين الافرنسيين لأنفسهم أن يسيروا في طريق تتناقض مع ذلك كل التناقض ؛ ثم أباح كثير من رجال فرنسا الحكوميين والبرلمانيين الذين كانوا من أحزاب الحكومة المتعاقدة أيضاً لأنفسهم وضع العراقيل والعثرات في سبيل حسن تطبيق المعاهدة، ومسخها شيئاً بعد شيء، والتآمر مع بعض الموظفين في سوريا على ذلك عن غير طريق المندوب السامي وعلى غير رغبته وقناعته ، حيث كان هؤلاء الموظفون يرسلون التقارير ويتلقون التوجيهات رأساً على ما استفاضت أخباره حينئذ .

ولقد كان هذا التناقض والتفكك وفقدان الانسجام يبدو كذلك في تصرفات وأعمال المندوبين والموظفين الافرنسيين أنفسهم أيضا ، حيث كان يقع أن يكون لوكيل المندوب السامي في دمشق تصرف واسلوب يناقضان تصرف واسلوب المندوب أو موظفي المندوبية الرئيسيين وفي أمور تتعلق بالسياسة والادارة العامة مما هو مفروض أن يكون له ضابط عام منسجم واحد ، وحيث كان يقع تشاد وتجاذب وتدافع حول السياسات المحلية يبدو آثاره للناس ، ثم يبقى المتمرد الشاذ في عمله فلا يستطيع الرئيس أن يملي على مرءوسه رأيه ويحمله على السير فيه . بل لقد

كان هذا يظهر في المفوضين السامين أنفسهم بحيث يبدو منه أن لكل منهم سياسة شخصية وأنه لم يكن لحكومة فرنسا سياسة عامة مرسومة. فغورو سار على سياسة وويغاند على سياسة وسراي على سياسة وجوفنيل على سياسة وبونسو على سياسة ودو مارتيل على سياسة وبيو على سياسة بينها قليل أو كثير من التناقض .

- ٥ -

جهود حكومة العهد الوطني في سبيل المعاهدة وفشلها

ولقد أرادت حكومة العهد الوطني إنقاذ المعاهدة والتغلب على ما قام أمامها من عثرات بأي ثمن ، فسارعت أولاً إلى عرض المعاهدة على المجلس النيابي وأخذت مصادقته عليها ، ثم أخذت تبذل جهدها في باريس لمثل ذلك باعتبار أن التصديق عليها فيها قمين بايجاد الاستقرار وإحباط المكائد وإزالة العثرات . وقد زار رئيسها باريس لهذا المقصد أكثر من مرة ، فكان يراوغ معه ويعتذر له بانتظار الوقت الملائم ، ويستغل موقفه وما كان يلقاه العهد من دسائس وعراقيل ومآزق ، وما كان من مواقف الاحزاب العسكرية والاستعمارية استغلالاً لئيما فيقترح عليه صيغ جديدة من التحفظات والالتزامات والتفسيرات والملاحق التي كادت تخرج المعاهدة من نطاقها الاستقلالي ، وأدت الى أزمة بين أعضاء الوزارة استقال بعضهم فيها كما أدت الى خلاف وفتور بينهم وبين رئيس الجمهورية فيضطر الى التوقيع عليها على أمل إنقاذ المعاهدة والعهد ، حتى لقد استغلت فرنسا هذا الموقف فأملت على الحكومة السورية عملاً ضد المصلحة العربية وبسبيل إبقاء سوريا منعزلة عن التضامن مع الأقطار العربية الأخرى في قضية فلسطين وغيرها فسايرتها فيه، ونعني به العدول عن الاشتراك في وفد المؤتمر البرلماني الذي قرر هذا المؤتمر المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٨ إيفاده الى لندن ، وكان فارس الخوري رئيس المجلس النيابي قد سافر من دمشق الى لندن بطريق الآستانة لهذا الغرض ، وقد كان رئيس الحكومة السورية في باريس فطلب منه الابراق لفارس الخوري بعدم متابعة سفره، ولقد حالت الحكومة الافرنسية كذلك ولنفس الغاية دون اشتراك الحكومة

السورية في مؤتمر لندن الذي دعت اليه الحكومة البريطانية الحكومات العربية في آخر عام ١٩٣٨ ، فسكتت مسايرة في ما كان على شدة الرغبة الانكليزية وخطورة المؤتمر الذي سجل فيه خروج قضية فلسطين من نطاقها المحلي ودخولها في نطاق العروبة العام . ومما كان بسبيل عدم تسبيب تشاد وحرج عدم متابعة الحكومة السورية أمر استلام الادارات والصلاحيات التي كانت في يد السلطات الانتدابية والتي كان الموظفون الافرنسيون يهتمون كل الاهتمام لاستبقائها في أيديهم مما كان له مساس شديد في مفهومات سيادة الدولة وكيانها ونشاط الحكومة ومتناولها ، وعدم إثارة تعديل الدستور الذي أصدره بونسو مشوهاً معدلاً ممسوخاً عن دستور الجمعية التأسيسية بما فيه المادة (١١٦) الاضافية التي كانت تشل معاني السيادة والاستقلال !

على أن كل ما كان من الحكومة السورية من استجابات ومسايرات وتحاشٍ للتشاد والحرج لم يفدها إلا تكبيل البلاد بالقيود وتعريضها نفسها للنقد والتجريح وضياع الهيبة ، ومنح فرنسا وسائل كيد جديدة للبلاد وأهلها ، وظلت الحكومة الافرنسية على ما سارت عليه من خطة التمطيط والاعتذار الى أواخر عام ١٩٣٨ ثم عرضت المعاهدة على البرلمان واحيلت الى لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الافرنسي ، وأخذت تصدر في نفس الوقت من المقامات الافرنسية البرلمانية والرسمية والدوائر السياسية تصريحات ضدها ، ووقفت الصحافة في موقف التأييد لهذه التصريحات كأنما كانت هناك مؤامرة محبوكة ، فلم يلبث أن أعقب هذه الحملة قرار من لجنة الشؤون الخارجية المذكورة في أوائل عام ١٩٣٩ برفض عرضها على المجلس بشكلها الراهن ، وصدر هذا القرار بينما كان رئيس الوزارة في إحدى رحلاته الى باريس يبذل جهوده اليائسة . ثم بدل دو مارتيل بيبو الذي لم يلبث أن أذاع فور وصوله قرار فرنسا بلزوم إعادة النظر من جديد ووضع نصوص معاهدة جديدة على ضوء الاختبارات ، ثم أعلن ممارسة سلطة المندوب السامي الانتدابية الى أن تعقد المعاهدة الجديدة ، وأخذ يتدخل في شؤون الدولة على أساس هذه السلطة .

ولقد تأزم الموقف بسبب هذه النهاية اللئيمة واضطرت الحكومة الى الانسحاب بضغط الرأي العام والمكائد الافرنسية حيث اعتبر المندوب أن سوريا مقيدة بما وقعه رئيس حكومتها من ملاحق وتفسيرات والتزامات ، مما يعتبر غاية في اللؤم والاستغلال والكيد والابتعاد عن كل منطق ، لأنه تمسكٌ بالفرع مع نقض الأصل الذي نشأ عنه ! وكان من جملة ذلك ملحق بمنح جبل الدروز ومنطقة اللاذقية استقلالا ذاتيا ،وملحق آخر بتنظيم الشؤون الطائفية أثار بعض علماء الدين حوله ضجة لا تتحملها النصوص والمدى ، وكانت من الأسباب المباشرة لانسحاب الحكومة .

ولقد خلفت الحكومة وزارتان أخريان حاولتا تعديل الموقف فلم يمكن الوصول الى حل مرض فاستقالتا دون أن يلبثا طويلا ثم استقال رئيس الجمهورية موجهاً إستقالته الى رئيس المجلس النيابي فكان آخر حياة هذا العهد .

- ٦ -

تعليقات على موقف الحكومة الوطنية ازاء دسائس وغدر الافرنسيين

ولقد بدت دسائس الافرنسيين وسوء نياتهم في سوريا وباريس ضد هذا العهد مبكرة فظنت الحكومة أن في الامكان التغلب على الموقف ، وسارت في سبيل ذلك خطوات متنوعة منها ما ذكرناه آنفاً فلم تعد عليها إلا بإضاعة مزايا كثيرة من روح المعاهدة وقوتها ، على ما كان فيها من ثغرات ، وكان ذلك سبباً من أسباب التمادي في طلب المزيد من التفسيرات والالتزامات والملاحق الى أن صارت أقرب الى الانتداب منها إلى السيادة والاستقلال . ومع ذلك فقد ظلت الحكومة متشبثة بالكرسي باجتهاد السير الى آخر الشوط ، فكان ذلك عاملاً في ضياع هيبتها وتحت أثلتها وإثارة النفوس ضدها وإضعاف مركزها والثقة فيها ، وفتور روح النضال وخمود الحماس في الأمة ، والتصاق ذلك كله بالكتلة الوطنية وامّحاء طابع النضال القومي تقريبا عنها ، وهو الطابع الذي لم ير الافرنسيون بقوته سبيلاً الى تهدئة

الحال إلا بالتفاهم معها .

وهذا الموقف في رأينا كان خطأ وضاراً معا . ولعله من أبرز الأخطاء في هذا العهد من الوجهة القومية والنضالية . وقد صارحنا برأينا هـذا المرحوم سعد الله الجابري في اجتماع لنا معه بمناسبة استقالة شكري القوتلي من الوزارة وتقـديمه استجواباً عن ما فعله رئيس الحكومة في رحلاته وعن سياستها بعد ما صدر من فرنسا مـا صدر مـن تصريحات ، فقال إنهم يفضلون الاستمرار في الشوط الى نهايته والنضال في داخل الحكومة . ولو فعلوا هذا أو لو أنهم استغلواوجودهم في الحكم وهيئوا وسائل النضال حينما خرجوا أو بالأصح حينما أخرجوا من الحكم لكانوا برروا استمرارهم في الحكم وحمد النـاس لهم ذلك ، واثبتوا احتفاظهم بطابعهم النضالي ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً داخل الحكم حينما أعلنت فرنسا نكثها وأذاع مندوبها سحب المعاهدة والعودة الى ممارسة السلطات الانتدابية التي كان يمارسها المندوبون قبل المعاهدة ولا كانوا هيئوا أسباب النضال حينما خرجوا مـن الحكم مـع أنهم قضوا فيه نحـو سنتين ونصف ، فضلاً عن ما أصاب الكتلة الوطنية من تحطيم ووقع فيها من تخاذل ، مع أن الدلائل أخذت تقوم مبكرة على سوء نية فرنسا وموظفيها وكانوا هم أنفسهم يلمسونها عيانا .

ولا ندري إذا كان اجتهادهم يمت بصلة ما الى ما كان وجه من انتقاد الى رجال عهد فيصل - وهم منهم - على مـا أبدوه من تطرف ورفض وإباء للملاينة حيث قيل ان هذا هو الذي أدى الى انهيار العهد ، وان رجاله لو ساروا بروح الملاينة والمسايرة والتروي قبل تفاقم الخطب واتساع الفتق لأمكن انفاذ الموقف ممـا بسطناه في الجزء الاول ، وعلقنا عليه ، فأراد القائمون بالعهـد الجديد أن يتفادوا تكرور المأساة وأن يستمروا في الشوط الى نهـايته . وانتهاء الشوط الى ما انتهى اليه مع ما كان من ملاينة ومسايرة هما أدخل في باب الميوعة والهوان أثبت صحة اجتهاد رجال ذلك العهد من الوجهة النظرية ولا سيما انهم لم ينتفعوا من وجودهم في الحكم ويهيئوا اسباب النضال كما كانوا يقولون ويأملون . فليس من امكان لجعـل المستعمر وخاصة الافرنسي يتراجع عن موقفه بالمسايرة والملاينة، بل وانها ليزيدانه عناداً وقوة . وكل ما اظهر من استعداد له هو ان يستر مقصده بالاشكال والالفاظ

المزيفة الجوفاء . وقد رأينا محاولات الانكليز في العراق ومصر في ما كانوا يعرضونه ويفرضونه من حلول ومعاهدات . وليس من حد يمكن أن يلتقي عنده الاستعمار والسيادة بالتوافق والتطابق .

ومما يجدر تسجيله أن شكري القوتلي قد انسحب من الوزارة بسبب ما وصل اليه الموقف من ميوعة وتساهل ومحاولات خائبة ، وقبل أن يصل امر الوزارة الى الحرج الشديد الذي وصلت اليه فكسب بعمله هذا عطف الجميع واحترامهم ، وكان من جملة أسباب ما ظل يتمتع به من الاحترام والثقة وحسن الاحدوثة والمركز الذي جعله في ما بعد رجل الساعة في سوريا .

ونعتقد ان وزارة الكتلة لو غضبت لكرامتها واستقالت في عهد مبكر لكانت الهبت حماس الشعب وروحه النضالية ، ولاضطر الافرنسيون الى الكف والتراجع ، ولكانت قضية سوريا وعهدها الوطني اكتسبا قوة ومكانة عظيمتين ؛ هذا عدا ما في الاستقالة من معنى الاستنكار والنضال الوطني في حد ذاته مما يتناسب مع طابع الكتلة النضالي .

والنقد نفسه في روحه موجه إلى وزاوة لطفي الحفار الكتلوية التي خلفت وزارة جميل مردم ، فانه ما كان للكتلة أن تقدم على تجربة ثانية بعد ما كان من إخفاق التجربة الاولى وخيبتها ومرارتها على ما كان لوزارة الكتلة الاولى من محاولات وجهود كادت تخرج في لينها وأملها عن الحد الذي يصح الرضاء به، ولاسيما أن نيات فرنسة الغادرة قد ظهرت واضحة لا تتحمل اجتهاداً ولا محاولة ؛ وإن مندوبها أخذ يستعمل سلطاته الانتدابية المتنوعة في التشريع والادارة .

ومن عجيب ما وقع مما هو متصل بهذا الموقف ان الحكومة وقفت موقف المكابرة قبل الاستقالة في صدد تصريحات بيو التي احتوت سحب المعاهدة لاعادة الدرس وحاولت تسكين غليان الساخطين من النواب ورجال الكتلة اوشبابها وإقناعهم بإمكان تعديل الموقف ، وتخفيف وقع التصريحات عليهم مع ما كان من صراحة وقطيعة في موقف فرنسا ورجالها في باريس وسوريا وفي التصريحات نفسها ولقد أهاجت تلك التصريحات وهذا الموقف الافكار وجعلت الشباب والمتحمسين يدعون الى الاضراب ، وبدأ الجو ينذر بانفجار، وصارت تسمع صوت المفرقعات

والأعيرة النارية ، بل وصارت المفرقعات تلقى على حافلات الترام والمخازن غير المضربة ، وأخذت تقـــوم بعض المظاهرات تهتف للاستقلال وتسقط الاستعمار والحكومة ، وكانت يد معارضي الكتلة والناقمين على حكومتها ظاهرة في هذه الحركة ، وكان موقف متناقض حيث لاتتحرك الكتلة التي تمثل النضال ضد مـــا حدث فيقوم مقامها فيه معارضوها ! ومن تمام العجب والتناقض أن بعض جماعات منسوبة الى الكتلة كانت تتصدى للمتظاهرين والهاتفين لمنعهم من المظاهرة فيقع بين الطرفين اشتباكات دفاعاً عـن الحكومة التي ظلت متمسكة بكراسيها إلى آخر اللحظات .

ولم يتـسنّ لثورة الافكار وغليانها وما نتج عنها مـــن مظاهرات وإضرابات استمرار لأنها لم تجد من يغذيها . وقد سارعت السلطات الافرنسية فأنزلت فصائل السنغاليين الى الشوارع وقبضت على عدد كبير من الشبان المتحمسين وساقتهم الى المحاكم وعذبتهم أثناء التحقيق كما اعتقلت فريقاً من رجال الكتلة وشبانها أي نبيه العظمة ورفقاه ممن كانوا يمثلون الجناح المتطرف فيها ونفتهم الى تدمر وتوارى بقية المرموقين المتطرفين ، فلم تلبث أن هدأت الحالة .

ونقول كذلك ان استقالة رئيس الجمهورية قد تأخرت أكثر مما يتحمله طابع النضال الذي كان يمثله بوصفه زعيم الكتلة الوطنية . وإذا كان ممـــا يمكن أن تتسع له حوصلة الايجابية التي جنحت الكتلة الى سلوك سبيلها في هذا العهد أن يظل الرئيس في الدست قبل أن يعلن المندوب السامي بصراحة عودته الى ممارسة سلطاته الانتدابية وطيلة بقاء وزارة الحفار التي خلفت وزارة مردم لانقاذ الموقف فما كان ينبغي في رأينا أن يظل في الدست بعد اضطرارها الى الاستقالة لانها لم تر امكاناً لانقاذ شيء . ومن الغريب أنه بقي في الدست أيضاً بعـد استقالة وزارة نصوحي البخاري التي خلفت وزارة الحفار والتي أخفقت هي الاخرى فيما أخفقت فيه هذه وبعد اعلان المندوب بصراحة عودته الى ممارسة السلطات الانتدابية واعتباره عهد المعاهدة مؤجلا ، وأخذه في اصدار المراسيم التشريعية والادارية التي كانت مـن حق رئيس الجمهورية مدة غير قصيرة محاولاً تأليف وزارة جديدة . ولم يستقل الا بعد اخفاقه في هـذه المحاولة .

ونحن لانشك في حسن قصد هاشم الاتاسي وقـوة مبادئه الوطنية والقومية ، وكون تصرفه قائماً على اجتهاد انقاذ الموقف وتمثيل حق البلاد الشرعي بقدر مايمكن غير ان جميع البوادر كانت شاهدة عـــلى سوء النية وكانت كافية لاقناعه ان هذا أصبح عبثاً ولا سيا انه لم تبـد حركة نضالية قوية ومحتملة الدوام كرد فعل للبغي والنكث بما يمكن معه تبرير البقاء وتمثيل البلاد وحقها الشرعي ، وانه الاكرم له وللمبادىء النضالية التي كان يمثلها أن ينسحب في وقت يكون لانسحابه فيه هذا المعنى أقوى وأظهر . ولاريب في ان هذا الموقف كان متصلا بنفس الاجتهاد الذي اجتهده رجال الحكومة على ما أشرنا اليه آنفا .

- ٧ -

النضال والايجابية والسلبية

ولقد يكون هناك مجال للحديث عن صواب وخطأ استلام الهيئات التي تحمل لواء النضال القومي مقالـــيد الحكم في الفترات الانتقالية والتجارب او الحلول النصفية التي يكون المستعمر فيها ما يزال صاحب الكلمة والشأن . ويبدو أن هناك نظريتين الاولى أفضلية بقاء هذه الهيئات بعيدة عـن الحكم الى أن يتوطد العهد الجديد ويصبح في الامكان الطمأنينة اليه ، على ان يتولى الحكم أناس يمتون اليهم من ذوي النيات الحسنة والسلوك القويم ، فيكونوا موجهين بتوجيهها ، وبـذلك تظل قوى الامة النضالية متكاتفة ، وتظل الهيئات النضالية قوة مـــوجهة للحكام ومهددة للمستعمر ، وتظل هاتان الجبهتان متحسبتين في خطواتها وتصرفاتها، وتظل الهيئة المناضلة بعيدة عن الدسائس المتنوعة الـتي تجد مجالها الواسع في حالة استلام هذه الهيأة تقاليد الحكم سواء من جانب المستعمرين أو من جانب عناصر الشعب، وبعيدة كذلك عن مواطن التهم مما يمكن أن يناله الحكام من جاه ونفوذ ومنفعة مادية وبما قد يؤثر في نزاهتهم وسمعتهم وقوتهم النضالية والتوجيهية والشعبية . أما الثانية فهي افضلية استلام الهيئة المناضلة لمقاليد الحكم لانها بوصفها راعية المبادىء الوطنية وحاملة لواء الدعوة الى النضال في سبيل حقوق الامة والبلاد فلا يمكن

ان يكون من هو أصلح منها للسير في هذا المجال ، وأن الحكم هو مجال تحقيق تلك المبادىء وتوطيد هذه الحقوق ، وفيـــه وسائل كثيرة لتقوية روح الشعب وتشكيلاته واصلاح جهـاز الدولة وتخليصه مـــن الروح الاستعمارية القديمة مـن حيث التشريعات والموظفين بما له أثر كبير في توطيد الحق والعدل وتحسين شؤون الشعب الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية .

وقد يكون لكل نظرية وجاهتها ، ولعل وجاهة النظرية الثانية تبدو أقوى لأنها تستند الى اصل بديهي وهو استلام الحكم من قبل الأصلح له والأقوى عليه. وهذه الوجاهة هي التي جعلتها الاكثر اتباعا كما هو المتبادر . غير أن التجارب في سورية ومصر والعراق اثبتت انها لم تنته الى نجاح ، وان الافضل للحركة الوطنية وبقاء روح النضال قوية حية اتباع النظرية الأولى الى ان يتوطد العهد الجديد ويسير سيراً طبيعياً، وبقاء الهيئة المناضلة بالمرصاد لكل انحراف يبدو من المستعمر أو ممن هم في دست الحكم . وقد يصح الموقف اذا لم تتمسك الهيئة المناضلة التي تجنح الى سلوك الطريقة الاولى بكراسيها وأن تكون مستعدة للتخلي عنها والعودة الى النضال حالاً أو عـلى الاقـل الوقوف موقف اللاتعاون والعودة اليه حالمـــا يبدو من المستعمر شذوذ وانحراف وبوادر نكث ودس ، ثم اذا اتخـذت الحكم وسيلة الى تقوية الشعب وتشكيلاته وتهيئة وسائل النضال حيث يكون في هـذا كسب مادي ومعنوي وإنذار مستمر للمستعمر ، ومن تحصيل الحاصل ان نقول إن هذه الافضلية تكون محتمة على الهيئات المناضلة أو من ينتسبون اليها في العهود المموهة المزيفة ، وإن تورطهم في الايجابية في مثل هذه العهود يعود بالخسران على حركة النضال والحماس الوطني ، وقد كان شيء من هذا في عهد حكومتي الداماد والشيخ تاج فانتج فتوراً وتخاذلا في صفوف الكتلة الوطنية وبالتالي في الحركة الوطنية على ما ذكرناه في الفصل السابق . واذا كانت الحركة الايجابية في بعض الظروف ضرورية فإنها في مثل تلك العهود ضارة حتما ، وإن عـلى الذين يحملون أعباء القضايا الوطنية والمبـادىء الوطنية والنضال الوطني أن يقدروا الضرورات بقدرها من جهة وأن يتجنبوا التورط من جهة اخرى ، ولا سيما ان ضعف النية القومية والسياسية كثيراً ما يفتح الباب في الهيئات المناضلة لأناس ضعفاء في الاخلاق

متهزين للفرص ذوي مآرب ومطامع ، وكثيراً ما يكون التورط في الايجابية والملاينة بتأثيرهم ، ويكون في ذلك ما فيه من القضاء على روح النضال فيها وفي الشعب الذي وثق بها .

- ٨ -

حركة المعارضة في العهد الوطني

وبمناسبة ذكر معارضي الكتلة نقول ان المعارضة الحزبية البارزة للكتلة كانت تتمثل بالمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ومن انضم اليه . وقد كان بين الدكتور وبين الاستقلاليين الذين كان اكثر رجال الكتلة البارزين منهم تشاد يمتد شيء منه الى عهد فيصل وكثير منه الى ظروف الثورة السورية ، ثم كان يشتد حيناً ويكمن حينا . ولما كان اضراب دمشق الطويل وثورتها عام ١٩٣٥ التي انتهت بدعوة رجال الكتلة الى المفاوضة نقم الدكتور على اهماله ، لأنه كان يرى لنفسه الحق في ان يكون صاحب الشأن في هذه الخطوة لما كان من سجنه في ارواد واشتراكه في الثورة وتسميته منذئذ باسم زعيمها . ونذكر اننا التقينا به في مصر في ظروف المفاوضة وسمعنا منها عتباً ، فلاحظنا له ان المهم هو النجاح وأن الواجب القومي يقضي بتأييد الكتلة اذا نجحت في الحصول على معاهدة صالحة ورأينا منه تطابقا في هذه الملاحظة . ولما عقدت المعاهدة وتقلد رجال الكتلة مقاليد الحكم كان هو في مصر وكان غيره في مصر والأردن وفلسطين والصحراء والعراق مشردين باحكام عسكرية ، فاهتمت الوزارة لاستصدار عفو عن الجميع واشتركت الكتلة حكومة وحزبا في حفلات الاستقبال الرائعة التي اقيمت للعائدين وفي مقدمتهم الدكتور . غير انه لم يلبث أن أخذ يبدي انتقاداته واعتراضاته على المعاهدة والادارة والتفت حوله جماعة من العائدين والمقيمين فبرزت تلك المعارضة .

ومع ان المعاهدة لم تكن تتضمن كل ما كانت تصبو سوريا اليه وان فيها ثغرات جوهرية على ما ذكرناه سابقاً فقد قيل فيما قيل ان منشأ المعارضة يرجع من

جهة الى ما كان من تشاد ومغاضبة بينه وبين الاستقلاليين ومن جهة الى سبب نفساني من تأثير ما اعتبره اهمالا لشخصه سواء في سياق المفاوضات او في سياق نشوء العهد الجديد ، وإن الذين التفوا حوله انساقوا بنفس الاسباب وان المعارضة قد قامت للتهديم والتثريب أكثر منها للحرص على المصلحة القومية العليا . وقد بدا شيء من الصحة في ما قيل في مواقف ومظاهر عديدة بالاضافة إلى أن من الذين اندمجوا في المعارضة من اندمج في العهود الايجابية المزيفة .

ولقد كان لهذه المعارضة شيء من الطنين، وكان لها بعض التأثير في الأوساط الناقمة أولا وفي أوساط الكتلة ووزارتها ثانياً جعل هذه تقف منها موقف الناقم المحنق؛ وكان هذا الموقف مما قوى ذلك الطنين، ولم تلبث المعارضة أن ظهرت باسم الهيأة الشعبية وأن انضم اليها بعض النواب الذين انشقوا من الكتلة الوطنية وصار لها بعض الصحف التي تناصرها وتنطق باسمها، غير أن من الحق أن يقال إن هـذه المعارضة لم تكن ذات قوة ذاتية وشعبية ولم تكن من السعة ما يجعلهـــا حزباً مزاحماً للكتلة يترشح ليحل محلهـــا في الحركة الوطنية أو في حمل أعباء الدولة . وأقوى ظروف بروزها كان حينما تأزمت الأمور بين وزارة الكتلة والافرنسيين وبدرت من هؤلاء بوادر النكث والتراجع وضعف مركز الوزارة واربد الافق في وجهها، فحينئذ ارتفع صوت هذه المعارضة قوياً واشتدت حركاتها وكان ما كان من مظاهرات بدت فيها يدها .

ومما يسجل أن هذه المعارضة لم تلبث أن هدأت بعد استقالة وزارة الكتلة ، ولم يلبث الدكتور شهبندر أن فاجأ الناس برحلة عاجلة إلى مصر في حين أخذت الافكار تغلي والجو ينذر بالانفجار والجيش يحتل المدينة ويقوم بحركة الاعتقال الواسعه والكتلة الوطنية تقف موقف المخذول الذي فقد قوته النضالية فكان الأمر غريباً حقاً . لأن المعارضة كانت ضد المعاهدة وضد الكتلة التي قبلت بهـــا وسارت في سبيل تطبيقها وضد ظروف هذا التطبيق من قبل الافرنسيين والكتلويين معاً، وكان شعارها النضال في سبيل معاهدة أفضل تتناسب مع تضحيات البلاد وتضمن جميع حقوقها وأمانيها وتخلو من الثغرات الموجودة في هذه المعاهدة. والتي كانوا يعددونها في نشراتهم . فكان المنطق يقضي ان تتقدم المعارضة وعلى رأسها زعيمها الذي كان قطب رحاها لسد الفراغ الذي خلا من الكتلة التي انسحبت من

الحكومة وضعفت في الميدان الشعبي النضالي، وتنزل الى الميدان الذي تهيأ للنضال وتستجيب للأفكار الهائجة والنفوس الثائرة وتستغلهـا وتقودها . ولقد كانت مفاجأة الدكتور برحلته شديدة الوقع حتى على أنصاره الذين حاروا بأي وجه يواجهون الناس ، وأي موقف يقفونه من الظرف الذي قام والذي ادعوا أنه نتيجة لمعارضتهم ، حتى لقد سمعت من أحد كبارهم نقداً شديداً ولمست فيه شعور المجروح في كرامته حينما أخذ يقسم لي أشد الأقسام بأنه لن يكلم الدكتور ولن يقف وإياه في موقف واحد وجبهة متحدة، لأن رحلته كانت خذلاناً لمبدأ المعارضة النزيهة وفراراً من ميدان النضال الذي دعت اليه وحملت على الكتلة لضعفها فيه ، وإعلانا بأن كل القصد هو شفاء غل شخصي تم بسقوط الكتلة ووزارتها وكفى الله المؤمنين القتال (١).

ومما يسجل أيضاً والشيء بالشيء يذكر أن هذه المعارضة قد كانت قائمة بزعيمها فلما اغتيل تضاءلت حتى كادت تتبخر في الظروف العادية، ولقد نشط فلولها بعض النشاط وحاولوا أن يبرزوا مرتين بعد اغتياله . غير أن هاتين المرتين كانتا في ظروف غير عادية أو على الاصح في ظروف مؤيدة بالافرنسيين وما استهدفه هؤلاء من مطاردة رجال الكتلة وإقصائهم . وقد كانت المرة الاولى في عهد مجلس المديرين الذي أقامه المندوب الافرنسي بعد سحب المعاهدة وسقوط العهد الوطني وفي ظروف اغتيال الزعيم ومحاكمة المتهمين الذين أدخل بينهم رجال الكتلة البارزون. وأما المرة الثانية ففي عهد الغزوة الانكليزية ــ الديغوليـة وفي ظروف محاولة الافرنسيين توطيد نفوذهم وسلطاتهم من جديد عــلى سورية، فان هؤلاء لم يقبلوا شروط الكتلة للعودة الى الحكم وهي عودة الوضع الشرعي الدستوري المعطل قبيل الحرب فاستحضروا الشيخ تاج الدين الحسني الذي كان العداء مستحكماً بينه وبين الكتلة منذ حركات عام ١٩٣٣ وما بعدها والذي كان منزويا في فرنسه منذ قيام العهد الوطني،وعينوه رئيسا للجمهوريه، وعاضدوه فألف وزارته برآسة حسن الحكيم أحد أركان المعارضة وعضوية بعض بارزيها . وهذا وذاك منسجمان مع ما قلناه من ضعف قوة هذه المعارضة الذاتية والشعبية .

---

١ ــ كل هذا فحوى كلام المعارض الكبير

ولقد جاء الدليل على هذا حاسما حينما رأى المحتلون في العهد الجديد من مصلحتهم التقرب الى أهل البلاد تدليلاً على حسن نواياهم ونبل اهدافهم الحربية فأعلنوا عزمهم على إعادة الحياة الشرعية الدستورية واحترام حرية الامة في الانتخابات النيابية، فلم تستطع هذه المعارضة ان تلعب اي دور أو يكون لها أي شأن ولم ينجح أحد من مرشحيها على كثرتهم، واكتسح الكتلويون الميدان بزعامة شكري القوتلي واستلموا مقاليد الحكم في آب عام ١٩٤٣، مع التنبيه على أن الكتلة الوطنية لم تكن قائمة رسمياً في ظروف هذه الانتخابات حيث كان نشاطها كهيأة متضامنة قد توقف أثناء الحرب كما أن الهيأة الشعبية التي كانت المعارضة قد تجمعت فيها في العهد الوطني أيضاً قد انحلت قبل هذه الانتخابات، واشترك الناس في الانتخابات دون ما تكتل حزبي رسمي، وكان شكري القوتلي الذي تزعم حركة الدور الجديد يبشر بالوحدة الوطنية وعدم الحزبية، ومعظم الذين فازوا في الانتخابات كانوا ممن رشحهم أو وافق على ترشيحهم سواء من رجال الكتلة أو المستقلين.

الفصل الثالث

العهد الانتدابي الثاني

١٩٣٩ – ١٩٤٣

- ١ -

الارهاب بعد سحق المعاهدة

وكما فعل الافرنسيون عقب انهيار عهد فيصل فعلوا تقريباً عقب انهدام العهد الوطني دون أن يكون للعشرين عاما التي مرت بين العهدين اي تأثير في ذهنيتهم . فمن جهة نشروا الارهاب في جو سورية واصلتوا السيف واخذوا يتعقبون من ظنوا فيهم القدرة على الحركة النضالية فاعتقلوا فريقا وشردوا فريقا آخر من رجال الوطنية وشبابهـــا ، ومن جهة اقاموا أداة حكومية منفذة لمشيئتهم باسم مجلس المديرين ووضعوا على رأسها بهيج الخطيب الذي له صلة وثيقة بهم ، ومن جهة اعلنوا وقف الدستور والمجلس النيابي وتشكيلات رآسة الجمهورية والوزاوة وحقوقها ، فعاد بذلك نظام الانتداب وعهده بكل سعتها وبشاعتها . ولم تلبث الحرب العالمية الثانية أن نشبت فكان لهم منهـــا فرصة لتشديد ضغطهم وتضييقهم وإرهابهم واستغلالهم ومكائدهم .

وقد احالوا نبيه العظمة ورفاقـــه الى المحاكمة العسكرية وضموا اليهم اسماء كثيرين من رجال الحركة وشبابهـــا الذين تشردوا بالمطاردة ووجهوا اليهم تهما خيالية ومضحكة (١) تدل على ما يبيحه المستعمر لنفسه في سبيل القمع والارهاب من الوسائل وحكموا عليهم بالسجن مدداً متنوعة منها ما هو طويل جداً .

وفي اثناء ذلك انكشفت مؤامرة كان يدبرها بعض المتحمسين لاغتيال بهيج

---

١ – من جملة التهم صلة نبيه العظمه وأخيه عادل بهتلر وتلقى الاول من هتلر شكاً بثلاثين الف جنيه ذهباًدون ان يخجلوا من سخافة الكلام فضلا عن التهمة وكيف يمكن ان يكون مثل هذا المبلغ شكا

الخطيب رئيس مجلس المديرين انتقاما لقيامه على انقاض العهد الوطني واندماجه مع الافرنسيين فتجددت حركة الاعتقالات، وادخل في نطاقها بعض رجال الكتلة والشباب . وقد كانت القضية في يد القضاء السوري فلما رأوا هذا القضاء غير هاضم ما يراد تهضيمه له من التلفيقات والاحكام سحبوهـــا منه واحالوها على المحكمة العسكرية ومزجوا هذه الحادثة بتهم اخرى بعيدة عنها كل البعد إيغالا في الارهاب والارهاق، وحكموهم بمدد متنوعة ايضاً منها ما هو طويل جداً . ومن عجيب مفارقاتهم انهم ادخلوا نبيه العظمة وبعض رفاقه المحكومين في نطاق هذه القضية وحاكموهم محاكمة ثانية وحكموا عليهم احكاما جديدة ضوعفت بها مدد سجنهم .

- ٢ -

العسف الافرنسي اثناء الحرب

ولقد مر بسوريا سنة وبضعة شهور قاست خلالها من الشدائد والارهاق الوانا ، وكانت الجاسوسية والمحاكمات العسكرية والمطاردات والاعتقالات تزعج الناس في كل حركة من حركاتهم ولحظة من اوقـــاتهم اشد الازعاج ، وتشردهم تحت كل كوكب .

وقـــد استغل الموظفون الافرنسيون الفرصة وخاصة فرصة التموين ومراقبة الاخراجات والادخالات ولوازم الجيش ومعاملات الجمرك ابشع استغلال ، حتى لقد كانت اعمال النهب وشذوذ الاجراآت عن كل معنى منطقي في سياقها بارزة تزيد في وجع الموقف ومرارته ، وبالغة حـداً بعيداً في البشاعة والاستهتار . ولقد كان موظفو التموين (الاعاشة) يضعون ايديهم على ما في السوق من السلع الرائجـة بحجة حاجة الجيش او الانتاج الحربي بثمن بخس يقدرونـه ويدفعونه لاصحابه من العملة الورقية التي ضوعفت اضعافاً مضاعفة ضاعفت من هم الناس وقلقهم لثرواتهم الذهبية والعينية التي تؤخـذ من ايديهم مقابلها ، وقد لا يكون للسلع صلة بحاجات الجيش والصناعات الحربية ، ثم لا يلبثون في الايام التالية ان يعرضوها للبيع بأيدي السماسرة بأسعار عالية !! وكانت دائرة التموين تقطع سعراً معيناً للغلات وتصادرها

من البيادر والمخازن وتدفع ثمنها حسب هذا السعر في حين يكون سعرها في السوق ضعفاً وضعفين، وكثيراً ما كانت الكميات المصادرة اكثر من حاجة الجيش، وكان الناس يلمسون تسرب شيء منها إلى السوق لتباع بالاسعار المرتفعة كما كانوا يلمسون شحنها الى فلسطين لتباع بأسعار عالية فيها. ولقد حدث كثيراً ان يذهب ضباط افرنسيون ومعهم سيارات شحن الى حوران وغيرها فيصادروا كميات من الغلات مقابل وصولات وبيانات يظهر زيفها وتزويرها حينما يراجع أصحاب الغلات دوائر التموين والجيش ! ولم يكن في امكان تاجر مستورد او مصدر الحصول على رخصة توريد او تصدير للسلع المسموح بها الا بعد دفع عمولات مضاعفة منها ما هو رسمي لصندوق ما كان يسمى بالمصالح المشتركة والذي كان ينفق منه على جيوش الموظفين الافرنسيين والجيوش المسلحة ، ومنها ما كان يذهب الى جيوب المشرفين على الدائرة، وكان نصيب كل معترض او شاك الحرمان والعثرات والعراقيل والاعتقال احيانا . وكان هذا يجري بدون ما تستر كأنما هو امر عادي . ولقد كان في لوائح الجمارك مواد بشأن مراقبة المهربات والمحظورات ومكافأة المراقبين استغلها الموظفون الافرنسيون استغلالا واسعاً وبشعاً منتهزين كذلك جو الحرب ورهبتها ، وكان يقع في هذا السبيل كوارث ونكبات عظيمة ، وكانت هذه الدائرة دائرة جاسوسية من جهة ودائرة تعذيب تفتيشي من جهة اخرى . وكان في جملة ما تفعله مصادرة الذهب الذي يحمله الداخلون الى سوريا بحجة انه مال مهرب ووضع غرامات باهظة على ناقله فضلاً عن حرمانه منه ، وبلغ الامر إلى كبس البيوت وتحري حسابات الناس ودفاترهم ومصادرة ما يوجد من الذهب لديهم بحجة انه ادخل مهربا ، ووضع الغرامات الباهظة وسوق المتهمين إلى السجن رهناً على دفع هذه الغرامات . وقد سمعنا قصصاً عديدة عن جميع هذا من اصحابها وخاصة في صدد تحكم موظفي الجمارك وما يسومونه الناس من خسف وتعذيب بقصد تأمين مكافآت باهظة لهم هي ادخل في باب النهب والسلب بالاكراه منها في باب المكافآت القانونية .

ولقد تضاعف شر الجاسوسية اثناء الحرب واصبحت هي الاخرى وسيلة سلب ونهب حيث كان الجواسيس يلاحقون الاشخاص ويهددونهم بالوشايات ويبتزون منهم المال ويوقعون بمن لا يستجيب اليهم بعلم وتحريض من رؤسائهم الافرنسيين .

وتجاوز ضغط الافرنسيين نطاق السوريين إلى الفلسطينيين الذين كانوا في دمشق بمناسبة ثورة فلسطين سني ١٩٣٧ – ١٩٣٩ فأخذوا يضيقون عليهم الخناق ويعتقلونهم

بالعشرات مع انهم كانوا يغمضون العين عنهم جواباً انتقامياً لما كان من أغماض الانكليز عن حركات مجاهدي سوريا ومنظمي امورهم ، وكان تأزم الحالة السياسية الأوروبية مما الزم فرنسا الاستعمارية الأستجابة الى تأثير الانكليز وضغطهم في هذا الصدد . وشجع على ذلك انهدام العهد الوطني وما كان من جو الأرهاب والشدة الذي بثه الافرنسيون في سوريا ، حيث اوحى لهم هذا ان يكون الأرهاب شاملا لكل مناضل ولكل حركة نضالية ولو لم تكن موجهة اليهم . وقد كان مؤلف الكتاب هدفاً رئيسياً لهذا الضغط الذي بدأ مذ تأزمت الامور في اوروبا فاعتقلوه مع بعض الفلسطينيين ، وحاكموهم بعد إعلان الحرب في المحكمة العسكرية وحكموهم بالسجن. وقد شهدنا ونحن في السجن وقائع وحوادث يقشعر منها البدن وتشمئز منهـــا النفس من ضرب وتعذيب في سياق التحقيق والتمهيد للمحاكمات العسكرية مجردة من كل رحمة ورأفة. ولم يسلم أي شخص وقع في يد الدرك الافرنسي من ضرب او إهانة الا نادراً جداً وكنت انا من هذا النادر . وقد كانوا يضربون المتهم حتى يدموا جـــلده واحياناً حتى يعطلوا بعض اعضائه . وكثيراً ما كان المعذبون يذهبون عن وعيهم وكان الخوف من تكرر العذاب يسوقهم الى الاعتراف بكل ما يمليه المحققون الافرنسيون ومن غريب المفارقات ان احد المتهمين حينما وقف امـــام المستنطق العسكري قال له أن اعترافاتي كانت نتيجة الضرب فصرخ في وجهه وصفعه قائلا ان الافرنسيين لا يضربون ! وكانت المحاكم العسكرية تحكم بتقارير الجواسيس ومذكرات الدرك الافرنسي وترفض أي اعتراض وتأبى جلب اصحاب التقارير والمذكرات للمناقشة والشهادة العلنية .

- ٣ -

الحالة بعد انهيار فرنسا

ولما انهارت فرنسا في صيف عام ١٩٤٠ حاول القائد الافرنسي العام بالاتفاق مع المندوب السامي بيو ان يقف موقف المناوىء لفيشي استجابةً لدعوة الجنرال ديغول الذي اخذ يدعو الى المقاومة باسم فرنسا الحرة من لندن بتشجيع الانكليز وتعضيدهم ، واحتفاظاً بالسيطرة على بلاد الشام ، واعلنت بريطانيـــا تأييدها لها واستعدادها لمساعدتها ومدها بالقوى المناضلة فهلعت القلوب من احتمال استمرار

الكرب بعد ان تنفس الناس الصعداء حيث رأوا في ذلك الانهيار فاتحة للفرج ، ثم عادا عن موقفيهما لما بدأ من ضعف حركة المناوأة الديغولية في بادىء الامر ولعدم مساس الهدنة بين الالمان وفرنسا فيشي بموقف فرنسا من سوريا ولبنان .

وقد بدأ ان بيو تلقى من فيشي تعليمات في صدد التنفيس والتفريج في سوريا ولبنان تمشياً مع حالة الوهن والانهيار التي ألمت بفرنسا ، فكانت اتصالات بينه وبين بعض رجال سوريا أسفرت عن اتفاق على اجتماع ينعقد بينه وبين شكري القوتلي الذي خرج سليماً نوعاً ما من التحطيم المعنوي الذي أصاب زملاءه من رجال العهد الوطني على ما اشرنا اليه قبل في شتوره الواقعة في منتصف طريق دمشق — بيروت للبحث في الموقف . ولكن الجو تعكر فجأة بحادثة اغتيال الدكتور شهبندر التي وقعت في الأسبوع الاول من شهر آب عام ١٩٤٠ وفي نفس اليوم المعين لذلك الاجتماع ، فاستغلها الموظفون الافرنسيون في دمشق اشد الإستغلال وتآمروا مع اداتهم الحكومية او بالاصح مع رئيسها ضد البارزين من رجال الكتلة، فوجهت الى جميل مردم وشكري القوتلي وسعدالله الجابري ولطفي الحفار تهمة التآمر والاغتيال، وكان من النتائج المباشرة لذلك الغاء الاجتماع المذكور.

ومما لا شك فيه ان الموظفين الافرنسيين في دمشق وشركاءهم من كبار موظفي المندوبية في بيروت كانوا على علم بما جرى من اتصالات وبالاجتماع المتفق عليه مما يحمل مسارعتهم الى تهمة رجال الكتلة بالحادثة او على الاقل تقوية خاطرها الذي يمكن ان يكون قد خطر لأولياء الشهبندر بسبب التشاد والعداء بين الفريقين مقصودة لشلهم عن الحركة والحيلولة دون تبدل العهد القائم او تأخيره مدة ما حتى لا ينتهي عهد النفوذ والمجد والمكاسب الذي كانوا يتمتعون به والذي كانت فرصة الحرب اعظم وسيلة لاتساع تمتعهم به، والذي كان من دوافع مؤامراتهم على العهد الوطني ودسهم عليه وإحباطه نهائياً.

ولقد شغلوا دمشق برمتها بهذه الحادثة وتحقيقاتها ومحاكماتها حتى جاء وقت ينذر بوقوع فتنة هوجاء بين الناس الذين انقسموا الى معسكرين، وكانت اصابعهم في التحريض والمؤامرة على جماعة الكتلة وانصارها ظاهرة حتى بلغ عدد الذين اعتقلوهم منهم نحو مئة شخص . وانطلقت السنة الصحف المأجورة او المعارضة للكتلة تشتم رجال الكتلة وتنعتهم بالقتلة والمتآمرين . ولم تنفرج الازمة نوعاً ما الا باعلان المندوب الجديد الجنرال دانز الحياد والنزاهة التامة في



فخامة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية السابق

القضية . وقد كانت فيشي سحبت بيو نتيجة للشكايات والمساعي المبذولة وأرسلت هذا ليحل محله مزوداً بتعليمات المسايرة والتنفيس .

وقد جرت المحاكمة كذلك فعلاً فظهرت في قاعة المحكمة آثار التزوير والتحريك والتآمر والتحريض، وبرىء رجال الكتلة من التهمة وانتهى الأمر عند حده الطبيعي حيث صدر الحكم بالاعدام ضد الشبان الثلاثة الذين اشتركوا في الجريمة .

وقد قيل في سياق هذه الحادثة إن مؤامرة الشبان كانت تتناول غير الشهبندر جميل مردم وبهيجل الخطيب ،باعتبارأن الاثنين الأولين ضربا قضية الوطن بتنازعهما وشقاقهما ، وأن الثالث تآمر مع السلطات الافرنسية على ما كان منها من تصرفات باغية وغدر قبيل الحرب وفي أثنائها .

ولقد كان فيما كان من ظروف الحادثة أن الموظفين الافرنسيين خشوا ان يفلت رجال الكتلة من التهمة بأساليب القضاء المدني فأوعزوا لمجلس المديرين فقرر سحب قضيتها من المحاكم المدنية وإحالتها على المجلس العدلي الشبيه بالمجلس العسكري او العرفي وبرئاسة قاض افرنسي وبادارة محقق عدلي عسكري ، وقد أصدر هذا قراراً بمحاكمة جميل وسعد الله ولطفي ومنع محاكمة شكري . فلم يسع الثلاثة إلا مغادرة سوريا الى العراق ، وكان هذا هو المقصود على ما اعتقده المراقبون .

ولقد تولى شكري امر الدفاع عن زملائه وبرز كزعيم للكتلة والحركة الوطنية ورجل ساعتها وأخذ رجالها وانصارها يلتفون حوله فداخل الافرنسيين الندم على منع محاكمته وعدم تشريده هو الآخر فلم يتورعوا عن إحاطته بجو مزعج من المراقبة والترصد من جهة والاغضاء عن ما بدا من الجرأة على بيته ، والتفكير في وسيلة تقصيه عن الميدان من جهة اخرى . ولقد كادوا يجدون الوسيلة ، فقد كان بعض ضباط وموظفي الجيش الافرنسي اتهموا بسرقة وبيع السلاح من مخازن الجيش سنة ١٩٣٦ وكان ذكر بعض اسماء الوطنيين كمشترين للسلاح للثورة الفلسطينية ومن جملتهم شكري القوتلي ، ثم أقفل الحديث لأنه لم يكن مستنداً الى دلائل واهنة من جهة ، وكان العهد الوطني الذي كان شكري القوتلي فيه وزيراً قد قام من جهة اخرى . فاستدعت دائرة الدرك الافرنسي بعض المحكومين الذين كانوا من موظفي الجيش الافرنسي بعد صدور قرار منع محاكمة شكري وبروزه

وفاتحتهم في الأمر وحققت معهم في امر صلة شكري بقضية السلاح ولوّحت لهم ببعض الآمال . وقد فهمنا هذا من احدهم شفاها حينما كنا في السجن واخبرونا به شكري ، وهذا بدوره اخبر به المندوب فأصدر امره بعدم نبش الماضي واختلاق الأحداث والوسائل ضده .

ولقد اعترف القاتل احمد عصاصة ورفيقاه في قاعة المحكمة بالجرم وقرروا ان الباعث عليها هو العاطفة الدينية والوطنية معاً ، وخاصة الأولى لأنهم علموا ان للشهبندر آراء منحرفة في صدد الدين وتقاليده . ونفوا اي علاقة مباشرة وغير مباشرة لجميل ولطفي وسعد الله وغيرهم من رجالهم بالحادث ، وكانوا في اثناء التحقيق وقعوا على اعترافات منافية لهذا الاعتراف والنفي فلما سئلوا عن ذلك قالوا إن هذه الاعترافات أخذت منهم بالضغط والاكراه حيناً وبالاغراء حيناً وإن بهيج الخطيب وموظفي الأمن الافرنسيين هم الذين استعملوا معهم هذه الأساليب . وكان سبب الاعتراف أن المحكمة استدعت الشيخ الكتاني المغربي الذي كان القاتل من مريديه ، وبعد أن ادلى بمعلوماته عن اخلاق مريده وروحه المتدينة طلب اليه ان ينصحه ورفاقه بالاعتراف بالحقيقة كاملة ، ففعل بأسلوب بليغ واعلن فيصل الشهبندر استعداده للعفو اذا اعترفوا بالحقيقة والباعث وساد المحكمة جو رهيب ثم صرخ احمد بصوت تخنقه عبرات الخشوع والاستجابة للنصيحة فاعترف كما قلنا فكان مشهد رائع ورهيب أثر في جو المحكمة وقضاتها وحاضريها تأثيراً بليغاً وكان فيه القول الفصل ، ولا سيما قد كانت اصابع التزوير والتصنيع والتآمر فضحت لدى استماع الشهادات .

- ٤ -

تجدد نشاط الحركة الوطنية وأثره

وحينما خف التوتر في حادثة الشهبندر بعد إعلان المندوب السامي الحياد والنزاهة في قضيتها أخذ شكري القوتلي يقوم بحملة في سبيل اطلاق المحكومين السياسيين والكف عن مطاردة الناس وتشريدهم كبدء للحركة الوطنية من جديد ، فكان

من نتيجة هذه الحملة التي أيّده فيها رجال الحركة الوطنية في دمشق والمدن الاخرى أن أطلق سراح المحكومين وخفف من شدة المطاردة والتجسس، وكنت من جملة من أطلق سراحهم في أول تشرين الثاني من عام ١٩٤٠

ولقد كان إطلاق سراح المحكومين والكف عن المطاردين وسيلة لنشاط الهمم والعواطف الوطنية فلمسنا روح دمشق الجياشة منذ غداة إطلاقنا وانطلقت الألسنة في صدد المطالب القومية، وأخذت تقوم حملة ضد الأداة الحكومية القائمة وضد تصرفات إدارة التموين التي ذكرنا عنها بعض الشيء والتي حاول الأفرنسيون الاستمرار فيها بعد انهيار دولتهم أيضاً دون ارعواء واعتبار. ولقد تشجع أصحاب السلع في دمشق وتضامنوا على الوقوف في وجوههم حتى إنهم تجمهروا أكثر من مرة بعصيّهم ليردوا حملات المصادرة التي اعتاد هؤلاء الموظفون أن يقوموا بها في جو الحرب وإرهابها . وأخذ الموقف يعود الى التأزم ومرجل الحماس يعود الى الغليان، وأعلن إضراب عام في دمشق امتد امداً غير قصير، وأذاع شكري القوتلي بياناً قوياً عن موقف البلاد وقضيتها وحقوقها . وكان فيما كان الكلام يجري فيه واجب فرنسا بالوقوف موقفاً نبيلا وهي في محنة مريرة وأمام مصير مجهول استدراكا لما كان منها من مواقف غادرة باغية، واعتباراً بيد الله الجبار المنتقم فيها .

ولقد كان الموقف في الحق عجيباً متناقضاً . ففرنسا منهارة خاضعة لجبابرة الالمان تذوق كأس الاحتلال الكريه ويقف رجالها وقفة المهين على عتبة قواد إحتلالها بينما هي في سورية تمثل دور المحتل الغشوم والمتسلط الجبار . ومما أذكره انه قام في السجن مرة بعض حركات فردية وجاء ضباط الدرك الافرنسيون يظهرون شراستهم وغطرستهم بسبيل تأديب المتمردين فصرخ بعض هؤلاء فيهم معبراً بالموقف الذى هم فيه قائلا لهم دون مبالاة بما يناله : اذا كانت لكم كرامة وتودون المحافظة عليها وإظهار زهوكم وعظمتكم فليس السوريون محل ذلك الان وإنما هم الألمان في وطنكم ، وإن موقفكم منا هذا الموقف ونحن أمة صغيرة عزلاء بعد

هو انكم أمام خصم تعدون بالنسبة اليه شيئاً مذكوراً هو عار الأبد عليكم وعلى فرنسا(١) .

ولقد كان رجال فرنسا في فيشي يدركون على ما بدا ما في الموقف من تناقض وما هم عليه من عجز، ولكنهم كانوا يخشون أن يكون في أي خطوة صادقة يخطونها تفريطاً بما في أيديهم وإضعافاً لهيبتهم المتزعزعة ونفضاً لليد من المطامع الاستعمارية والمنافع الاستغلالية لم يكونوا ليهضموه بالرغم مما حل فيهم . وإضاعة لورقة قد تفيدهم في المساومة في ظروف الدنيا المتجهمة . ومع ذلك فان الموقف اضطرهم إلى الاستجابة للاصوات المتعالية والاحتجاجات المتوالية فعمد المندوب إلى حركة تطهير وتحقيق في حق الموظفين الافرنسيين أقيل في سياقها بعض كبار موظفي المندوبية واعتقل بعضهم واحيل على المعاش بعضهم، وذاع في ما ذاع خبر وجود ثروات طائلة من سلع وتحف وسجاد وسبائك ذهبية عند بعض هؤلاء الموظفين حصلوا عليها بالطرق التي ذكرناها والتستر على من كان يقوم بالسلب والنهب من الموظفين المختصين ومشاركتهم فيها ! وقد اعتذر عن القيام بأي عمل حاسم وأساسي في صدد القضية الوطنية، وإستعداده لمعالجة الموقف معالجة موقتة، وكان من نتيجة ذلك أن نحيت الأداة الحكوميه البغيضة التي يرأسها بهيج الخطيب، وأن أعيد تشكيل مجلس الوزارة برآسة خالد العظم . ومع أن الخطوة كانت نصفية فانها قوبلت بشيء

---

١ – وفي هذا المعنى قال الشاعر البليغ بدوي الجبل في قصيدة له جدير بالتسجيل :

يا سامر الحي هل تغنيك شكوانا ... رق الحديد وما رقوا لبلوانا
قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهم ... من قسم الناس أحراراً وعبدانا
إني لأشمت بالجبار يصرعه ... طاغ ويرهقه ظلماً وطغياناً
لعله تبعث الأحزان رحمته ... فيصبح الوحش في برديه انساناً
سمعت باريس تشكو زهو فاتحها ... هلا تذكرت يا باريس شكوانا
والخيل في المسجد المحزون جائلة ... على المصلين أشياخاً وفتياناً
والآمنين أفاقوا والقصور لظى ... تهوي بها النار بنياناً فبنيانا
تلك الفضائح قد سميتها ظفراً ... هلا تكافأ يوم الروع سيفانا
إذا انفجرت من العدوان باكية ... فطالما سمتنا بغياً وعدوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة ... من الأذى فتملى صرفها الانا
ما للطواغيت في باريس، قد مسخوا ... على الأرائك خداماً وأعواناً
الله أكبر هذا الكون أجمعه ... لله ! لا لك تدبيراً وسلطاناً
ضغينة تتنزى في جوانحنا ... ما كان أغناكم عنها وأغنانا

من الارتياح لأنها أزالت كابوس تلك الأداة وخففت من سوء تصرفات الموظفين الافرنسيـــين؛ وحل الناس إضرابهم وصاروا يتطلعون بنفس مطمئنة مرتقبة إلى قرب يوم الفرج الأكبر، هذا مع التنبيه إلى أن شكري القوتلي أذاع بياناً آخر أشار فيه إلى أن سوريا لا تكتفي بالعلاج الموقت وإنما تطالب بحقوقها الشرعيـة، ودعامع ذلك الناس الى حل الاضراب واعداً بالاستمرار مع إخوانه في العمل على الحصول على تلك الحقوق .

ومن طريف ما كان ويجب تسجيله من تصرفات الافرنسيين العجيبة وخاصة في أمر التموين ان المندوب السامي بناء عـــلى ما تعالى من اصوات الشكوى والتذمر من إدارة التموين الافرنسية أن تسلم إلى الوزارة، فلما أرادت هذه ان تتسلم مخازن الحبوب التي كان يصنع منهـــا الخبز ويباع للناس بالاسعار المحددة وجدتها فارغة ورأت أنها لا تستطيع والحالة كذلك أن تحمل عبء تدبير الخبز ولاسيما ليس في يدها قوة مسلحه ولا هيبة موطدة، فرفضت الاستلام وطلبت بقاء إدارة الميرة بيد الافرنسيين تفادياً من كارثة مجاعة تحل في الناس، وراح الناس يتساءلون عبثاً عن مصير اكداس الحبوب التي صادرتها هذه الأدارة من غلات البلاد باسم الاعاشة والتموين !

- ٥ -

الغزوة الانكليزية الديغولية وسيرها وأثرها

على أن الجو السياسي ما لبث أن تلبد بعد هـذه الخطوة التنفيسية بما كان من الاحتلال الانكليزي - الديغولي . فمنذ عقــــد الهدنة بين فرنسا والمانيا أخذت الدعايات الانكليزية تنبث في سوريا ولبـنان منذرة باحتلال الانكليز ، وأخذت هذه الدعاية تبدو خاصة في صفوف الافرنسيين وبنوع خاص ضباطهم عـن طريق الدعـــوة الديغولية ، وأخـــذ الناس يلمسون في صفوف الافرنسيين اختلافات ومنازعات متنوعة الصور والأساليب لانقسامهم الى فيشيين « نسبة إلى فيشي التي اتخذها المارشال بتان رئيس الدولة الجديد الذي تهاون مع الالمـــان مركزاً » وديغوليين . هذا من جهة ومن جهة اخرى كانت الاصوات الانتقادية ترتفع من

الأوساط الانكليزيةعازيةللسلطات الافرنسيةالفيشية فيسوريا ولبنانتسهيلات لقوى المحور وطياراته ، ومبدية مخاوفها من استيلاء المحور على البلدين ،ومطالبة بالوقوف موقف الجد ،ومعددة ما يكون من استيلائه من أخطار وأضرار . ومنذئذوالناس يتلقون هذه الدعايات والاذاعات كمقدمات لاحتلال انكليزي في أول فرصة ممكنة حتى لقد كانت الشوائع تشيع عن موعد معين ؛ وكانت الطيارات الانكليزية تحلق من آن لآخر في سماء سوريا ولبنان مستكشفة مستطلعة مرهصة ، وأخذ بعض الضباط الافرنسيين يتسللون الى شرق الأردن وفلسطين للانضمام الى القوى الانكليزية والديغولية . وقد جاء الجنرال كاترو وكان من رجال المندوبية الافرنسية ورئيس ضباط الاستخبارات في سورية ولبنان الذين كان لهم أفظع الادوار في حركة الفساد والدس والكيد كنائب للجنرال ديغول الى القدس واتخذها مركزاً لبث الدعاية وتهيئة الخطوة العملية في الفرصة المناسبة ، فقويت بمجيئه الدعاية وأخذ التسلل يزداد من سوريا ولبنان حتى صار شبه علني ، وحتى صار يفر بعض الضباط مع فصائل كاملة من الجيش الافرنسي أو المتطوعين كما فعل الكولونيل كوله مع فصيل من متطوعي الشركس ، وحتى اضطرت السلطات الافرنسية الى حركة تطهير ومطاردة فر بمناسبتها عدد غير قليل من الضباط ، وفر في من فر الكولونيل مدور قائد الدرك اللبناني حيث كان يبذل جهوده الكبيرة في تسهيل حركات الفرار . وقد اشتركت شرق الاودن في هذه الحركة، وأخذت تجري الاتصالات بين أولي الشأن فيها وبعض رجالات وصحافيين في دمشق أملاً بأن يكون من ورائها تحقيق وحدة سوريا وتوسد عبد الله بن الحسين عرشها ؛ وظهرت آثار ذلك في بعض الصحف السورية التي كانت تنقل الأخبار وتنشر الارهاصات عن الحركات والخطوات المتوقعة بأساليب مختلفة .

فلما نشبت الحرب العراقية الانكليزية في مايس عام ١٩٤١ اشتدت الاصوات القائلة إن المحور يتخذ سوريا قاعدة لمساعدة حركة العراق وإن في سوريا ولبنان آلافاً من الألمان ، وقصفت طيارات الانكليز مطاوات سوريا الشمالية فاعتقدنا ان القفزة الانكليزية قد قربت وانها منوطة بمصير الحركة العراقية ، وان كل ما يجري إنما هو بسبيل الدعاية والتهويل والتبرير ، ولا سيا ان دعوى وجود آلاف

الالمان ومئات الضباط والطيارات الالمانية غير صحيحة ، وكل ما كان من امر وجود بعض مندوبين طليان والمان بإسم لجنة الهدنة ومراقبتها ؛ وكانت مداخلتهم مع الجنرال دنز بتحفظ كبير كما كان هو نفسه يتحاشى هذا التدخل لئلا يكون حجة عليه بيد الانكليز ، وكان يحتج على ما يصدر من هؤلاء من دعاية ودعايات وتهم بصدد ذلك وينفيه المرة بعد المرة .

ولم يمض على انتهاء حركة العراق إلا اسبوع واحد حتى زحفت القوى الانكليزية والديغولية مع بعض طلائع اومفارز اردنية من الجنوب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٤١ ، ثم انشطرت شطرين اتجه احدهما نحو دمشق وثانيهما نحو جبل عامل والساحل ، واخذت تقع الاشتباكات بينها وبين القوى الافرنسية الفيشية والفصائل السورية واللبنانية التي كانت تحت القيادة الافرنسية وهي المسماة بالجيوش المحلية .

ولقد لقيت بعض المقاومة في الجبهتين ولم يتسن لهـا السير بسرعة كما كان مقدراً . وكان الجنرال دانز مشتداً في هـذه المقاومة كما كان مندوبو المحور لا يفتأون يشدون همته ويثيرون حماسه فيها ؛ غير ان الدعايات اخذت تنبث في القوى المدافعة فتؤتي اكلها في التثبيط والتحول من جبهة الى جبهة . فقد كانت تقف في الواقـع في وجه قوى إفرنسية يقودها ضباط إفرنسيون وقوى إنكليزية حليفة وصديقة ؛ ولم يكن من شأن فوز هذه القوى بما تريد ان يجعل القوى المدافعة تخسر شيئاً مادياً او معنوياً . وهكذا اخذت القوى الغازية تتقدم وتستولي على البلاد تدريجياً ثم جاءت قوى ميكانيكية جديدة من جهات الصحراء وأخذت تتوغل في الأنحاء الشمالية فتم نطاق التطويق . وقـد دامت الحرب نحو ستة اسابيـع اضطر الفيشيون بعدها الى طلب الهدنة فأجيبوا الى ذلك عـلى اساس التخلي عن سوريا ولبنان للحملة الجديدة ، واستتب الأمر كذلك في الاسبوع الرابع مـن تموز عام ١٩٤١ بشروط فيها كثير من التساهل . وقد احتوت فيما احتوته حرية الافرنسيين في مغادرة البلاد مع مالهم من متاع وبأيديهم من سلاح ، وبقاء من يود البقاء منهم عسكريين كانوا او مدنيين على مراتبهم ومرتباتهم مما استجاب له فريق كبير مـن النوعين منهم . وقـد ابي الفيشيون ان يعترفوا بالديغوليين كطرف ثان اثناء المفاوضات فأجيبوا الى طلبهم ، وجرت المفاوضة والتوقيـع بينهم وبين القائد

الانكليزي . على انه كان بادياً ان الأمر سيكون في يد الديغوليين وان الأنكليز إنما هم مساعدون ، بناء على الاصل المعترف به من ان سوريا ولبنان ضمن الانتداب والنفوذ الافرنسي ، ومـــن ان الديغوليين إنما يمثلون فرنسا ومركزها في نظر الانكليز ومصلحتهم الحربية . وقد غادر دانز وغيره من رجال فرنسا العسكريين والمدنيين الذين لم يطلب لهم البقاء ميممين شطر فرنسا ، واراد دانز ان يسجل اسمه في تاريخ نهب سوريا ولبنان في من نهبها مـن بني قومه فحمل معـه ذهب البنك السوري اللبناني الذي كان بعض الغطاء للنقد الورقي والذي كان يقدر بمئات ألوف الجنيهات . .

ومن نقائض الافرنسيين التي كانت منهم أثناء هذه الحركة أن الفيشيين حاولوا الانتفاع من فلول المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا في سوريا او أتوا مـن العراق بعد الحركة الحربية العراقية في العمل على الحدود الفلسطينية لازعاج الانكليز ، فلم ير هؤلاء في العرض ضمانة تبعث فيهم الطمأنينة والأمل فأبدوا استعدادهم للانضمام الى حملة فوزي القاروقجي التي خرجت من بغـداد الى الرطبة ثم اتجهت الى سوريا حينما انتهت الحركة العراقية ونشبت الحركة السورية ، حيث كان الافرنسيون أظهروا استعدادهم لمدها وتقويتها للانتفاع منها في حركة المقاومة فرفضوا كما انهم لم يسيروا سيراً جاداً في الوفاء بوعدهم بمد حملة القاروقجي متحسبين عواقب ذلك مع انهم ليسوا في وضع يبرر لهم هذا التحسب لأنهم امام عدو جديـــد مشترك ليس من السهل تغلبهم عليه ولم يكن اشتداد قوة الحملة ليضيرهم شيئا . وكان الذين يودون ذلك من رجال العرب الوطنيين يأملون ان يكون من الحملة اذا مدت وقويت قوة عربية مستقلة قد يكون فيها بعض الأثر في الكفاح القومي العربي ، ولا سيما إن احتمال عدم امتداد الحرب طويلاً وانتهائها باندحار بريطانيا من الشرق العربي كان إذ ذاك قوياً وسائدا . ولكن الذي يتبـــادر أن سوء النية والروح الاستعمارية المتأصلة في الافرنسيين منعتهم من هضم قيام قوة عربية واحتمال انتفاع الحركة العربية بها مهما كان أمرهم ومصيرهم ...

ومما يسجل في صدد هذه الحركة أن الفصائل السورية واللبنانية اضطرت الى الحرب الى جانب القوى الفيشية وكانت توضع في الصفوف الأمامية لما كان يتحسب

من فرار افراد هذه القوى ومخامرتهم ، وقد قتل وجرح من تلك الفصائل عـــدد كبير ، ومع ذلك لم ير الفيشيون أن يذكروا ذلك بكلمة ما جحـــوداً ولؤما ، وظلوا يشيدون طيلة اسابيع الحركة بدماء فرنسا وضحاياها في سبيل الدفاع عن سوريا ولبنان ضد الغزاة ! !

- ٦ -

تجرد الجبوية الافرنسية

ولقد عكر نجاح الحملة الجديدة صفو سوريا وخيب أملها في خفة الكابوس الذي كان يجثم على صدور اهلها بانهيار فرنسا وغدوها تحت سنابك الالمان واضطرارها الى المسايرة ؛ فقد خشوا ان تكون الحملة دماً جديداً يحقن الافرنسيين فتعود التصرفات الكريهة التي قاسوا منها ما قاسوا اثناء الحرب . ولم يكن يخطر لبال أحد أن فرنسا الديغولية غير فرنسا التي سيموا من خسفها أشد ما يمكن أن تسام به أمة ضعيفة من أمة قوية سوء إدارة وسوء نية وسوء إستغلال ؛ ولا سيما إنه لم يتغير إلا الاسم ، وإن كثيراً من قواد الحملة وضباطها من كانوا في سوريا كما أن جل الموظفين والضباط الذين قاست منهم سوريا ما قاست وعملوا في سبيل مناوأة الحركة العربية والروح الاستقلالية وتوطيد الاستعمار الافرنسي والسيطرة الافرنسية ما عملوا ظلوا حيث هم ، وكان كاترو رئيس ضباط الاستخبارات والذي كان يدير بواسطة ضباطه حركات الفتن والفساد والدس والنهب هو المندوب السامي الافرنسي في العهد الجديد !

ولقـد سارع شرشل فألقى خطاباً عقب الهدنة أعلن فيه أن إنكلترا ستظل تعترف بمصالح فرنسا وحقوقها في لبنان وسوريا وأن كان أشار إلى نية منحها استقلالها وحقها فيه كما ان الجنرال ديغول سارع إلى زيارة سوريا ولبنان وصرح فيما صرح به أن فرنسا باقية في الشرق لمتابعة عملها العظيم في مساعدته وإرشاد اهله، وان تبدل الأشخاص والأسماء لا يعني تبدل فرنسا وإن كان اشار كذلك إلى ما اشار اليه شرشل ، فجاء كل هذا مصدقاً لما ثار في نفوس السوريين من همّ وقلق...
ومن المضحكات المبكيات ان بتان رئيس الحكومة الفيشية التي كان رجالها يرغون

وجوههم على تراب اقدام الالمان لم يبخل هو الآخر بأن يؤكد تعلق فرنسا ببلاد الشام حيث اذاع بياناً يعتذر به عن اضطرار قواته للهدنة لعدم التكافؤ بين القوى، ويوجه شكره لأهلها على تعلقهم بفرنسا ، ويطمئنهم بأن هذه النتيجة ليست إلاّ حالة عارضة ، وان فرنسا التي احبوها لن تتركهم وستظل تقوم بواجبها من الارشاد والحماية نحوهم ؛ ثم امر دانز باحتفاظه بلقبه كمندوب سام وقائد عام برهاناً على اهتمامه لهذا الواجب العظيم !! « كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلاّ كذباً . »

ولقد كان فيما كان أن الجنرال كاترو أذاع بالراديو نداء ألقي بالطيارات كمنشور على سوريا ولبنان بين يدي زحف الحملة ذكر فيه أن الحملة إنما تستهدف تحرير الشام وحفظها من خطر الالمان ومنحها استقلالها على أساس التعاون النزيه ودعاهما إلى التعاون معها واستقبال العهد الجديد والفرصة الذهبية السانحة ، وانه حينما قدم الى سوريا عقب الهدنة أرسل إلى خالد العظم رئيس الحكومة كتاباً أكد له هذا الوعد وطمأنه بتحقيقه في وقت قريب؛ وأن الوزير الانكليزي ليتلتون وهو المفوض اليه أمر المسائل المدنية والسياسية في جبهة الشرق العربي جاء إلى بيروت اثناء وجود ديغول واجتمع به ثم نشر كتابان في آن واحد من الاول للثاني يثبت فيه ما تم الاتفاق عليه في المحادثات الشفوية من أن انكلترا لاتتعقب اي مطمع أو سياسة خاصة في سوريا ولبنان وان إنكلترا وفرنسا متفقتان على منح هذه البلاد استقلالها وحكمها الوطني على ان يكون لفرنسا حق الرجحان فيها ، والثاني من ديغول الى ليتلتون يسجل فيه اعتراف انكلترا بان لا مطمع ولا سياسة خاصة لها في سوريا ولبنان واعترافها كذلك بمركز فرنسة وحق رجحانها فيها ، ويؤكد ان فرنسا متفقة معها على منح هذه البلاد إستقلالها وحكمها الوطني على اساس التعاهد الذي يضمن لفرنسا ذلك المركز والحق .

المفاوضات في سبيل اقامة عهد جديد وروح فرنسا الاستعمارية فيها

وقد جرت بناء على ذلك كله وعقب الهدنة بمدة غير طويلة سلسلة غير طويلة من الاتصالات والمشاورات بين ديغول وكاترو من جهة ورجال سوريا من جهة

أخرى تحتوي في مطاويها توخي الافرنسيين تثبيت مركزهم واعتبارهم أصحاب الشأن ومصدر السلطات في سوريا وتهالكهم على الوصول إلى وضع مستقر على أيديهم على اساس معاهدة تجعل لمركزهم ورجحانهم وما ينطوي فيها من مطامع إستعمارية صبغة شرعية ودولية ، كأنما كانوا يخشون ان تضيع الفرصة او كأنهم كانوا يريدون ان يستغلوا فرصة اعتراف الانكليز بمركزهم قبل مرور الزمن عليه ، مما يدل على انهم لم يكونوا في قرارة انفسهم مطمئنين الى الموقف بصورة عامة والى الانكليز بصورة خاصة .

الانكليز في هذا العهد

ولقد كان وجود جماعة فرنسا الحرة وحياتها وقوادها وقواتها وحركتها قائمة بمال الانكليز ووسائلهم ، وكانت القوى الانكليزية في سوريا تفوق قواها كثيراً، وكان وجود الانكليز هو المحسوس والأقوى ، حتى لقد الغي محافظ الجزيرة وظيفة المندوب الافرنسي في محافظته فلم ير هذا بداً من الرحيل ، وامر موظفي الجمرك على الحدود بتوريد جباياتهم الى صندوق المحافظة فابوا فلم يلبث ان ذهب ضابط إنكليزي على الحدود واركب الموظفين الافرنسيين سيارة واجلاهم الى بيروت كما كانت ابواق الدعاية الانكليزية تهتف بالسوريين انهم احرار في التعاقد مع الافرنسيين وعدمه ، وان لهم الحق في إبداء رغباتهم بمضابط يقدمونها للسلطات الانكليزية ، وكانت دعاية ومساعي عبد الله بن الحسين في صدد اغتنام الفرصة وتوحيد بلاد الشام تنشط نشاطاً غير يسير مما يمكن ان يوهم انه من تشجيع الانكليز ، وكان فريق من رجال سوريا الوطنيين يوثق صلاته بالانكليز الخ الخ ، فكل هذا اثار على ما يبدو قلق الجنرالين الافرنسيين وريبتهما وجعلهما يهتمان ذلك الاهتمام الذي اشرنا اليه .

- ٧ -

نشاط عاهل الاردن وتعليق على مغزاه

ونتساءل في هذه المناسبة عما اذا كان رجال سوريا غفلوا او تعمدوا اغفال

مدى نشاط ومساعي عاهل الاردن في سبيل توحيد سوريا ، وعما اذا كانت هناك فرصة اضيعت بعدم تجاوبهم بقوة وجد مع هـــذه المساعي وذلك النشاط ، وعدم اغتنامها لتحقيق امل تنشده الشام كما ينشده عبد الله بن الحسين ، وعما إذا كانت السياسة الانكليزية الرسمية مستعدة لتعضيد هذا التجاوب والاستفادة من هـــذه الفرصة .

والحق ان صاحب عمـــان نشط نشاطاً عجيباً في تلك الظروف اي في عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ فضلا عن استمراره في النشاط بعدهما في سبيل هذا الأمر ؛ حيث اخذ يكتب للحكومة الانكليزية ويتصل بممثليها في عمـان والشرق العربي ويعقد معهم الاجتماعات ويقدم المذكرات والحلول ويعاود الكتابة بسبيل الرد على مايتلقاه من اجوبة ، ويحمل حكومته اتخاذ القرارت والاتصال من ناحيتها وبصفتها الرسمية بالحكومة الانكليزية وبذل الجهود المختلفة ؛ وبادأ رجال الشام بالمراسلة عن طريق فارس الخوري ، واذاع بياناً على اهل البلاد الشامية دعا فيه الى مؤتمر عربي لتقرير الخطط والخطوات في سبيل الوحدة السوريـة التي هي مطلب الجميع على ما يستفاد من الوثائق العديدة المنشورة في الكتاب الابيض الاردني الصادر في عام ١٩٤٧ ؛ مما يدل على انه كان معتقداً اعتقاداً قوياً بأن الفرصة سانحة والظرف موات .

ولقد احتوت رسالة فارس الخوري معنى من معاني التجاوب وفيها ما يمكن ان يدل على ان اخوانه او بعضهم كانوا مطلعين وموافقين عليها ؛ ولايبعد ان يكونوا جادين في ذلك لانهم لا بد من انهم قد هلعوا كما قلنا من احتمال تجدد حيوية فرنسا عن طريق الحركة الديغولية بعد ما كان من اغتباطهم بانهيارها وتعليقهم الآمال الكبيرة على الخلاص نهائياً من مخالبها لانهم لا بد من انهم كانوا مدركين ان هذا الخلاص لا يتم إلا بتعضيد الانكليز ، كما انه كان في سوريا اتجاه قوي نحو هؤلاء بسبيل الخلاص المنشود .

ومع ان اجوبة الانكليز كانت كعادتهم تحتوي شيئاً غير يسير من التطمين والتأميل والكلام المعسول عما تكنه بريطانيا للعرب من مودة وتذكره مع العطف الشديد من آمالهم في الوحدة ومطابقتها معهم فيها فقد كانت تحتوي استمهالا وتشير الى ان الامور غير مجلية، وبتعبير اصح كانت اجوبتهم مطاطة ومموهة ؛ هذا إلى ما

كان من تصريحات شرشل وكتاب ليتلتون الى ديغول المسبوق باتفاق شفوي بشأن مركز فرنسا وحق رجحانها في سوريا ولبنان . فكل هذا يمكن ان يدل على ان مساعي صاحب الاردن ونشاطه انما كان صادراً عن مطامحه وآماله القومية والشخصية فحسب ، وان السياسة الانكليزية الرسمية لم تكن جادة في تشجيع ذلك النشاط والمساعي ووصولها الى نتيجة ايجابية ، وان ما كان يبدو من نشاط عمال الانكليز وهمساتهم قد كان لمآرب اخرى . ولو كان العكس صحيحاً لما عدم الانكليز وسيلة الى التشجيع على تجاوب قوي وانتاجه إذا لم يروا أن يتظاهروا فيه تفادياً من إثارة الافرنسيين ، ولاسيا ان الظروف كانت موانية بما كان لهم من حول وطول وبما في سوريا من اتجاه نحوهم وكره مرير نحو الافرنسيين، فضلا عن انه لم يكن لديغول الذي كانت حركته ضعيفة وقائمة على الانكليز في كل شيء ان يفعل شيئاً ، وهو مضطر على كل حال الى السير في ركابهم بسبيل ماهو اعظم خطراً وهو تحرير فرنسا نفسها التي كانت منهارة وتحت رحمة الاقدار المجهولة . ولقد كان في ما اقدم عليه الافرنسيون في سياق قيام العهد الجديد في سوريا وتقريرهم في النهاية الوقوف موقف العداء من الكتلة الوطنية ، وتعيينهم عدوها الشيخ تاج رئيساً للجمهورية وقيـــام حكومة متسقة قليلا او كثيراً معهم في ذلك الموقف على ما سوف نذكره بعد حافز لرجال الكتلة الى التجاوب لو شجعوا عليه من قبل الانكليز بشكل من الأشكال او لو لحظوا انـــه مؤد الى نتيجة ايجابية . ولقد حاول بعضهم ان يوثق صلاته برجالات الانكليز وان يستعديهم على تصرف الافرنسيين والسلطات الحكومية التي اقاموها ، وان ينشط في سبيل تحريك الدفة نحوهم ؛ فسارع الافرنسيون الى نشر بيان انذاري لهؤلاء وامروا بعضهم بالاقامة الاجبارية في امكنة عينوها لهم ، وبدأوا بحركة مطاردة واعتقال ضد من اشتبهوا في ممالأته وضلعه في ذلك النشاط ، مما اضطر من استطاع الافلات من رجال الكتلة وغيرهم من الوطنيين الى مغادرة البلاد او الاختفاء والانزواء فلم يتحرك الانكليز ورجالهم لنصرتهم وحمايتهم فضلا عن تشجيعهم في السير في سبيل الاهداف التي كان ينشط لها صاحب الاردن . وعلى هـذا فلسنا نرى محلاً للقول انه لو تضامن رجال الشام في هذه الآونة مع صاحب الاردن لكان في الامكان تحقيق هدف قومي عظيم ينشده المشار اليه كما ينشده رجال

الحركة العربية، وهو تحرير سوريا ولبنان من فرنسا وتوحيدهما مع الجزئين الجنوبيين الاردن وفلسطين ؛ لان هذا ما كان ليتم في حال بدون رضاء الانكليز وتشجيعهم. ونعتقد ان رجال الشام لم يكونوا في موقف يجعلهم لا يرحبون بهذا التشجيع ولا يسيرون في نطاقه لو كان مهما تكن هناك من اعتبارات اخرى . ولم يخرج الانكليز ازاء حركة الوحدة والمشاورات بسبيلها عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ عن ذلك النطاق بالرغم عن تظاهرهم بالعطف والتشجيع على ماسوف نذكره بعد ؛ مما يدل على انهم يسيرون وراء سياسة مرسومة مركزة وهي عدم تشجيع العرب على قيام كيان قوي متحد لهم وتفضيل بقائهم منفردين مع دخولهم في دائرتهم ...

- ٨ -

الجمهورية الثانية برئاسة الشيخ تاج واحداثها

ولقد كان هناك خلاف على كيفية بـــدء الخطوة الى وضع جديد في سوريا ؛ فالوطنيون او بتعبير اصح رجال الكتلة الوطنية التي ظلت تمثل الحركة الوطنية كانوا يرون ان الوضع الدستوري الاول هو الذي يجب ان يعتبر قائمـــاً فيجتمع المجلس النيابي ويقر أو يرفض استقالة هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية ، فاذا رفضها عاد هـذا الى مركزه والف وزارة وجرت الامور في المجرى الدستوري ، وإذا قبلها انتخب خلفاً له وجرت الامور كذلك على هذا النمط ، وان امر التعاهد يجب ان يتريث فيه ؛ في حين ان الافرنسيين كانوا يرون ان يقوم العهدالجديد بأمر او خطوة تصدر عنهم ، وان تتجدد المعاهدة ، وان يكون لهم التوجيهات الضرورية وخاصة في ظروف الحرب ومقتضياتها . وبعد اخذ ورد وتقارب وتباعد انقطع الاتصال بينهم وبين اولئك ؛ فالافرنسيون اصروا على وجهة نظرهم دون ان يعبأوا بتناقضها مع اعلانهم ودعايتهم ؛ والانكليز رأوا على ما بدا ان لا يتداخلوا في الامر لئلا ينقضوا عهدهم مع الافرنسيين وتفتر حماستهم في تغذية المقاومة السرية مما كان يشغل بال الانكليز في الدرجة الاولى ؛ فاتصل الافرنسيون حينئذ بالشيخ تاج الدين الحسني الذي كان ذهب الى فرنسا عقب اقالة حكومته عام ١٩٣٥ ولم يعد إلا قبل الحركة

الجديدة ببضعة اشهر واتفقوا معه على وجهة نظرهم بعد ان قام كاترو بحركة استفتاء بهلوانية ، وادعى ان الناس اجمعوا على ان الشيخ خير من يقوم بالمهمة ! وارسل بصفته مندوباً سامياً لفرنسا الحرة اليه كتاباً يكلفه فيه بالقيام بمهمة رئيس الجمهورية وصلاحياته ، ويقول فيه فيما يقول ان اتصالاته بالناس واستكشافه الرأي العام السوري جعلاه يرى انه هو الشخصية التي تستطيع الاضطلاع بأعباء تنظيم هذا الدور الجديد على اساس معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا ! هذا في حين انـه يعرف ان الشيخ كان مبغوضاً وان شعار اضراب عام ١٩٣٥ وثورته كان الهتاف ضد عهده ، وانه اخفق في محاولاته في حمل الناس على التعاون معه والتعاهد مع فرنسا في ذلك العهد ، وانه لم يستطع البقاء في البلاد على اثر اقالته .. وهكذا ظهر ان الافرنسيين ظلوا على تجاهلهم بماتعنيه سوريا من حركتها الوطنية ومطالبها الاستقلالية، ورجعوا الى تمويهاتهم وحلولهم الزائفة وتجاربهم الخائبة ومناوأتهم للحركة العربية ولم يتورعوا بسبيل ذلك عن الكذب العلني على البلاد وعن مناقضتهم لصفتهم وعدم اعتبارهم بما حلّ فيهم ، كما ظهر انهم قد قرروا الوقوف من الكتلة الوطنية موقف العداء الذي ظلت تقفه فرنسا منها على اعتبار انها رمز للحركة العربية والروح الوطنية والنضالية.

وقد الف الشيخ وزارته الاولى برئاسة حسن الحكيم ومن اناس عرف بعضهم بعدائه للكتلة وبعضهم بولائـــه الوثيق افرنسا ومشروعاتها ، وبعضهم بذبذبته او طمعه في المنصب على اي حال . فكان في هذه التشكيلة ما فيه الدليل الكافي على موقفهم ومقصدهم .

وبعد قليل اقيمت حفلة كبرى باسم حفلة الاستقلال خطب فيها كاترو والشيخ، فقال الاول ان فرنسا الحرة قد حققت ما وعدت به من منح سوريا استقلالها وانه سيباشر قريباً امر عقد المعاهدة التي تنظم الصلات بينها ، وان هذا الاستقلال مقيد بما للحرب من ضرورات مبرمة وان سوريا مدعوة لتهيئة قوى وطنية توضع تحت قيادة الحلفاء للدفاع عن القضية المشتركة ، وانه مع الاعتراف بوحدة سوريا السياسية والجغرافية يجب ان تراعي رغبات بعض المناطق في تمتعها باستقلالها المحلي والاداري (يعني جبل الدروز ومنطقة اللاذقية) ،وشكر الشيخ فيخطابه ما كان من عطف فرنسا الحرة ووفائها ومساعدتها على اقامة كيان سوريا المستقلة وقال ان سوريا لن

تنسى هذا الجميل ، وانها مستعدة للتعاون مع الحلفاء في كل شيء مساهمة في تأمين النصر لهم ، فوطدت هذه الحفلة والخطابان اللذان القيا فيها الصفة التي ارادها الافرنسيون للعهد الجديد ، وكشفت في الوقت نفسه عن تمسك هؤلاء بالسياسة التي انتهجوها قبل الحرب دون تبديل وتغيير .

ومما جرى أن كاترو اصدر بعد قليل قراراً بارتباط جبل الدروز ومنطقة اللاذقية بسورية كدولة على ان يحتفظا باستقلالها الاداري ومجلسيها التمثيليين وميزانيتها الخاصة تنفيذاً لما جاء في خطابه . وأقام الشيخ تاج حفلة لمناسبة هذا القرار اشاد فيها بنعمة فرنسا وتحقيقها مطلب الشعب بالوحدة بعد الاستقلال ...

- ٩ -

جو الحرب ثانية في سوريا

ولم يلبث جو الحرب ان عاد ثانية ، وان اصبحت سوريا قاعدة من قواعد الحرب وطريقاً من طرق مواصلاتها ومركزاً من مراكز تموينها في الشرق العربي. وقد سير في الاستنفاع بكل ذلك اشواطاً كبيرة ، فقامت حركة تجنيد وتطويع كان منها فصائل عديدة منها ما رابط في سوريا لاعمال الأمن والحراسة والمواصلات ومنها ما ارسل الى بعض جبهات الحرب ، ووضعت السلطات يدها على مختلف مرافق البلاد وغلاتها ، وتولت امر تنظيم الاعاشة المدنية بالاضافة الى العسكرية ، وعبدت كثيراً من الطرق ،وأنشأت كثيراً من الثكنات والمعسكرات والمطارات والمؤسسات العسكرية المختلفة ، وصارت سوريا بالجملة تعج بالحركة الحربية .وساعد على هذا هجوم الالمان على الروس وانتعاش امل الحلفاء في كسب الحرب ودحر الالمان من حدود مصر من جهة وضرورة الاستعداد للدفاع عن الشرق العربي تجاه احتمال تطويق الماني عن طريق القفقاس من جهة اخرى .

وقد اهتم الانكليز لتنقية سوريا من ما يسمى اعداءً او غير موالين ، ولا سيما إن حركة العراق كشفت لهم عن عواطف كامنة ضدهم في بلاد العرب ناتجة عما كان منهم نحوهم من الأعيب وأساليب وكوارث وغدر ، وتضامن الافرنسيون

معهم في هـذا الاهتمام لتنقية البلاد من اعدائهم الذين اعتادوا إزعاجهم في تاريخ النضال السوري ، وكانت ضرورات الحرب وظروفها مـبررات قوية . فابتليت سوريا من جراء ذلك بمحنة شديدة ولعبت الجاسوسية التي كانت مصبوغة عـلى الاغلب بالصبغة الافرنسية او التربية الافرنسية دوراً غير يسير في هـذا الميدان ، فأخذت مراكز الاعتقال تمتلىء برجال الوطن وشبابه ، واضطر كثير منهم للتوارى او التشرد ، وقد تناولت المحنة كثيراً من زعماء الكتلة وشبابها وانصارها مما يبرر القول إن عداء رجال العهد الجديد للكتلة قد لعب دوره في هذا الميدان ، ولا سيما ان عهد الشيخ تاج قوبل مقابلة عدائية من الشعب ودوائر الكتلة الوطنية ونشرت مناشير شديدة في انتقاد هذا العهد وتجرحه ، واستغل الافرنسيون ظروف الحرب التي جعلت الانكليز يسايرونهم فعادوا إلى عسفهم وإرهاقهم بسبيل الاثراء ومثلوا الدور البشع الذي مثلوه في فترة الحرب الاولى مما فصلناه في مناسبة السابقة .

ولقد استمر هذا العهد سنة ونيفاً ، ومما جرى ان الشيخ تاج الذي كان يعرف ان منصبه غير شرعي ومحل للتجريح لانه مستمد من السلطة الافرنسية حاول ان يسبغ عليه صفة شرعية بشكل ما ، فبذل جهوده مع اعضاء المجلس النيابي المعطل وساعده في جهوده الافرنسيون الذين لم ينجحوا إلى اجراء انتخابات ولم يسمحوا باستئناف المجلس المعطل لحياته انسياقاً بذهنيتهم المعتادة ، ولا سيما إنهم يعرفون كما يعرف الشيخ انه لا يمكن أن ينال الثقة من طريقها العادي ، فحصل على مضبطة موقعة من نحو خمسين نائباً قرروا فيها ثقتهم به واعتباره رئيساً شرعياً !

ولقد تغيرت في هذا العهد ثلاث وزارات بسبب ما كان من تصرفات ومداخلات افرنسية معتادة وخاصة بسبب ادارة الاعاشة ومصاعبهـا . وكانت الوزارتان التاليتان للأولى في نفس الصفة التي وصفناها قبل .

موت الشيخ تاج والحياة النيابية ثانية

وقد خلف حسني البرازي حسن الحكيم وخلف جميل الايلشي حسني البرازي . وفي عهد وزارة الايلشي مات الشيخ تاج وظلت الدولة مدة ما بدون رأس . وقد كانت تجري خلال مدة العهد المساعي والاتصالات بالانكليز في سبيل تعديل الحال

واسترضاء نفسية الشعب والتنفيس عنه عن طريق إقامه وضع شرعي صحيح لينطابق الحال على ما يعلنونه من اهدافهم الديموقراطية وخطتهم من تمتع سوريا بالاستقلال والحكم الوطني حتى استجابوا اخيراً الى هذه المساعي ، واضطر الافرنسيون الذين كان رضمهم مع الانكليز وضع التابع المحتاج ، فأمر ديغول مندوبه كاترو بتهيئة المجال لاعادة الحياة النيابية ، فنحيت الحكومة الابلشية وقام مقامها حكومة انتقال حيادية برآسة عطا الايوبي .

زعامة شكري القوتلي

وكان جو الضغط والارهاق قد خف فاستعاد زعماء الكتلة حريتهم ، وجرت الانتخابات في شهر تموز عام ١٩٤٣ بحرية تامة وانتصرت الوطنية انتصاراً باهراً بزعامة شكري القوتلي الذي انعقدت له هذه الزعامة واتجه اليه الرأي العام اتجاهاً شديداً كان به رجل الساعة وصاحب الكلمة الحاسمة ، وانتخب في ١٧ آب عام ١٩٤٣ بالاجماع من قبل المجلس النيابي الجديد رئيساً للجمهورية ، وتألفت الوزارة برآسة زميله سعد الله الجابري وعضوية اعضاء من رجال الكتلة وغيرها وان كان الاعضاء الكتلويون هم الكثرة فيها ، حيث اراد شكري القوتلي ان يدشن العهد الجديد بوزارة تمثل الكتلة وغيرها ، وكان يبشر في الاجتماعات العامة التي كان يحضرها والرحلات التي كان يقوم بها اثناء الانتخابات باللاحزبية وبالاتحاد الوطني الذي يجب ان تواجه سوريا به ما يكتنفها وما يستقبلها من ظروف ، ويقطع العهد على نفسه بإلتزام ذلك ، وعلى هذا الاساس ترشح ونجح عدد غير قليل من غير المنتسبين الى الكتلة في دمشق وغير دمشق بتوجيه شكري وايعازه .

ولعل ما كان من امر العهد الوطني في سنى ٩٣٦ - ٩٣٩ ورجاله هم رجال الكتلة وقد منوا فيه بهزة عنيفة اثرت في بنيان كتلتهم واوجدت التخاذل والشقاق بينهم مما ظل أثره مستمراً كان عاملاً في هذه الخطة ، هذا مع التنبيه على ان الكتلة كهيأة رسمية لم تكن قائمة في ظروف الانتخابات بل يصح ان يقال إنها كانت منحلة بدون قرار وإعلان منذ مدة طويلة قبلها .

الفصل الرابع

العهد الوطني الثاني
١٩٤٣ - ١٩٤٦(١)

- ١ -

نشاط العهد الوطني الثاني

ولقد نشط العهد الوطني الثاني منذ قيامه الى بث الطمأنينة في النفوس بالرغم من اشتداد الحرب واستمرار ضروراتها ، فأمكن اقناع السلطات العسكرية بتخفيف وطأة هذه الضرورات ، واطلاق سراح المعتقلين ولو تدريجياً والكف عن مطاردة المتوارين والمشردين . فأخـــذ جو سوريا يتبدل والطمأنينة تنبث والحيوية تعود والنشاط يزداد حتى كادت الشام تعود الى سيرتها الاولى بالرغم من كابوس الحرب وسلطاته وضروراته البارزة الاثر فيها .

ولقد اخذت الدول تسارع الى الاعتراف بسوريا المستقلة فكان هـذا مما ساعد على تقوية العهد وتوطيده .

وقد ساعد على تقوية العهد وتوطيده كذلك احداث هامة جرت برغم فرنسا .

مشاورات الوحدة العربية واثرها في توطيد العهد

منها مشاورات الوحدة العربية التي بدأت في مصر في اواخر صيف عام ١٩٤٣ اي في ظروف قيام هذا العهد والتي انتهت بنشوء الجامعة العربية ، حيث لم تلبث حكومة هذا العهد ان اندمجت فيها .

وقد كانت هـــذه المشاررات نتيجة لمقدمة بدأت من سنة ١٩٤٠ بما كان من

(١) ينتهي الكلام عن هذا العهد بالجلاء لاننا نعتقد ان الكلام بعد ذلك يدخل في نطاق ما يصح ان يسمى عهداً جديداً ولا يدخل في نطاق موضوع هذا الجزء من الكتاب .

شعور الاوساط العربيــة القومية بضرورة الاستفادة من ظروف الحرب وتحقيق الهدف الذي استهدفته الحركة العربية وقامت الثورة الهاشمية على اساسه وهو ايجاد كيان عربي سياسي موحد ، وبما كان من نشاط صاحب الاردن في صدد هذا وخاصة في صدد توحيد سوريا بعد انهيار فرنسا واستمراره في الاتصالات ورفع المذكرات والحلول، وبما كان كذلك من نشاط نوري السعيد في صدد اتحاد عربي يضم بلاد الشام الموحدة والعراق في الخطوة الاولى، وبما كان من تصريحات انكليزية رسمية بتشجيع حركة وحدة ثقافية واقتصادية وسياسية بين العرب مما كان من بواعثه ذلك الشعور والعطف من جهة وامل الانكليز في قيام كيان عربي متحالف معهم تتم بـه خطة المعاهدات الحليفة القائمة بينهم وبين مصر والعراق والاردن والمملكة السعودية ويضم في نطاقه بلباقة سوريا ولبنان اللذين كانا خارجين عن دائرة هذه الخطة دون ان يثيروا حنق حلفائهم الافرنسيين(١) .

ولقد كان لهــــذا الاندماج فائدة عاجلة لسوريا لأن بغي فرنسا في مايس عام ١٩٤٥ على ما سوف نذكره بعد قد وقع بعده فتضامنت دول الجامعة مع سوريا تضامناً رائعاً كان له اثر عظيم في الاوساط السياسية العالميــة كان من نتائجه جلاء فرنسا عن سوريا بعد قليل .

ومما لا ريب فيه ان الافرنسيين قد حنقوا اشد الحنق من هذا الاندماج وتمنوا لو استطاعوا ان يحولوا دونه كما فعلوا في ظروف مؤتمرات لندن العربيــة الرسمية

---

(١) إن اول تصريح انكليزي علني في هـذا الباب كان في ٢٩ مايس ١٩٤٢ وقـد صدر عن ايدن وزير الخارجية في اجتماع عام في لندن . وقد جـاء فيه : « ان العالم العربي قـد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العام الماضي ،- بقصد قيام جمهوريتي سوريا ولبنان وتبادل العهد بين فرنسا الديغولية وبريطانيا على استقلالهما على ما ذكرناه سابقاً - فرغب كثيرون من مفكري العرب في أن يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن . وهم في سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأييدها . فمثل هذا النداء من اصدقائنا لايمكن الا ان يلبى . وانه ليلوح ان من الطبيعي ومن الحق ان تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية بل والروابط السياسية ايضاً. فحكومة صاحب الجلالة من جانبها ستؤيد كل التأييد كل مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه ». ثم ادلى ايدن نفسه بتصريح ثان في ٢٤ شباط ١٩٤٣ امام مجلس النواب جاء فيه : ان الحكومة البريطانية كما اوضحت قبل تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم . وان من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق اي مشروع يجب ان تأتي من العرب انفسهم.



شكري القوتلي يستقبل وزراء الدول الاجنبية ومعه سعد الله الجابري وجميل مردم



الجلسة التاريخية التي انتخب فيها شكري القوتلي

والبرلمانية بسبيل قضية فلسطين عامي ١٩٣٨ و١٩٣٩ على ما ذكرناه في مناسبة سابقة حيث كانوا يحرصون على ابقاء سوريا منعزلة عن الحركة العربية العامة ، لا سيما ان حركة المشاورات اشد خطورة من حركة تلك المؤتمرات كما هو واضح ، فضلا عن ما كان من ضلع بريطانيا في هـذه الحركة مما كان يزيد في حنقهم لما كانوا يتوجسونه من مقالب الانكليز لهم في هذه البلاد . ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك لان حركة ديغول كانت ما تزال ضعيفة وعالة في كل شيء على بريطانيا ، ولم تكن لتمثل حتى حكومة في المنفى كما كان شأن حكومات بلجيكا وهولانده ويوغوسلافيا واليونان التي اكتسح الالمان بلادها ، وكل شأنها انها كانت لجنة باسم لجنة التحرير .

٢ -

تعليقات على نتائج مشاورات الوحدة وموقف سوريا

ونقول استطراداً ان صاحب الاردن قد حرص في ما استمر فيه من نشاط على التنبيه على ضرورة وحدة سوريا الطبيعية او اتحادها قبل كل شيء ، وعلى بيان الاعتبارات السياسية والاقتصادية والجغرافية الوجيهة التي تحتم هـــذه الضرورة والتذكير بها في ما كان يصدر منه من رسائل ومذكرات ويقوم به من اتصالات ويتقدم به من حلول على ان يكون هو ملك سوريا الكبرى إذا كانت وحدة ورئيسها إذا كانت متحدة (١) ، وان ممثليه في مشاورات الوحدة العربية المذكورة آنفاً قد حرصوا على التنبيه كذلك على هـذه الضرورة ، وان نوري السعيد ممثل العراق أراد ان تكون نتيجة هـذه المشاورات اتحاداً فدرالياً بين الدول العربية وقدم بعض المشاريع التفصيلية في هذا الباب ، وان ممثلي سوريا اظهروا استعدادهم للموافقة على اي مشروع فيه وحدة او اتحاد عربي . منوهين ان ذلك من اهداف الفكرة والحركة العربية التي نشأت وترعرعت في بلادهم ومؤمنين استعدادهم للتضحية بكل اعتبار في سبيل ذلك . على ان مصر ولبنان وابن السعود فضلوا ان تقوم

(١) كانت النقطة الشخصية نقطة الضعف في نشاط عاهل عمان. وقد فطن لها فيما بعد فأخذ يقول ان نظام الحكم يترك لاستفتاء البلاد وان رآسة الاتحاد تكون بالمناوبة .

الرابطة على اساس احتفاظ كل دولة بكيانها واستقلالها وسيادتها ونظامها ، فتغلب هذا الرأي في النهاية وقامت الجامعة العربية على ميثاقها الراهن .

والسؤال المحير هو ما الذي جعل العراق والاردن وسوريا ينزلون على هـــذا الرأي ويرضون بهذه النتيجة التي جاءت اقل جدوى ومدى مما كانوا يرونه متسقاً مع اهدافهم القومية ومصالحهم الاقتصادية وغير الاقتصادية وهو النظام الاتحادي ، وما الذي حال بينهم وبين المضي في تحقيق هذا النظام فيما بينهم على الاقل ؟ ولاسيما ان صاحب عمـان لم ينفض يده من مشاريعه وظل ينشط بسبيلها بعد قيام الجامعة حتى جاء وقت كان يخرج فيه هـــذا النشاط من دائرة الدعوة الى ما كان يثير الأزمات الحادة والتوتر الشديد بين سوريا ولبنان من جهة والاردن من جهة وفي دوائر الجامعة من جهة كما وقع في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ ، وان نوري السعيد لم يرض عن ما أسفرت عنـه المشاورات من نتائج فتنكر للجامعة ولم ين عن الدعوة الى مشروعه (١) بعد قيامها ، وان سوريا لم تكن مطمئنة البال إذ ذاك بسبب عودة الافرنسيين بحيوية جديدة واخذهم باظهار مطامعهم وروحهم الاستعمارية والتحكمية ، واعلان الانكليز اعترافهم بحقهم ورجحانهم فيها ، ولم يكن يرد حينذاك ما يرد اليوم من الخوف على استقلالهـــا وسيادتها وجمهوريتها وانجرارها إلى نطاق المعاهدات الانكليزية العراقية والاردنية والتزاماتها .

إن من الممكن ان تكون سوريا والعراق والاردن قد رأوا أن الجامعة التي تضم جميع الدول العربية وعلى رأسها مصر قد يكون لها من الاثر في مجال الحركة العربية ما يسد الفراغ وقد تتطور الى ما فيه القوة والغناء ولا سيما ان ميثاقها قـد احتوى ابواباً وآفاقاً مفتوحة الى ذلك ، وان اتحاد الهلال الخصيب قد يكون سبباً للتباعد والتناكر بين دولة ودول العرب الجنوبية ولاستمساك نصارى لبنان بفرنسا اكثر من ذي قبل اندفاعاً وراء ما اثير في نفوسهم خلال المدة الطويلة من خوف من البعبع العربي والاسلامي مما يكون فيه ضرر كبير على الحركة العربية

---

(١) هذا المشروع هو الذي عرف بالكتاب الازرق. وقد قدم بشكل مذكرة من نوري السعيد الى المستر كايسي وزير بريطانيا في الشرق العربي عام ١٩٤٣ ويقوم على اساس توحيد اجزاء سوريا أو اتحادها ثم قيام كيان عربي اتحادي نواته العراق وسوريا المتحدة او الموحدة . ويكون لليهود استقلال ذاتي في مناطق اكتظاظهم في فلسطين ويكون للموارنة في لبنان الصغير مثل ذلك اذا رغبوا .

وشمولها ، وان تكون سوريا خاصة قد فضلت ذلك على الاندماج منفردة في تشكيلة تبدو المطامح الشخصية والسلطان الفردي فيها قوية بارزة، فلم يسع العراق والاردن إلا الدخول في ما دخل فيه الناس على مضض انتظاراً لفرص مواتية اخرى .

غير ان هذا ليس في نظرنا كل التعليل والاسباب ، ونرجح ان للانكليز اثراً في ما وصلت اليه المشاورات من نتائج وفي قيام الجامعة على الوجه الذي قامت عليه ، حيث رأوا ذلك اكثر اتساقاً مع سياستهم القريبة والبعيدة التي منها ان لايكون العرب ذوي كيان قوي متحد بالرغم مما كانوا يذيعونه من ان الوحدة هي من شأن العرب وانهم يعطفون على كل حركة ويؤيدون كل مشروع من هذا القبيل . ولقد اشار وزير خارجيتهم في تلك الظروف في تصريح من تصريحاته إلى ما يكتنف موضوع الوحدة من مصاعب عربية ناشئة عن اتجاهات الاسر المالكة واثرها . ومع ما في ذلك من حقيقة اليمة فإننا نحسب ان هذه الاشارة العلنية تنطوي على عدم التشجيع على خطوة اوسع مما كان وعلى تبرير ذلك . وفي عبارات الوزير التي نقلناها سابقاً في تصريحاته شيء من هذا الباب حيث علق تشجيع حكومته على شرط الاجماع ، ولا بد من انه يعرف ان هذا الاجماع لا يكون ، بل ولا تستبعد ان تكون المعارضة نتيجة لايعاز إنكليزي بأسلوب ما الى جهة ما . واذا كان الانكليز تظاهروا في القول إن الامر يعني العرب وحدهم فإننا لا نعتقد انهم تركوه يجري على سجيته ويصل الى نتيجة لا يرتضونها ، ولو كان لهم رأي غير الذي تم لما عدموا الوسيلة الى الايحاء بالاساليب اللبقة التي مهروا فيها ، ولا سيما ان وجه الحرب في ذلك الظرف قد اخذ يبسم لهم بعد العبوس وانهم كانوا اصحاب الشأن الاول في الحرب والسياسة وفي حكومات البلاد العربية التي اشتركت في المشاورات معاً ، وتصريح يلقيه وزير خارجيتهم يذكر فيه ان مصلحة العرب ان يقوم بينهم نظام اتحادي في هذه الظروف او كلمة مثل هذه ينقلها وزيرهم كاف لذلك . وحركة المشاورات نفسها قد كانت تجاوباً مباشراً تقريباً لتصريح هذا الوزير عام ١٩٤٣ الذي ظل العرب ينوهون به في مختلف مناسبات المشاورات ونتائجها ويستمدون حركتهم منه ! وحتى لو فرضنا ان مصر وصاحب الرياض

ولبنان استطاعوا أن يقووا على عدم السير وفق توجيه الانكليز في امر لا يريدونه لاعتباراتهم الخاصة المعروفة فإن هذا الفرض لا يرد بالنسبة للعراق والاردن اولاً وسوريا ثانياً على ما ذكرناه قبل قليل ، وكان من الممكن ان يقوم هـذا النظام فيما بين هذه الاقاليم على الاقل لو اراده الانكليز . ولقد قال وزير الدولة البريطاني في مجلس العموم في تاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٤ وبعد توقيـع ميثاق الجامعة جواباً على سؤال : « اني استخلص ان المؤتمرين قد توصلوا الى اتفاقات تدعو الى الغبطة والرضى » ، وفي هذا ما فيه من معنى التطابق على ما نحسب . هـذا الى ما يحتمل ان يكون للافرنسيين واليهود بل الاتراك دور ما في هذا الباب . فقد كان اليهود في هم وقلق دائمين في ظروف المشاورات وخاصة من تصريحات الانكليز بتشجيع الوحدة العربية ، وكانت صحفهم تحمل الحملات المستمرة ورجالهم دائبون على الحركة والنشاط . وما كان الافرنسيون ليغضوا عن تكتل عربي اتحادي تندمج فيه لبنان وسوريا في ذلك الوقت الذي اخذوا يشعرون فيـه بالحيوية تعود اليهم وتعود معها اطماعهم وصلفهم وحسبانهم أنفسهم أصحاب الشأن الأول فيها ، والذي كانوا يحرصون فيه في نفس الوقت عـــن مزالق السياسة الانكليزية ، بينما هم لا يغضون اليوم عن مثل ذلك بعد ان قوضوا خيامهم عنها املا في المستقبل واستمراراً في مزاعم مصالحهم التقليدية ، ففضلوا إذ ذاك ومسايرة للظروف العامة والخاصة ان يكون اساس هذا التكتل الاحتفاظ بكيان سوريا ولبنان ونظاميها الراهنين اذا كان لا بد من اندماجها في تكتل عربي عام وبذلوا مساعيهم في هذا النطاق . ولم تكن السياسة التركية الكمالية لترضى عن قيام كيان عربي قوي ومتحد فبذلوا هم ايضاً مساعيهم . ونذكر ان رئيس الحكومة التركية ادلى بتصريح في ظروف تلك المشاورات قال فيه ان تركية متفاهمة مع انكلترا في صدد ومدى النشاط العربي الذي يبدو اليوم بما فيه الدلالة على ما نقول .

وقد يخطر بالبال ان رجال سوريا المسئولين وخاصة رئيس جمهوريتها شكري القوتلي لو تجاوبوا مع عاهل الاردن او معه ومع العراق بعد ان خلصت سوريا من كابوس فرنسا واصبحت تتمتع بحريتها التامة لكان من المحتمل ان يقوم نظام اتحادي بين دول الهلال الخصيب ، او بين الدول السورية . وقد يكون هـذا صحيحاً ،

ولكن الخوف من دخول سوريا في نطاق الالتزامات السياسية والعسكرية التي تقيد العراق والاردن مع بريطانيا بعد ان اصبحت حرة من كل قيد وعهد والتزام اولاً ، ومن زوال النظام الجمهوري ، ثانيا صار عاملاً مهماً في عهد التجاوب . ولقد كان يبدو خلال نشاط عاهل الاردن خاصة تصريحات وحركات كانت تصل احياناً الى اثارة البلبلة والفتنة والهياج ، فكانت تحدث رد فعل نفساني شديد في رجال سوريا وصارت عاملاً مهما آخر في عدم التجاوب ايضاً ، بل ودفعت هؤلاء الى المقابلة بالمثل ، فكانت مشادات ومهاترات انتقلت الى المجالس الرسمية ، واشتد اندماج سوريا في ما سمي بالمحور المصري السعودي إزاء ما سمي بالمحور الهاشمي مما فيه مظهر من مظاهر اختلاف العرب في الاتجاهات والاعتبارات الشخصية ، وخيم التوتر والجفاء في سني ١٩٤٦ - ١٩٤٨ على ساحة الجامعة العربية وبين رؤساء ورجالات سوريا والاردن والعراق بنوع خاص :

على أننا نشك على كل حال في أن يكون الانكليز قد غيروا خطتهم التي ذكرناها قبل وهي تفضيل بقاء العرب منفردين وعدم قيام كيان اتحادي قوي بينهم ، وأنهم قد غدوا حريصين على تحقيق المشاريع الاتحادية في أقطار الشام والعراق التي يدعي اليها ويسعى في سبيلها . واذا كان لح أو تلمح أحياناً أصابع انكليزية في ما كان من مساع ودعوة فانها لا تحمل طابع جد يدل على تغيير الخطة المذكورة فيما نراه ، ولعلها من قبيل حرب الاعصاب لتضطر سوريا ولبنان الى عقد معاهدات مع الانكليز يدخلان بها في نطاقهم الذي تدور فيه الآن العراق ومصر وعلى النحو الذي يريدونه فتكمل بذلك حلقات السلسلة الانكليزية التي تطوي المشرق العربي والتي أخذت تمتد الى بعض انحاء المغرب العربي ايضاً مع بقاء الدول المرتبطة بها منفردة . ولعل من الدلائل على هذا ما كان يدار من الكلام على العزلة والانفراد وما في ذلك من خطر وضرر على سوريا ولبنان ، بل وعلى فائدة وضرورة التعاقد الاقتصادي والسياسي مع بريطانيا صراحة اثناء دوران الكلام

حول تلك المشاريع . ولعل من مقاصد حرب الاعصاب في ما كان يلمح من اصابع الانكليز التشويش والبلبلة بين العرب وفت الاعضاد فيهم ، ولا سيما ان الكلام حول سوريا الكبرى خاصة قد اشتد في وقت اشتدت فيه خطورة قضية فلسطين واشتدت فيه النقمة على بريطانيا لموقفها الغادر المتصل بسياستها اليهودية المركزية منذ البدء وفتحها باب الهجرة اليهودية والقضية اليهودية من جديد بعد ما اوصدته بيدها بالكتاب الابيض الذي قطعت على نفسها فيه العهد بالوقوف من تلك الهجرة والقضية في الحد الذي وصلت اليه وبانهاء الانتداب على فلسطين واعلان استقلالها على اساس النسبة الراهنة من سكان . وقد المع الى هذا كثير من رجالات العرب الرسميين وغير الرسميين في مختلف المواقف خلال سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ . ولعل من الدلائل على عدم تغيير الانكليز خطتهم التي اشرنا اليها عدم قيام اتحاد بين العراق والاردن مع انه جرى حوله كثير من الكلام وجاء وقت قيل فيه انه تم اوكاد ، وليس امامه أي مانع أو اعتبار من تلك الموانع والاعتبارات .

ومن الاحـداث المهمة التي ساعدت على تقوية العهد الوطني اندماج سوريا في ميثاق الاطلانطي وإعلانها الحرب على دول المحور حيث ادى هذا الى اشتراكها في تأسيس هيئة الامم وميثاقها في مؤتمر سان فرانسيسكو ثم اعتبارها عضواً مؤسساً في هيئة الامم المتحدة نتيجة لذلك .

وقد تم هذا الحادث نتيجة لرحلة قام بها رئيس الجمهورية في اوائل عام ١٩٤٥ الى المملكة العربية السعودية ومصر. وكانت هذه الرحلة في ظروف مؤتمر الأقطاب الاربعة ستالين وروزفلت وشرشل وشان كاي شاك في بوتسدام وتقريره ان الذين هم في حالة حرب مع المحور قبل نهاية مارس عام ١٩٤٥ هم الذين يدعون الى مؤتمر سان فرانسيسكو الذي يضع ميثاق هيأة الامم المتحدة وفي ظروف زيارة شرشل وروزفلت وشان كاي شاك لمصر ، حيث اجتمع رئيس الجمهورية بشرشل وابدى رغبته في انضمام سوريا للحلفاء في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب مع المحور على اعتبار ان سوريـــا مشتركة في الحرب بكونها مركزاً من مراكز الحركات الحربية ومواصلاتها وتموينها وبكون فصائلها مشتركة فعلاً في المجهود الحربي في سوريا وفي بعض الجبهات الحربية ولو كان بطريق التطوع . ومع ان شرشل ابدى شكه في دعوة سوريا الى مؤتمر سان فرانسيسكو فان رئيس الجمهورية حينما عاد القى خطاباً في المجلس النيابي عن رحلته وما جرى فيها وطلب اقرار اعـــلان الحرب والموافقة على اشتراك سوريا في ميثاق الاطلانطي فقرر المجلس ذلك واعلن الامر للحلفاء ثم بذلت المساعي في سبيل الاشتراك في المؤتمر وعضدتها انكلترة فنجحت اخيراً وارسلت اليها الدعوة ، ولم يسع فرنسا إلا الموافقة على مضض . وارسلت سوريا مندوبيها الى سان فرانسيسكو .

ولقد كان لهذا الاشتراك نتيجة عاجلة غير اعتبارها عضواً ذا سيادة وسقوط الانتداب عنها ؛ وهي استغلال هذا المؤتمر العالمي العظيم ضد فرنسا التي اقدمت في ظروف انعقاده على بغيها اللئيم في مايس ١٩٤٥ فاثيرت ضجة كبيرة فيه اندمغت بها فرنسا وخزيت وكان لها تأثير كبير في ما تم من جلائها نهائيا ، لأن المؤتمر كان

بسبيل وضع ميثاق السلم ومنع البغي والعدوان وحق الشعوب في السلامة والحرية وتقرير المصير تحقيقاً للاهداف التي اعلنها الحلفاء وسجلها ميثاق الاطلانطي . .

ومما جرى بعد بضعة اشهر من قيام هـذا العهد ان اجتمع المجلس النيابي وقرر عدم شرعية وبطلان المادة (١١٦) في الدستور، وهي التي وضعها بونسو عام ١٩٣٠ وقيد بها ممارسة سوريا لسيادتها وحقوق رئيس جمهوريتها وحكومتها على ما ذكرناه في فصل سابق . ولم يكن رئيس الجمهورية والنواب اقسموا بالاخلاص للدستور بسبب وجودها، وعقد المجلس جلسة خاصة في ٣٠ كانون الثاني من سنة ١٩٤٤ اقسم فيها الرئيس والنواب للدستور بعد اعلان بطلان هذه المادة الانتدابية الخبيثة، وبلغ ممثلو فرنسا هذه الصفعة الشديدة التي ردت سوريا بها اعتبارها وكرامتها .

- ٣ -

ولقد اهتم رجال العهد منذ بـدئه لاصلاح شؤون الدولة وتوسيع نطاق التعليم والمنشآت العلمية والصحية والاقتصادية والزراعية والفنية ، فاستطاعوا بفضل الجو الجديد السائد أن يخطوا في هـــذا المضمار خلال السنوات الثلاث الأولى خطوات واسعة تمثلت في ما كان من مقررات موازنة المعارف وعدد طلابها ومدارسها وعدد المصحات والمستشفيات وموازنة الاشغال العامة (١) ، وفي العدد العديد مـــن الأنظمة واللوائح والقوانين ، فضلاً عن ما هيأه جو العهد من طمأنينة حملت رجال المال على تأسيس الشركات الصناعية الكبيرة التي انشأت منشآت ومصانع تضاهي أحدث وأكبر المنشآت الحديثة .

---

(١) كان المجموع الكلي للطلاب في اول سنة ١٩٤٣ (١٢٠) الفاً فاصبح في سنة ١٩٤٦ (١٩٠) الفاً وكان عدد المدارس (٦١٨) فاصبح (٨٥٧) وكان عدد طـــلاب الجامعة (٦٨٠) فاصبح (١٨٠٠) وكانت موازنة المعارف ستة مـــلايين ليرة سورية فاصبحت اربعة عشر مليوناً . واصبح في كل مركز قضاء مصح وفي كل مركز محافظة مستشفى بحيث تضاعف العدد عما كان سابقاً . وكانت موازنة وزارة الاشغال العامة في اول سنة ١٩٤٣ نحو ثلاثـــة ملايين ونصف ليرة سورية فاصبحت في سنة ١٩٤٦ عشرين مليوناً عدا ما خصص لمشروع الهاتف الالي المظيم من موازنة خاصة بلغت نحو ستة وعشرين مليوناً . ولقد خصص وانفق لشؤون الاعمار والاشغال العامة في اثنين وعشرين سنة من عهد الانتداب واحد وثلاثون مليون ليرة فأربى ما خصص في السنوات الثلاث لهذه الشؤون على سبعة واربعين مليون عدا مخصصات مشروع الهاتف !!



فخامة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية السابق مع المستر ونستون تشرشل زعيم حزب المحافظين ويبدو الى جانبهما المستر ايدن



•معالي الاستاذ فارس الخوري في مجلس الامن عندما كان رئيساً له

وكان مـــن أهم ما اهتموا له تخليص كتائب الجيش الأهلي وقوى الشرطة والدرك مـن السيطرة والقيادة الافرنسية ، واستلام الدوائر والمصالح المعروفه بالمصالح المشتركة التي كانت تدار من قبل السلطات الانتدابية مباشرة مما كان مـن المظاهر الصارخة للتحكم والاستعمار وانتقاص استقلال البلد وكرامته وسيادته . وقد كانت حكومة في قلب حكومة لها الأثر الأقوى في حياة البـلاد وإيرادات الدولة وكثيرة كثرة عجيبة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، تدل على ما كان للافرنسيين مـن يد متغلغلة في كيان الدولة تغلغلاً واسعاً كان هو الذي أثار هلع الافرنسيين من توطد العهد الوطني الأول وعنادهم وسوء نياتهم من الناحية الشخصية أيضاً حيث كانت مرتعاً خصيباً لجيش كبير من موظفيهم ينعمون فيه بالرغد والثروة والجاه .

ولقد حاول الافرنسيون أن يجعلوا هذه المسألة وسيلة لتوطيد مركز ممتاز لهم في سوريا وأخذوا يجاذبون رجال العهـــد الوطني الجديد ويشادونهم حـــولها ، ويطالبون بعقد معاهدة توطد العلائق بينهم وبين سوريا يضمن لهم مركزهم الثقافي والاقتصادي والعسكري قبل النزول لهم عن هذة المصالح . ووقف رجال العهد إزاء ذلك موقفاً قوياً أساسه تفادي الارتباط بأي عهد يجعل لأي دولة مركزاً ممتازاً في بلادهم مع الاستعداد لاقامة الصلات بين سوريا والدول الأجنبية بما فيها فرنسا على أساس المماثلة وتبادل المنافع والمودة دون فرق ولا تمييز ، ووجوب تخلي فرنسا قبل كل شيء عن ما في يدها مـن المصالح لما في بقائها مـن المساس بالسيادة وتعطيل الأمور .

ولقد كان هذا الموقف مضافاً الى المواقف السابقة يثير ديغول وجماعته ويحملهم على إرسال التصريحات التي تعبر عن امتعاضهم من رجال العهد وتصلبهم او تعصبهم ، وتحمل روح التهديد والنيات المريبة نحو العهد ، واخـذوا يتصلون بالحكومة البريطانية لتسوية الامور معها ذهاباً منهم الى ان هذه الحكومة هي التي تدعم رجال العهد في موقفهم ، وعادت هذه الحكومة نتيجة لذلك فصرحت باعترافها بمصالح فرنسا في سوريا ولبنان واملها بقيام تفاهم حر بين الفريقين على هذه المصالح .

غير ان رجال العهد ظلوا مصممين عـلى موقفهم بوجوب تسليم دوائر المصالح

المشتركة قبل كل شيء ودون ما قيد وشرط ، وتمكنوا بعـــد العناء والمشاقة والتضحيات المالية الجسيمة ، وبالتضامن الذي قام فيه عهد وطني والذي كان مشتركا في هذه النكبة الانتدابية من حمل الافرنسيين على عقد إتفاق في تاريخ ٢٢ كانون الاول ٩٤٣ بين ممثلي سوريا ولبنان من جهة والجنرال كاترو ممثل فرنسا من جهة على تسليم هذه المصالح تدريجياً وفي اوقات محددة خـــلال ستة أشهر ، وتنفيذه باستثناء كتائب الجيوش المحلية . وقد اقيمت في سوريا ولبنان حفلات مشتركة لتوقيع اتفاقيات تسلم الصلاحيات فكان هذا إعلاناً بزلزلة اقدام فرنسا من البلدين

النشاد على تسلم الجيش الوطني ومكر فرنسا

اما الجيش فقد استبقاه الافرنسيون في ايديهم على ما بدا كرهينة على الحصول على المركز الثقافي والاقتصادي والاستراتيجي الممتاز الذي يطالبون بعقد المعاهدة الضامنة له ، وكان سبباً من اسباب المشاقات المضنية ثم الكارثة الدموية الباغية التي اوقعها الافرنسيون في البلاد حينما رأوا ان سوريا قد تفلت مـــن ايديهم وجن جنونهم . غير ان رجال العهد ظلوا ثابتين في تصميمهم عـــلى عدم الارتباط بأي معاهدة تمنح فرنسا او غيرها مركزاً ممتازاً مـا ، وفي المطالبة بتسلم الجيش اسوة ببقية الدوائر والمصالح التي استلموها . وعادت الاتصالات بـين فرنسا وبريطانيا وعادت التصريحات من جانب هـذه بالاعتراف بمصالح تلك ، وعادت تهديدات ديغول وتصريحاته تحمل النيات المريبة والمقاصد العدوانية مما كان يجعـل الموقف متوتراً والجو متلبداً .

ومما كان وفيه الدلالة على نيات فرنسا المريبة انها ظلت تعتبر ممثلها مندوباً ولم تلقبه بلقب سفير او وزير مفوض ، وظل هو يعتبر نفسه كذلك رغماً عما كان يثيره هذا من المشادة والامتعاض والمواقف الحرجة . ولقـــد حاول ان يمارس سلطة المندوب السامي التشريعية في مناسبة ما فأصدر في حزيران عام ١٩٤٤ بعض القرارات ؛ ومع انها كانت تافهة وغير متصلة بشؤون سوريا ولبنان اتصالا جوهريا فقد رأى رجال العهد في البلدين ان يقفوا امام ذلك مهـما كلفهم الامر فأصدرت

كلتا الحكومتين بياناً اشارت فيه الى هذه القرارات واعلنت انها لا تعترف لأحد بأي حق في إصدار قرارات تشريعية مهما كان موضوعها وانها تعتبر ما صدر من جانب المندوب الافرنسي من ذلك باطلاً ولاغياً وتعلن ان سلطة التشريع منحصرة بالدولة ومنظماتها الدستورية. وقد كظمت فرنسا على غير عادتها غيظها من هذه الصفعة، لأنها على ما بدا لم تكن في ظرف يمكنها من أن ترد عليها مهما كان في الرد حمق وسخف وطيش، فقابلتها بهدوء. وقد ظهر في ما بعد أن هدوءها هو هدوء ما قبل العاصفة وانها كانت تسر في نفسها البطشة الكبرى حال ما يتم استعدادها لها.

- ٤ -

كارثة مايس ٩٤٥ وبغي فرنسا

وقد كانت هذه البطشة الكبرى في مايس سنة ١٩٤٥ فكانت على سوريا كارثة مفجعة كلفتها كثيراً من الضحايا والخسائر ولكنها كانت في ذات الوقت انتفاضة المحتضر قبل لفظ نفسه الاخير بالنسبة لفرنسا في سوريا وفي لبنان معاً.

ولقد بدت مقدماتها العملية في اوائل السنة المذكورة حيث اخذ الافرنسيون يقوون انفسهم حربياً فيرسلون الامدادات المتوالية بينما ظلوا يماطلون في امر تسليم الجيش، بما جعل الحكومة السورية ترتاب وتطلب تفسيراً لهذا الامر بالتضامن مع الحكومة اللبنانية. وقد اعتذر الافرنسيون بأنهم لا يقوون جيوشهم وانما يبدلون بعض كتائبها، وكان عذراً زائفاً، ولا سيما انه كان من المفروض ان تجلو هذه الجيوش عن البلاد في اول فرصة سانحة لان الحرب قد انتهت او كادت.

على انهم لم يلبثوا ان كشفوا عن نياتهم بعد ان اطمأنوا الى قوتهم وامكانهم ان يملوا مطالبهم املاءً، حيث ارسل مندوبهم مذكرة للحكومتين السورية واللبنانية بتاريخ ١٨ مايس ١٩٤٥ دعا فيها الحكومتين الى المفاوضة في الاتفاقات التي تضمن لفرنسا مصالحها الجوهرية وعقدها حتى يتم لهما ممارسة شؤونهما ممارسة استقلالية كاملة؛ منها اتفاق ثقافي، ومنها اتفاق قنصلي وتجاري، ومنها اتفاق استراتيجي بحجة ضمان طرق مواصلات فرنسا وممتلكاتها في ما وراء البحار؛ وختم مذكرته بقوله: « انه

عندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الافرنسية على نقل كتائب الجيوش الى الدولتين مع الاحتفاظ بابقائها تحت القيادة الافرنسية مادامت الظروف لاتسمح بممارسة القيادة الوطنية ممارسة تامة .

وكان مفهوماً من المفاوضات والاحاديث الخاصة انهم يريدون ان يكون للغة الافرنسية والثقافة الافرنسية مركزاً متفوقاً في المدارس السورية فضلا عن المركز المتفوق الذي يريدونه للمعاهد الافرنسية وان يكون لرعاياهم وتجارتهم واقتصادياتهم مثل هذا المركز ، وان يكون لهم مطارات وقواعد استراتيجية . ومن عجيب قحتهم وروحهم الحمقاء انهم لم يكتفوا بهذا الثمن الفادح لتسليم مقاليد الجيش بل ارادوا أن تبقى قيادة هذا الجيش ايضاً في أيديهم ! وهذه النقطة لم تكن ترد في الأحاديث والمفاوضات الخاصة ولكنهم لم يروا بأساً في وضعها رسمياً في المذكرة زيادة للوزنة !

وقد رأت الحكومتان السورية واللبنانية الشطط والنية السيئة المبيتة فاجتمع رئيسا الجمهوريتين واركان حكومتيهما وقرروا رفض المذكرة وقطع المفاوضة والقاء جميع التبعات التي يمكن أن تنجم عن هذا الموقف على عاتق الحكومة الافرنسية كما قرروا توحيد الجهود والمساعي للدفاع عن سيادة البلدين واستقلالها ، وأرسلوا لمندوب فرنسا مذكرة جوابية ضمنوها ذلك وطالبوا بانسحاب جميع القوات الاجنبية بما في ذلك القوات الافرنسية وجلائها عن اراضيها وتسليمها كتائب الجيش الوطنية في اقرب وقت وبدون قيد وشرط وقد ارسلوا مذكرة الى الدول الحليفة والصديقة سردوا فيها موقف فرنسا المتعنت وتبييتها للعدوان بما ترسله من امدادات عسكرية لاضرورة لها ومطالبتها بما يمس سيادتها واستقلالها اللذين اعترفت بها ، وطالبوا بتدخلها واستعمال نفوذها لحملها على سحب جيوشها مع سائر القوات الاجنبية من البلاد .

ولقد كان الافرنسيون بدأوا منذ قدوم الامدادات بتصرفات استفزازية في مناطق ومناسبات عديدة من إطلاق النار وإقامة التحصينات وإزعاج الناس وسلبهم وتدبير فتن مسلحة يقوم بها انصارهم ومأجوروهم ، وكان كل ذلك يحدث رد فعل في الحكومة والشعب ويزيد من هياجهم، فقابل الافرنسيون هذا بتحديات جديدة

في دمشق نفسها حتى انزلوا سرايا الجيش والفصائل السنغالية إلى الشوارع حيث أخذوا يتحرشون بالناس، وأخذت الحالة تزداد توتراً وحرجا ؛ وأخذ الناس يدعون للجهاد ومجلس النواب يدرس قانوناً للتجنيد لتكوين جيش وطني يعتمد عليه، حتى إذا قارب شهر مايس نهايته كان التوتر قد بلغ ذروته بين الطرفين ، وانتقل البغي الافرنسي الى طور علني وجدي .

ولقد وقعت في يد الحكومة السورية وثيقة خطيرة تدل على ما كان الافرنسيون يضمرونه من غيظ من العهد الوطني ورجاله ويبيتونه له من نيات شريرة جنونية، حينما رأوا رجاله يقفون موقف الرفض البات من مطالبهم ، والارض التي بذلوا الجهود الطويلة في سبيل توطيد اقدامهم الاستعمارية عليها تنساخ من تحتهم . وقد ختمت الوثيقة بالعبارة التالية : اطلبوا من الافرنسيين ان يصبروا بضعة ايام وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات ، وعند ذلك نشرع في المجزرة الكبرى. وليكن كل واحد مستعداً. وسنصفي الحساب كله في ضربة واحدة!، وهناك وثيقة اخرى وزعت قبل هذه بأيام بصفة بيان سري من القيادة العامة في دمشق يعين فيها المواقع التي يجب أن ترابط بها القوات وتذكر ان واجب فرنسا وشرفها العسكري يقضي بابادة جميع العناصر التي تريد إخراج فرنسا من سوريا ، وانه يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومؤسساتها كما يجب منع سوريا من الاتصال بالدول العربية المجاورة ؛ ويجب إدارة البلاد من قبل حاكم عسكري . وقد رسم البيان الخطة اللازمة لاحتلال دوائر الحكومة وقصر الرآسة ودور الوزراء والبرلمان السوري ودوائر الشرطة والدرك والبلدية ثم احتلال المدينة احتلالا تاماً والقبض على خصوم فرنسا،وذكر في هذا البيان الخطير الذي وزع في دمشق ان تعليمات خاصة أرسلت الى باقي المدن السورية ليكون العمل مشتركا والضربة شاملة في آن واحد . وهذا البيان مؤرخ في ٢٢ مايس ١٩٤٥ أي قبل المجزرة باسبوع وبعد تقديم المطالب الافرنسية ورفضها بخمسة أيام ، وقد نقل في هذا الظرف نفسه نساء الفرنسيين وأطفالهم إلى المطار ، وكل هذا دليل ساطع على أنهم كانوا يسيرون في ما ينتوون عمله عن تدبير وبينة وتفاهم وان المجزرة قد رتبت ترتيباً ولم تكن مرتجلة .

وفي تاريخ ٢٩ مايس بوغتت دمشق بقنابل المدفعيات تقصفها وتحاول دكها ،

وبوغت الناس بوابل من النار من اماكن متعددة ومستحكمة كانت في ايديهم، واختصوا بعنايتهم دار البرلمان حيث كان من المتوقع ان تنعقد جلسة يشهدها الوزراء فتعمّدوا قذفها واخذها بنطاق النار، وقد ابيحت المدينة للفصائل الافرنسية والسنغالية فأعملت فيها يد النهب والسلب والتحريق والتدمير، واستمرت المجزرة نحو اربعين ساعة توقفت اثناءها قليلاً بطلب الممثلين السياسيين لنقل نسائهم واطفالهم ثم عادت الى شدتها كأن المعركة معركة حربية رسمية. وقد وقع مثل هذا في المدن السورية الاخرى بحيث كانت سوريا خلال هذه الساعات تموج بالنار والدماء والاشلاء والتحريق والتدمير. وقد تجاوز العدد المعروف من القتلى السمائة ومن الجرحى الألفين، وقدرت الخسائر بعدة ملايين، وسجل المراقبون اعمال النهب الواسع، واكتشفت جثث كثيرة مثل فيها ابشع تمثيل.

وتكررت مأساة الأهمال والارتجال والبلبلة وعدم الاستعداد التي كانت في العهد الوطني الأول وفي عهد فيصل قبله، فلم تكن الحكومة والشعب على استعداد للدفاع الجدي والوقوف في وجه العدوان في اكثر المواقف، ولم تفد الاحداث السابقة عبرة وعظة ما، على ان قوات الدرك والشرطة وكثيراً من الشباب في دمشق وحماه وحلب وغيرها قد سجلوا مواقف بطولة واستبسال في سبيل رد العدوان. وقد سلم متطوعة الدروز في الجيش سلاحهم وامكن اعتقال الضباط والقوات الافرنسية الاخرى في الجبل كما امكن حصر واعتقال القوات الافرنسية في درعا وبعض الاماكن الاخرى.

التدخل الانكليزي

ولقد كانت الحكومة السورية دائبة الأتصال بالدول الحليفة وخاصة بيريطانيا التي كانت ضمنت لسوريا تحقيق استقلالها وحكمها الوطني؛ ولقد نصحتها هذه بالتفاهم مع فرنسا كما نصحت فرنسا بعدم الغلو، غير ان الحالة ظلت تشتد توتراً، فلما بلغ الموقف ذروته واشتدت المجزرة ناشدت الحكومة السورية بريطانيا مساعدتها ووفاءها بوعدها، فسارعت هذه الى اصدار امرها الى قواتها بالتدخل واعادة



رصاص الافرنسيين في البرلمان السوري

النظام ورد الافرنسيين الى ثكناتهم كما ارسلت مذكرة الى ديغول تخـبره باضطرارها الى ما قررته وتطلب منه اصدار الاوامر اللازمة تفادياً من الاصطدام بين القوى الانكليزة والقوى الافرنسية . وقد نفذت القيادة الانكليزية الأمر بما تحت يدها من قوى في سوريا وبما جلبته من قوى مساعدة مـن فلسطين في ٣١ مايس وما تلاه من أيام حتى غدت القوى الافرنسية كالأسيرة في ثكناتها ووقفت المجزرة عند الحد الذي وصلت اليه .

- ٥ -

اهتمام الانكليز والاميركان للحادث

ولقد كان اهتمام الحكومة البريطانية بالغاً اثناء الازمة واشتدالى درجة الخطورة في لحظاتها الاخيرة ، حتى لقد عقدت الوزارة جلستها في الليـل في مجلس النواب حيث كان منعقداً ، وكان وزير الخارجية يتردد بين غرفة الوزارة وقاعة المجلس لينقل للأعضاء تطور الأزمة ، وكان الاعضاء يقابلون خبر قصف الافرنسيين دمشق بالاستنكار كما قابلوا خبر صدور الامر بالتدخل العسكري بالهتاف .

وكذلك كان اهـتمام الحكومة الاميركية ، حيث كانت المشاورات مستمرة بينها وبين الحكومة البريطانية خلال الازمة إلى أن وصلت إلى ذروتها .

وقد صدر عن وزارة الخارجية الاميركية تصريحات تنديدية بموقف فرنسا وما لاختلال الامن في الشرق الاوسط من تأثير في الجهود الحربية في الشرق الأقصى .

ولقد كان اهتمام الصحافة الانكليزية بالغا منذ اخذت الامور تتأزم ، وكانت توجه التنديدات القارصة الى فرنسا لتجاهلها ذهنية العالم الجديدة وإصرارها عـلى الاستمرار في ذهنيتها العتيقة ، كما كانت تطالب الحكومة بالوقوف موقف الحزم واشعار سوريا بصدق ضمان بريطانيا لاستقلالها ووفائها بوعدها .

كذلك اهتمت الحكومة السوفيتية اهـتماما كبيراً للموقف وارسلت الى الحكومات الاربع الكبرى انكلترا واميركا وفرنسا والصين مذكرات لفتت

نظرها إلى ما كان من عدوان القوى الافرنسية على المدن السورية وسكانها بالمدافع والطائرات والجنود واستنكرته اشد الاستنكار وطلبت العمل المشترك في ايقافه، وحملت محطات الاذاعة الروسية عليه حملات شديدة .

ولقد كانت وفود الأمم تعقد اجتماعاتها في سان فرنسيسكو من أجل توطيد نظام هيئة الأمم وميثاقها ، فاستغل العرب الذين كانوا قد جمعوا شملهم في تشكيلة الجامعة العربية هذه الاجتماعات ، وأثاروا القضية وأذاعوا أخبار العدوان الباغي ، فكان لذلك رد فعل استنكاري شديدي في مختلف أوساط العالم السياسية والصحافية ، ولا سيما إن سوريا كانت قد انضمت إلى صفوف هذه الأمم وكان مندوبوها في سان فرانسيسكو يشتركون مع مندوبي الدول الاخرى في وضع نظام العالم الجديد القائم على الحق والحرية ، وأصبحت بذلك معترفاً باستقلالها وسيادتها واقعياً وطبيعياً ومتخلصة من صفة الانتداب دولياً .

تحملات فرنسا وصفرها

وطبيعي أن تدخل الانكليز على الوجه الذي تدخلوا به ووقوف اميركا الى جانبهم والضجة التي أثارتها صحافتهم قد أحدث استياءً شديداً في نفس ديغول والأوساط العسكرية والاستعمارية الافرنسية ؛ وإذْ لم يكن في إمكانهم أن يمنعوا التدخل الانكليزي بالقوة فقد رضخوا له ؛ ولكنهم أخذوا يقابلون الهجوم بهجوم معاكس ، فيعزون صراحة حيناً وتلميحاً حيناً آخر ما كان من الانكليز الى ما يبيتونه من نية باخراج فرنسا من سوريا والحلول محلها بالرغم عن تظاهرهم ، كما أخذوا يبدون دهشتهم من مناصرة الانكليز لموقف سوريا المتعنت وتأليبهم عليهم العالم بينما لم تكن المطالب الافرنسية إلا مثل ما يتمتعون به أنفسهم في مصر والعراق والأردن . وأخذوا في ذات الوقت يذيعون أن ما كان في سوريا إنما هو من عناصر شغب لا تمثل الشعب وأن ما يطلبونه لا يتعارض مع استقلال سوريا وسيادتها وإنه نتيجة لما كانت تحمله من التزامات دولية لم تلقها عنها بعد الى آخر الاسطوانة السمجة التي أعادوها دون مبالاة بما تنطوي عليه من حمق وقحه وتناقض.

ولا يملك الانسان نفسه من الدهشة من صلف فرنسا ومكابرتها وعنادها وحمقهـــا وروحها الاستعمارية الباغية دون تفريق في الاشخاص والادوار والأمكنة بالرغم مما ذاقته من مرارة كأس الاحتلال والهوان . وما كان من انهيارها الحربي والخلقي والاقتصادي ، وبالرغم مما وقع عليها من لطمة قاسية حينما بغت على حكومة لبنان في خريف عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد وما أثاره بغيها من دهشة العـالم واستنكاره وتقريعه .

ومع أن من الصعب أن يؤمن المرء باخلاص الانكليز في موقفهم وفي دعواهم بأن لا مطمع لهم في سوريا ولبنان، ولاسيما إنه قد كانت لهم بعض مظاهر ومواقف مثيرة للريب ذكرناها في حينها كما كان مثل ذلك في حادث لبنان الذي أشرنا اليه آنفا ، ثم إنه قد كان بينهم وبين الافرنسيين تشاد قديم وحديث عليها ، مما يجعـل المرء يتوقع أن يتقاضوا ثمن موقفهم بشكل من الأشكال وفي وقت عاجل أو آجل فان تدخلهم أثار موجة ارتياح وشكر عظيمة في سوريا حكومة وشعبا ، وجعلهم ينظرون اليهم في وقته الذي جاء فيه كالمنقذ لهم من اللجة الهائلة التي سقطوا فيهـا وكادت تبتلعهم .

تضامن البلاد العربية في الحادث

ولقد كان للبغي الواقع رد فعل شديد في البـــلاد العربية فأضربت فلسطين والأردن والعراق تضامناً مع سوريا ، وحملت صحافتها حملات شعواء عـلى فرنسا وطالبت الحكومات العربية بقطع علائقها بها وإعلان المقاطعة الاقتصادية عليهـا ؛ وقدمت الحكومات احتجاجاتها الشديدة وقامت باتصالات سياسية متنوعة بسبيل ذلك ، وتناولت البرلمانات العربية المسألة منددةً محتجة ؛ وانعقد بعـد ايام قليلة مجلس الجامعة العربية فكان موضوع سوريا وكارثتها موضوعاً رئيسياً فيـه . وقد أرسل الملك فاروق رسالة قوية تليت في الاجتماع جاء فيها فيما جـــاء « لقد اصيبت مدن سوريا العزيزة في الحوادث الأخيرة إصابة مفجعة أحـزنتني وأحزنت شعبي ، ويعزيني فيها أنني أعلم أن النضال عن الحق شرف ولذة . فلنعمل لاستقلال

سوريا ولبنان وسيادتهما الكاملين ولنعمل لاستقرار الامن والسلام فيهما ، وليكن لجامعة الدول العربية المقام الذي نوده لها وتريده الامة العربيـة كلها . فان في قوة الجامعة قوة لجميع اعضائها » . وقد شرح سعد الله الجابري أدوار الموقف وتطوراته ومطامع فرنسا وتمحلاتها ثم صفحات بغيها اللئيم ووحشيتها فيه، ومن جملة ما ذكره أن ممثلي اميركا وإنكلترا اندهشا مما قاله لهما من مطالب فرنسا الثقـافية والاقتصادية والعسكرية ولم يصدقا ذلك إلا بعد أن قرأا المذكرة الافرنسية، وأن ممثل أميركا قال له إن الاذاعة الافرنسية كانت تذيع والعدوان في شدته أن القوى الافرنسية لن تكف حتى ترضخ الحكومة السورية للمطالب وتوقع على الاتفاقيات المعروضة . وقد خطب رؤساء الوفود خطباً قوية استنكروا فيها عدوان فرنسا وأعلنوا تضامنهم مع سوريا الى النهاية ، ثم قرر المجلس تأييد سوريا ولبنان في طلب الجلاء العاجل لجميع القوات الافرنسية من اراضي الجمهوريتين وتحميـل القوات الافرنسية تبعة الخسائر والضحايا التي أوقعتها في سوريا واعتبارها في موقف المعتدي، وبذل الجهود المشتركة في سبيل تحقيق الجلاء العاجل .

موقف لبنان الايجابي وتضامنه مع سوريا

ولقد حرصت سوريا على أن يكون لبنان بنوع خاص متضامناً معها في الموقف لانه موقف مشترك يتصل بلبنان بمثل ما يتصل بسوريا ، ولأن فرنسا تطالب لبنان وتقف منه بمثل ما تطالب سوريا وتقف منها من أجله ؛ ولا سيما إنها تعلم ما لفرنسا في لبنان من انعطاف قوي وأن أي استقرار افرنسي فيه يهدد أمنها ومستقبلها . ولقد كان لبنان والحق يقال مستجيباً استجابة تامة حكومة وشعبا ؛ ولا سيما كان يقوم فيه عهد وطني ، وكان اكتوى بنار كارثة باغية قبل مدة قليلة كانت من آثارها إراقة دماء واعتقال رئيس الجمهورية ووزرائه وبعض نوابه، وكان من آثارها ولادة لبنان العربي القومي على ما سوف نذكره بعد ؛ فوقفت الحكومة منذ البدء مع سوريا موقفاً واحداً في رفض المطالب ، وأضربت بيروت والمدن الرئيسية أياماً عديدة ، وعقدت الهيئات الوطنية على مختلف ميولها مؤتمراً قومياً متسقاً مع المنهج

الاستقلالي الوطني الجديد الذي انتهجه لبنان ، ودعا الى التطوع بسبيل الاستعداد للطوارىء ، وفعل مثل هذا المجلس النيابي ؛ وحاول أنصار فرنسا تخفيف حـــدة التضامن اللبناني السوري فكان نصيبهم الاخفاق .

- ٦ -

الجهود في سبيل خطة الجلاء ونجاحها

ولقد تكثفت الجهود بعدئذ في سبيل الخطوة الحاسمة وهي الجلاء التام دون تقيد بمعاهدة ومنح مركز ممتاز ؛ وكان هذا التصميم سابقاً على البغي فزاده هـــذا قوة وشدة . وقد سنحت الفرصة الملائمة في أواخر عام ١٩٤٥ ؛ فقد عقدت الحكومتان الانكليزية والافرنسية اتفاقاً على تنظيم انتقال جيوشها في سوريا ولبنان ، رأت فيه الحكومتان اللبنانية والسورية افتئاتـاً على استقلالها وسيادتها وفرصة لاثارة قضية وجود جيوش أجنبية في بلادهما والمطالبة بجلائها عنها ، فاحتجتا على الاتفاق من جهة لدى الحكومتين وسارعتا من جهة اخرى إلى عرض القضية على مجلس الأمن مطالبتين بالجلا ولم يسع بريطانيا وفرنسا إلا ان تصرحا عزمهما على الجلاء ، وقالت بريطانيا ان دخول الجيوش البريطانية الافرنسية الى سوريا ولبنان لم يكن القصد منه إلا منع الألمان من اتخاذهما قاعدة اولاً وتأمين مواصلات الحرب الى الشرق الاقصى ثانياً . وأيدت اميركا مطلب سوريا ولبنان وقالت ان السياسة التي أقرتها هي جلاء الجيوش الأجنبية عن جميع بلدان الامم المتحدة فور طلبها وإبـداء رغبتها في ذلك كما أبدت الطلب روسيا والصين ودول اخرى في المجلس . ثم اقـترحت اميركا صيغة قرار بنصيحة الدول الاربع اي انكلترا وفرنسا وسوريا ولبنان بالاتفاق على الجـلاء وتنفيذه في أسرع وقت ممكن ، ووافقت اكثرية المجلس الساحقة على القرار غـــير أنه لم يكتسب الصفة القانونية لأن روسيا امتنعت عن التصويت بسبب عدم تحديد موعـد حاسم للجلاء وتعليقه على مفاوضات . ومع ذلك فإن بريطانيـــا وفرنسا لم يسعهما إلا ان يعلنا استعداداً لتنفيذه في أسرع وقت ممكن ما دام ان أكثرية المجلس أقرتـه . ثم تم الاتفاق بينهما على ان يكون جلاء جيوشهما معاً عن سوريا في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦

المصادف ليوم الاربعاء ١٦ جمادى الأولى ١٣٦٥ . وفي الموعد المذكور تم الجلاء عن أراضي سوريا واقيمت بمناسبة ذلك صباح اليوم التالي حفلة عرض عظمى اشتركت فيها وفود الحكومات العربية وفصائل من جيوشها ، وكان عيداً قومياً رائعاً دامت حفلاته المتنوعة اياماً والقي رئيس الجمهورية في بعضها خطاباً جامعاً على الجماهير عن حلقات الحركة العربية والنضال وعن العهد السوري العربي الجديد كما القيت في بعضها الخطب والقصائد عن الحركة العربية وسيرها ، وفاضت فيه دموع الفرح من عيون العرب لهذه النهاية السعيدة بعد كفاح طويل استمر خمسة وعشرين عاماً لم يفتر ولم يهن ، وقاست سوريا فيها ما قاست من عظيم المحن ، وتحملت ما تحملت من جسيم التضحيات . وكان من تمام فرحة سوريا انها أولى البلاد العربية – في غير جزيرة العرب – التي تمت لها هذه السعادة بعد هذه الحقبة ، وتكللت فيها الحركة العربية القومية بالنجاح ، وأخذ علمها يخفق وحده في سمائها غير مقيدة بأي قيد . وكان هذا حقها لأنها البلد الذي نشأت فيه الحركة العربية الحديثة وترعرعت وساهم رجالها بالنصيب الأوفى من الجهود والتضحيات في سبيلها .

ولقد انفتحت أمام سوريا بهذه النهاية السعيدة الآفاق لتنطلق منها في سبيل اتمام ماترشحت له من رسالة الحركة العربية الحديثة ؛ بما سبيله ان تتيسر لها حياة مستقرة وقيادة صالحة مرشدة قوية ألمعية يكون لها من ايمانها وعقلها وقلبها وحزمها وتجردها ومثلها العليا وافقها الواسع ودعوتها الاصلاحية ، ونزعتها التجددية او الانقلابية ما يجعلها تتسق مع الدور الايجابي الذي تستقبله البلاد وتستطيع أن تنظم وتستغل الامكانيات والمواهب العظمى الكامنة في البلاد والشعب ، وان تتغلب على مظاهر الضعف الموروثة من جهل وفقر وفوضى في ظل ما نالته من حرية من كل شائبة وزوال أي عائق خارجي لذلك الانطلاق .

الباب الثاني

فرنسا ولبنان

الفصل الأول

العهد الانتدابي
١٩١٨ - ١٩٤٣

- ١ -

قوة أثر وسهولة مناوأة فرنسا للحركة العربية في لبنان وظروف لبنان الخاصة المساعدة

إن مناوأة فرنسا للفكرة والحركة العربية في لبنان كانت وظلت أشد أثراً وأبرز مظهراً وأكثر يسراً. وكانت طبيعة لبنان الاجتماعية والروحية والدينية وما مر بلبنان من أحداث لفرنسا فيها أصابع وآثار مما ساعد على ذلك مساعدة كبيرة.

فأكثرية لبنان القديم (الصغير) نصرانية مارونية، وللموارنة لبنان تقاليد تاريخية ودينية ترجع إلى آماد بعيدة. ووحدة المذهب قد جمعت بين الموارنة وفرنسا حيث يدين الفريقان بالكثلكة ورآسة البابا الروحية. وفي لبنان طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد أيضاً تجمع وحدة المذهب كذلك بينها وبين فرنسا. وكان ما حصلت عليه فرنسا منذ القرن السادس عشر من الدولة العثمانية من منح تجارية وثقافية وملاحية، قد انقلبت مع الزمن الى امتيازات اضطرت الدولة المذكورة الى احترامها في عهود ضعفها الاخيرة وجعل فرنسا تعتبر نفسها حامية النصارى وخاصة الكاثوليك الذين يدخل في عدادهم الموارنة.

ولقد اختصت فرنسا كاثوليك لبنان وموارنته بعطف أو بتعبير أصح رأت أن تختصهم بذلك لمآرب استعمارية. فأخذت البعثات الافرنسية تنشىء المعاهد والمدارس في ظل تلك الامتيازات في مختلف انحاء لبنان تعلم أطفال النصارى فيها تاريخ فرنسا ولغة فرنسا وحب فرنسا، وتلقنهم أنهم ليسوا من العروبة في شيء وأن العروبة بعبع إسلامي وبداوة متوحشة. وجاء فريق الرهبان اليسوعيين الجزويت الذين

طردوا تقريباً من فرنسا نتيجة لثورتها الكبرى الى لبنان واستقروا فيه وانشأوا المدارس كما انشأوا الجامعة الافرنسية المعروفة باليسوعية ، ونالوا من حمايه فرنسا ومددها ومساعدتها ما حرموه في وطنهم لأن دعوتهم متسقه مع المنهج الذي كانت تترسمه .

فنشأ من كل هذا مع الزمن روابط وعواطف متبادلة بين فرنسا والكاثوليك والموارنة في لبنان ؛ حتى لقد صارت اللغة الافرنسية لغة الموارنة والكاثوليك في البيوت والاعمال وصارت الاسماء الافرنسية اسماء بنات هذه الطوائف وابنائها في بيروت وأنحاء لبنان الأخرى تقريباً، وحتى صار هؤلاء يرون في فرنسا حامياً أو كما يسمونه « اما حنوناً » ويتمنون ان يكونوا ضمن حمايتها الفعلية ، وحتى صارت فرنسا ترى فيهم الأبناء الأبرار وينعتهم ساستها وكتابها بافرنسيي الشرق ، وترى لنفسها بسببه حقوقاً ونقاليد ومصالح تبعث فيها الطمع في بسط سيطرتها أو نفوذها على بلاد الشام وخاصه على لبنان ؛ مما ظهرت آثاره أولاً في بعض الوثائق المصادرة من دار القنصلية الافرنسية في بيروت وفي بعض المواقف التي بدا فيها موارنة لبنان وكاثوليكه في أثناء الحرب كانت تكأة للاتحاديين في التنكيل برجال الحركة العربية الشاميين دون تفريق ، وثانياً في مراسلات الحسين - مكماهون ، وثالثاً في مواقف فرنسا وسلطاتها من الحركة العربية في العهد الفيصلي على مـــا ذكرناه في الفصول السابقة من الكتاب .

وأكد هذه الروابط والعواطف بصورة قوية ومستمرة حوادث لبنان وسوريا الطائفية الدموية التي أخذت تقـع عقب جلاء حملة ابراهيم باشا المصري في اواسط القرن التاسع عشر ، والتي بلغت ذروتها عام ١٨٦٠ حيث تدخلت فرنسا كوكيلة عن الدول الأوروبية العظمى تدخلا فعليا وأرسلت حملة عسكرية الى بلاد الشام لحماية أرواح المسيحيين . ونتج عن هـذا التدخل وتلك الفتن نظام لبـنان الصغير الاستقلالي والاداري الذي امتد الى منتصف الحرب العالمية الأولى ، والذي كان في الحقيقة شبه دولة ضمن الدولة العثمانية . حتى كان الشخص الذي يقترف جريمة في بيروت وغيرها فيفر الى لبنان ينجو ولا تجرأ سلطات الدولة العثمانية على مطاردته.

وبالاضافة الى الكتلة الكاثوليكية المؤلفة من الموارنة والكاثوليك الآخرين

ففي المنطقة الساحلية والغربية بما فيها لبنان التي احتلتها القوى الافرنسية عام ١٩١٨ وصارت تسمى لبنان الكبير بعد ذلك أقليات مسيحية اخرى يجمع بينها وبين فرنسا وحدة الدين مهما اختلفت المذاهب كان اندماج كثير منها في رغبات ومناهج ودعايات فرنسية سهلا، لأن تأثير الدين في الشرق كان وما يزال هو العامل الأقوى في الترابط والتكتل ، ولأن ما كان يتسع من فتن بين النصارى والمسلمين وما كان للمسلمين من تفوق مادي وعددي ومعنوي في بلاد الشام قمين بأن يجعل أغلبية النصارى على اختلاف المذاهب يرون انفسهم أقرب الى فرنسا ويرونها أجدر بحمايتهم.

استدراكات في صدد مظاهر العروبة الحديثة في لبنان

هذا مع التنبيه أولاً على أن صحف التاريخ والتقاليد التي ما زالت مذكورة تذكر أن لبنان قلما عرف المنازعات الدينية قبل أصابع فرنسا ، وأن منازعاته إنما كانت منازعات سياسية حزبية عربية ومحلية مما يعرف بالقيسية واليمنية والتي كان يندمج في كل منها أناس من مختلف الطوائف في حزب او صف واحد فيكون فيه الماروني والكاثوليكي والأرثوذكسي والمسلم والشيعي والدرزي ، وتكون الخصومة بينهم وبين الحزب الآخر الذي يكون فيه كذلك أناس من مختلف الطوائف المذكورة . وثانياً على ان محاضر تحقيق تلك المنازعات والفتن كانت تقع في أواسط القرن التاسع عشر ومشاهدات معاصريها المدونة تدل بصراحة على ان أصابع الأجانب ومنها أصابع فرنسا كانت تلعب في النصارى والدروز وكانت من اسباب ما يقع ويشتد من منازعات وفتن بين الطائفتين في لبنان ، والذي امتد اثره الى دمشق وكان منه الصدام بين مسلميها ونصاراها ، وثالثاً على ان النصارى في لبنان لم يكونوا بمعزل تام عن الفكرة العربية الحديثة والحركة بسبيلها فقد كان بعضهم من اوائل الذين اعتنقوا الفكرة في عهد الدولة العثمانية وقبل اعلان الدستور العثماني ، وتضامنوا في الحركة في سبيلها مع بعض المسلمين وأسسوا بعض الجمعيات التي قامت ببعض النشاط على ما ذكرناه في الجزء الاول من الكتاب ، كما ان من نصارى لبنان من استغرق بالعروبة وامجادها واللغه العربية وآدابها

ومفاخرها استغراقاً عظيما في الحقب الاخيرة من عهد تلك الدولة فضلاً عن الأولى وصاروا من اعلامها المشهورين وفرسانها المبرزين ، ومنهم من كان ينظم القصائد والأناشيد منذ أربعين عاماً بدعوة العرب الى اليقظة والعمل على إستعادة مجدهم كالشيخ ابراهيم اليازجي المشهور. اما المسلمون في هذه المنطقة فمع انهم كثرة كبيرة قد تعدل في عددها عدد المسيحيين من مختلف الطوائف ان لم تزد عنه ، ومع ان ميولهم المستلهمة من ظروف لبنان ذكرياته ومنازعاته وعلاقة نصاراه بالأجانب ثم من دينهم العربي وارومتهم العربية وتاريخهم العربي الممتد في اعماق الحقب الطويلة متسقة مع الفكرة العربية فإنهم مقسومون الى طوائف اعتاد بعضها ان ينظر الى بعض نظرة غير مستحبة من الناحية العقائدية جعلته يعيش عيشة انعزالية تقريباً في نطاق طائفته وتقاليده الخاصة .

ومهما يكن من امر فمن الحق ان يقال ان غير المسلمين السنيين من سكان هذه المنطقة كانوا في الحقبة الاخيرة من عهد الدولة العثمانية يعيشون كل منهم في جوه وتقاليده ونزعاته ونزغاته . وقد استثنينا المسلمين السنيين لأن صفتهم هذه التي تجمع بينهم وبين غالبية سكان بلاد الشام أولاً وبلاد العرب ثانياً وبلاد الدولة العثمانية ثالثاً والبلاد الاسلامية الاخرى رابعاً كانت تجعل مجال حيويتهم ونشاطهم واتصالاتهم ومشاركاتهم اوسع .

الآمال في انسباك طوائف لبنان في بوتقة العروبة ومساعداته

ومع ذلك فلقد كان من الممكن بل ومن الطبيعي أن تضعف آثار هذه الروح الانكماشية وبواعثها ، وان تخف حدة تلك الفوارق والنزعات حتى تزول من الحياة العامة الدنيوية وان ينتهي الامر الى مستقره الطبيعي من قيام الفكرة القومية والأخوة الوطنية الشاملة مقامها ، وان تنسبك فيها هذه الطوائف والعناصر لو لم تبل سوريا ولبنان بفرنسا المستعمرة الطامعة المفسدة المفرّقة .

فمهما كان من تعدد في الطوائف في لبنان فإن هناك حقيقة لا يمكن حجبها وهي وحدة اللغة والتاريخ والمصلحة والبيئة بل والارومة التي توحد سكان لبنان اولا وتوحدهم مع سكان سوريا ثانياً ومع العرب في سائر اقطارهم ثالثاً ، وان هـــذه

الوحدة من اقوى العناصر على نجاح الفكرة القومية وانسباك الناطقين بالضاد فيها وازالة ما بينهم من آثار الاهواء والدسائس التي رقعت قبل بزوغ الفكرة العربية الحديثة اذا ما تيسرت وحدة التربية والتعليم في نطاق الروح القومية الذي كان حقيقاً ان يكون في ظل سلطان عربي يستمد كيانه ومناهجه من الفكرة القومية الحديثة وانكفّت سموم الدسائس عن النفث فيها ، ومثل هـــذا قد كان في امم واوطان اخرى سكانها مختلفون في مذاهبهم واروماتهم بل ولغاتهم اكثر بكثير من هذا الاختلاف .

وليست دعوى هذه الوحدة تلقى جزافاً حتى بالنسبة لمن يدعى ان موارنة لبنان فينيقيون . حيث ان مـن الثابت علمياً ان الفينيقيين او الكنعانيين الذين هم الفينيقيون او منهم ليسوا الا موجة من موجات الجزيرة العربية التي ينتسب الى اروماتها الدروز والشيعيون وغيرهم من المسلمين . هـــذا فضلاً عن ان القرون الطويلة المتصلة التي عاش سكان لبنان فيها معاً قمينة بتوطيد هـذه الوحدة الموطد مثلها في الشعوب الأوروبية الحاضرة في مدى أقصر ومع الاختلاف الاشد في الدماء والاورمات واللغات .

- ٢ -

خطط المناوأة الافرنسية للحركة العربية وتياراتها منذ سنة ١٩١٨

وحينما انهارت الجبهة التركية في فلسطين ودخلت حملة فيصل الشام وسارع هذا الى ارسال شكري الايوبي ليقيم الحـــكم العربي في بيروت بالنيابة عنه وقف الافرنسيون في وجه هذا الامتداد الذي حاوله فيصل ، وتمكنوا بالتآمر مع الانكليز وتنفيذاً للاتفاق الغادر بينهم من اعادة هذا النائب الى دمشق وطي اعلام الثورة العربية من سماء هذه المنطقة التي خفق فيها ، لأنهم رأوا في هذا الامتداد خطراً على منهجهم الاستعماري الذي اختطوه من قبل نحو بلاد الشام وخاصة نحو لبنان والساحل الشامي ، ثم اخذوا يعملون منذ حلولهم في هذه المنطقة على توطيد اقدامهم وتحقيق منهجهم ، فعينوا حاكماً افرنسيا عسكريا ، وحكموها حكماً

عسكريا واسع الشمول ، وظلت هذه الصفة في الحكم قائمة طيلة العهد الفيصلي ، وملأوا دوائر الحكومة بالافرنسيين وبمن يثقون بولائهم وفنائهم فيهم وخاصة من الموارنة ، وشرعوا من جهة اخرى في تسيير تيارات دعاياتهم وتلقيناتهم وخططهم في مختلف الوجهات التي تضمن لهم توطيد القدم وتحقيق المنهج ، وكانوا يتوسلون الى ذلك بكل وسيلة من رشاو واغراء حيناً وتهديد وارهاب حيناً آخر .

وكان في ما توخوه من ذلك أن تكون هذه المنطقة بالاضافة الى ما رسموه لها من اطار استعماري خاص مناوىء للفكرة العربية فيها وحائل دون تدفق تيارها إليها مقراً للدعاية ضدها في الداخل ، وميداناً لاعداد الوسائل المتنوعة الدعائية والحربية والسياسية التي تساعدهم في قفزتهم الى هذا الداخل وتوطيد قدمهم وتحقيق منهجهم فيه ، مما كانت آثاره تظهر في جبل الدروز وفي دمشق والبلاد السورية الداخلية الاخرى أثناء المواقف والاحداث والأزمات المتنوعة في العهد الفيصلي على ما ذكرناه في الفصول السابقة .

ولقد سارت الدعاية المعاكسة للفكرة العربية في لبنان في مجار متنوعة ، منها ما كان موجهاً ضدها مباشرة ومنها ما كان موجهاً بصورة غير مباشرة وعن طريق التفريق بين العرب وتفكيك عرى وحدتهم وروابطهم وتحويل اتجاههم عنها وإشغالهم بأنفسهم ومنافعهم العاجلة . وقد كان هذا كله يجري في آن واحد .

فمن جهة أخذت تبث في النصارى وخاصة في الموارنة الذين كانوا عمود لبنان الصغير الفقري والذين هم العنصر الاكبر المعتز بكيان وعنعنات وتقاليد خاصة أكثر من غيره فكرة أنهم ليسوا عرباً وانما هم أنسال الفينيقيين ، وأن العرب ليسوا الا غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على بلاد الشام ، وقد عبروا في التاريخ كما عبر غيرهم وإن كانوا أبقوا لغتهم ودينهم ، وأن الفينيقية هي الاصل الذي يجب أن ينتسب إليه اللبنانيون وأن يتمسكوا به ، وأن الفكرة العربية العنصرية لا تقوم على أساس صحيح بالنسبة الى سكان سوريا عامة واليهم بصورة خاصة ، كما أنها تجعل ربطاً غير طبيعي بين اللبنانيين خاصة والسوريين عامه وبين سكان جزيرة العرب البدو المتغلغلين في مجاهل الجهل والوحشية بعد ما قطع أولئك ما قطعوا من المراحل الشاسعة في طريق المدنية والحضارة والثقافة .

ومن جهة أخذت تبث في نصارى لبنان بنوع خاص أن الفكرة العربية والوحدة العربية السورية والوحدة العربية الجامعة اللتين تستهدفهما هذه الفكرة ليست الا ستاراً يخفي وراءه فكرة السيطرة الاسلامية وإخضاع النصارى لها ، وأن في هذا عودة العهد الذي كانوا يقاسون فيه ما يقاسون من مهانة وما جرى عليهم فيه من حيف وجنف ، وان واجبهم ومصلحتهم وعاطفتهم تقضي عليهم أن يتضامنوا مع الافرنسيين أبناء دينهم ، وأن يتمسكوا بهم كحماة منقذين لهم من شر مثل ذلك العهد البغيض .

ومن جهة أخذت تثار ذكريات القرن التاسع عشر الدموية وأنها إنما كانت بسبب التعصب الشديد الذي يشعر به المسلمون ضدهم ويذكرون بما كان من فرنسا نحوهم من عطف ومسارعة للحماية والانقاذ في حوادث ١٨٦٠ وتقوي فيهم فكرة فرنسا الحامية الطبيعية لهم .

ومن جهة أخذت تبث فيهم مغالطات وسموم متنوعة باسم البحوث العلمية والوطنية والمنطقية والتاريخية والثقافية ، فأولاً إن الديانة الاسلامية ليست ديانة وطنية وإنما هي دخيلة والديانة الوطنية الحقيقية هي المسيحية لأنها نشأت في بلاد الشام ! وثانياً إن الفكرة العربية لا تقوم على اساس علمي لان سكان سوريا وإن تكلموا اللغة العربية فهم مزيج من عناصر ودماء متنوعة واكثرهم يمت الى أصل غير عربي ، ولأن الفكرة تشمل العراق وجزيرة العرب ، وبين سوريا ولبنان خاصة وبين العراق أولا ثم بينهما وبين جزيرة العرب ثانياً من الفروق الجغرافية وغير الجغرافية ما يجعل الانسجام مستحيلاً وغير طبيعي ، فضلاً عن أن اللبنانيين الذين قطعوا شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة والثقافة والاقتصاد والعلوم والفنون يتأثرون كأقلية وسط هذه الكثرة العظيمة بتأخرها الثقافي والاقتصادي والمدني فيتأخرون معها بدلاً من أن يستمروا في خطواتهم المتقدمة في ذلك المضمار ! وثالثاً إن لسوريا ولبنان فروقاً مميزة عن سائر البلاد العربية من حيث الثقافة والمدنية والمناخ الجغرافي ومن حيث سير التاريخ والصلات بمعالم الحضارة ؛ وهذه الفروق لا تسوغ شمول الفكرة القومية العربية ولا تجعلها قائمة على اساس ومنطق ومصلحة ورابعاً إن الفكرة القومية العربية فكرة رجعية وغير إنسانية حيث تستمد من

العصور المظلمة المتوحشه وترتكز على الانانية والأثرة في حين ان الواجب يقضي بالانطلاق من الأفكار العتيقة والاندفاع بسرعة الى ساحة الاخاء الانساني العـــام والأممية التي تجمع جميع البشر في جـــامعة واحدة دون تفريق بين جنس ودين وعرب وغير عرب وشرق وغرب .

ومن جهة أخذيلوحلهم بالمطامع والمنافع؛فعدم اندماجهم في الفكرة العربية والوحدة السورية سيعود عليهم بأحسن العوائد ، فتكون السيادة في لبنان لهم ، وتكون لهم في حكومته ودوائره المناصب والمرتبات ، ويخلصون نهائياً من مركز الأقلية المحكومة المزدراة المهيضة الجناح، ويتبوّؤن مركز الاكثرية الحاكمة فتكون لهم العزة والكرامة .

ومن جهة أخذت تبث في الشيعيين والدروز في جبـل عامل وبعلبك وجبـل لبنان دعايات متنوعة ايضا ، فالفكرة القومية العربية هي فكرة السنيين المسلمين ، ونجاحها يعني نجاح السنة وفوزهـــا ، فاذا اندمجوا فيها ضاعت ميزاتهم وبلعتهم الاكثرية ، ووقعوا تحت سيطرتها واحتقارها كما كانوا في السابق في حـين أنهم إذا ظلوا في نجوة منها احتفظوا بشخصيتهم وتقاليدهم وحافظوا على مصالحهم وتمتعوا بما تتمتع به الطوائف الاخرى ذات الكيان المتميز في الوظـائف والمناصب والرأي والوجاهة والمراسم ومختلف شؤون البلاد العامة والخاصة .

- ٣ -

آثار هذه الخطط والتيارات المبكرة

وهكذا أخذت تيارات هذه الدسائس والمغالطات البارعة التي لم يخل بعضها من صلة بأحداث التاريخ وذكرياته البغيضة تتلاطم في بحيرة لبنان الصغيرة وتفعل فعلها في طوائف لبنان المتنوعة ، ومنه ما آتى أكله باكراً حيث استجاب النصارى وبنوع خاص جمهرة الموارنة والكاثوليك اليها حالاً وكان مـن آثار هذه الاستجابة رحلة البطرك الماروني الى باريس عام ١٩١٩ لتوثيق الصلات من جديد بين فرنسا والموارنة والالحاح على فرنسا في الثبات على موقف الحـــامي لهم ولكيان لبناني



عرض البعثات العربية العسكرى في حفلة الجلاء الكبرى في دمشق ١٧ نيسان ١٩٤٦

مستقل تحت إشرافهم حيث أسفرت الرحلة عـــن تعاطي الرسائل بين البطرك وكليمنصو في توكيد اهداف الرحلة وتثبيتها والتطابق فيها ، ثم رحلة الوفد الذي رأسه داود عمون الى باريس لمعارضة مطالب فيصل في مؤتمر الصلح وللمطالبة بلبنان الكبير باشراف فرنسا ومساعدتهـــا ، ثم الاحتجاجات التي كان يرسلها البطرك الماروني من آن لآخر على ما يتقرر في دمشق من قرارات تهدف الى استقلال بلاد الشام، بما فيها لبنان، ثم تأييد الموارنة والكاثوليك وبعض الفئات المسيحية الأخرى لفكرة لبنان الكبير باشراف فرنسا ومساعدتها أمام لجنة الاستفتاء الأميركية ، ثم استجابة بعض مسيحيي جبل عامـل والموارنة الى الافرنسيين وحملهم السلاح ضد العصابات التي كانت تقوم بازعاج السلطات الافرنسية في العهد الفيصلي الخ .

ولقد كان من آثار اندماج جمهرة الكاثوليك والموارنة في هذه الدعايات والتلقينات أن صار زعماؤهم الدينيون والسياسيون يصرحون بها في مختلف المناسبات، ومن ذلك تصريح لأميل إده أحد كبار زعماء الموارنة جاء فيه أن لبنان ليس عربياً وأن ثقافته غربية إفرنسية وأنه الجزيرة النصرانية في بحر العرب المسلمين ، وأن ظل هذا المعنى وما يتصل به من كيان لبنان الخاص ووجوب تحفظه إزاء العروبة وحركاتها ووجوب توطيد الروابط التقليدية التي تربطهم بفرنسا سياسياً وثقافيـــاً واعتبار فرنسا هي الحامية والراعية الطبيعية لهم شعار سياستهم ومنهجهم . حتى إن مطران الكاثوليك في بيروت لم يتورع من القول سنة ١٩٤٩ وبعد أن كان من فرنسا ما كان من عدوان فظيع على كرامة لبنان وحريته واستقلاله واعتقال رئيس جمهوريته وحكومته الذين أرادوا أن يزيلوا من الدستور المواد الانتدابية البغيضة عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد « إنه لا يوجد في لبنان قلب لا ينبض بحب فرنسا مـع أنه يعرف أنه لا يوجد بين المسلمين الذين هم نصف سكان لبنـــان قلب لا ينبض بكره فرنسا وأن فئات نصرانية كثيرة منها الأرثوذكس والبروتستانت الذين يزيدون على المئة الف نسمة تشارك المسلمين في ذلك !

ولعل نشوء الحزب السوري القومي الذي اندمج فيه كثير من شباب النصارى والمسلمين في مختلف أنحاء بلاد الشام والذي نشأ في عهد مبكر في لبنان قد كان في بدء أمره وقبل التعديلات التي أدخلت على منهاجه من أصداء هـــذه المغالطات

والدعايات حيث كان يردد أعضاؤه الفروق المميزة لسوريا عن بلاد العرب من ثقافية واقتصادية وتفكيرية وجغرافية ومدنية ويدعون الى قومية سورية ووحدة سوريا خاصة ويناوئون دعاية العروبة الشاملة ويرونها غير طبيعية وغير منطقية وفي غير مصلحة بلاد الشام .

- ٤ -

ضعف اثر تلك الخطط في المسلمين خاصة في العهد الفيصلي

ولقد كان العهد الفيصلي منذ قيامه ينشط من ناحيته ايضاً في الدعاية في منطقة الاحتلال الافرنسي المذكورة بسبيل العروبة والقومية العربية وقيام وحدة سورية عربية تشمل هذه المنطقة ، فكان الافرنسيون يقفون من هذا النشاط موقف المترصد ويبذلون جهدهم في الوقوف في وجهه وتأليب انصارهم ومواليهم عليه ، ويشددون النكير على كل من يتظاهر بالاندماج فيه والاستجابة اليه ويضيقون عليه الخناق .

ومن الحق ان نقول ان السلطات الافرنسية لم تصب نجاحاً في العهد الفيصلي في ما كانت تنهجه من مناوأة الحركة العربية في منطقة احتلالها مع ما كانت تفعله إلا في الطوائف المسيحية وخاصة في الموارنة والكاثوليك ؛ حيث ظلت الكثرة الساحقة من المسلمين السنيين والشيعيين والدروز متسقة مع دمشق في ذلك العهد بالميول والرغائب، ومندمجة في نشاطه، بل ولقد كان لنشاط الدعاية العربية وأنصار العروبة في لبنان آثار ايجابية في فريق من ابناء الطوائف المسيحية بما فيها المارونية والكاثوليكية ظهرت أثناء الاستفتاء الاميركي عام ١٩١٩ حيث اعرب فئات من المسيحيين عن الرغبة في الاستقلال والوحدة السورية او الاتحاد مع سوريا فضلاً عن اعلان الكثرة الساحقة من الطوائف الاسلامية رغبتها في الاستقلال والوحدة السورية العربية بالرغم مما اتخذته السلطات الافرنسية من اجراآت ارهابية في طرابلس الشام وصيدا وصور وبيروت وجبل عامل والمناطق الدرزية في لبنان ، وظهرت كذلك في قدوم عدد من رجال نصارى المنطقة الافرنسية الناهين الى

دمشق مع عدد غير قليل من مختلف الطوائف الاسلامية فيها واشتراكهم في حركتها الجياشة ، واشتراك اكـــثر من عشرين منهم في المؤتمر السوري وكانوا يحملون التوكيلات الموقعة من وجوه طوائفهم وأعيانها ونابهيها ، وكذلك ظهرت في القرار الجريء الذي اتخذته اكثرية أعضاء مجلس إدارة لبـنان الذي كان يمثل الجبل على اختلاف طوائفه بطلب استقلال لبنان مجرداً عن إشراف فرنسا ومساعدتها ومتحداً مع سوريا

- ٥ -

اثر انهدام عهد فيصل في الحركة العربية وانصارها في لبنان

ولقد كان لانهدام عهد فيصل ووقوع سوريـــا الداخلية بين مخالب الاحتلال الافرنسي وتقاذفها في مختلف التجارب والدسائس والمطامع ، وحرص الافرنسيين على ابقاء سوريا في نطاقها الضيق المحلي وأشغالها بما حل فيها ، وتفرق القائمين بذلك العهد أيدي سبا ، واصلات السيف فوق رؤوس القوميين الواعين واضطرارهم الى السكون او المسايرة، وعدم تنظيم حركة دعوة قومية مستمرة تجاوب في الوقت ذاته الدعايات المتنوعة أثر اليم في لبـنان استغلته السلطات الافرنسية استغلالاً واسعاً ، حيث ضاعفت جهودها ونشاطها في صدد منع أي حركة قومية والحيلولة دون أي دعوة عربيـة ، ونشرت رقابة شديدة على الصحف ، ومنعت تشكيل الاحزاب والجمعيات وعقد الاجتماعات ، وأصلتت سيف الارهاب فوق الرؤوس ، فاستولى على القوميين الواعين وعلى الطوائف الاسلامية بنوع خاص في السنين الأولى التي أعقبت الانهدام شيء من الخوف والانكماش من الحركة العربية والدعوة العربية أو السورية العربية .

اعلان لبنان الكبير وهدفه

ومن اول ما فعلته بعد ذلك الانهدام اعلان ضم المناطق التي لم تكن من لبنان وهي مدن بيروت وصيدا ومرجعيون والنبطية وطرابلس الشام وحصن الاكراد

وبعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع وما يتبعها من قرى وأراض الى لبنان القديم وتسميته بلبنان الكبير واعلان استقلاله تحت انتدابها . والاقضية الاربعة الأخيرة كانت تابعة لولاية سوريا والبقية كانت تابعة لولاية بيروت. وكان ذلك في آخر شهر ايلول عام ١٩٢٠ . وقد قصدت بذلك فصل هذه البلاد التي كان يسكنها أكثرية ساحقة اسلامية سنية وشيعية عن بلاد الشام وقد كانت ابدت رغبتها في الاستفتاء في الانضمام اليها، وقطعها عن مجال العروبة وحركتها في الشام من جهة ومنح لبنان مساحات زراعية واسعة كان محروماً منها وكانت حياته الاقتصادية بسبب ذلك حرجة جداً ، حيث لم يكن لبنان الصغير إلا جبالاً اكثر ما يستطاع الاستغلال الزراعي فيه هو الفاكهة وشجر التوت لتربية دود القز .

ولقد كان هذا الضم بالرغم من السكان الذين هم من انصار الوحدة السورية والعروبة الطبيعيين ، ومن تمام السخرية أن ممثلي فرنسا الذين يعلمون هذا حق العلم لم يتورعوا عن الكذب والقول انهم يفعلون ذلك تحقيقاً لرغبة الاهلين .. وقد كان وقع هذا الضم ذا تأثير أليم في نفوسهم ، ولم يرضوا به قط ، وكانت لهم مواقف عديدة بسبيل الاحتجاج عليه وخاصة إبان الحركة الدستورية السورية ، حيث عقد ممثلوهم مؤتمراً في دمشق رفعوا فيه الصوت عالياً بطلب الانضمام الى سوريا على ما ذكرناه في الفصول السابقة ثم إبان حركة المعاهدة الاستقلالية التي كانت نتيجة لما جرى في سوريا سنة ١٩٣٦ على ما سوف نشير اليه بعد . وقد كان من الموجع لهم في هذا الضم ان غدوا يعتبرون اقليات في لبنان بالنسبة للكتلة المارونية ، لأن فرنسا ظلت تعتبر كلاً من السنيين والشيعيين والدروز طوائف مستقلة وكان عدد تلك الكتلة على هذا الاعتبار يفوق عدد كل طائفة على حدتها، ومن ثم صار المنصب الرئيسي في الدولة للموارنة وكاد لبنان يصطبغ بسبب ذلك بالصبغة المسيحية المارونية من الوجهة الرسمية حيث يكون رئيس الدولة فيه مارونياً ، مع أن الطوائف الاسلامية في لبنان لو احصيت احصاءً دقيقاً واعتبرت كلها مسلمة لا تقل بعددها عن الطوائف المسيحية مجتمعة وزيادتها عليها مؤكدة بسبب تفوقها في النسل .

جهاز الدولة بعد اعلان لبنان الكبير

وقد عين الافرنسيون أحد زعماء الموارنة وهو حبيب السعد رئيساً للبنان

الكبير باسم حاكم عام ؛ فكان ذلك إيذاناً عملياً بصبغ لبنان الجديد بالصبغة المارونية ، ومكافأة للموارنة ألذين كانوا عماد موقفهم وسلطاتهم . ثم ساروا بعد ذلك على سياسة توسيد مناصب الدولة ووظائف الحكومة للأنصار والموالين والمائعين والمستسلمين والطامعين والمتشبعين بالتعصب الطائفي وبالفكرة التي غرسوها وظلوا يتعهدونها وهي عدم الصلة بين لبنان والعروبة وأن لبنان بأكثريته المسيحية يجب أن يكون دولة مسيحية يقوم فيها كيان المسيحيين بارزاً قويا ، وينتهي به عهد عزلتهم الطائفية الذي كانوا يعيشون فيه في زمن الدولة العثمانية ، والذي كان المفروض أن يظلوا يعيشون فيه في وحدة سورية وعربية مما كان له تأثير قوي فيهم جعلهم يحرصون عليه كل الحرص ويتنكرون لكل حركة أو دعاية عربية رغماً عما في هذا التلقين من مغالطة في قياس الماضي بالمستقبل الذي يكون العرب فيه إخوانا متساوين في الوطن والدولة والعروبة دون أن يكون للفروق الدينية والمذهبية والطائفية أي دخل وتأثير .

ومات هذا الرئيس بعد حقبة غير طويلة فأقيم وكيل عنه ضابط إفرنسي اسمه القومندان ترابو فتقبل لبنان ذلك بدون مبالاة ، بل إن مجلس لبنان التمثيلي أقر هذا القومندان حاكماً عاماً أصيلا، نتيجة لتأثير السلطان الافرنسي من جهة ومصداقاً لما قلناه من الانسجام التام بين النصارى الذين اعتبروا أكثرية لبنان وبين فرنسا بحيث كانوا وظلوا يعتبرون حكم فرنسا للبنان طبيعياً بأي شكل جاء هذا الحكم .

- ٦ -

دور رؤساء الدين في لبنان

ولقد كان لرؤساء الدين دور خطير في السياسة التي ترسمها الافرنسيون . فان طبيعة الأقليات الدينية جعلت هؤلاء الرؤساء منذ عهد الدولة العثمانية بمثابة رؤساء طوائفهم السياسيين والاجتماعيين أيضا ؛ وكانوا يمثلونها أمام الحكومة وفي مجالسها وسائر مراسمها العامة ويسعون في دفع ما يقع عليها من حيف ويديرون شؤون أوقافها ومنشآتها الثقافية والخيرية ؛ وجعلت طوائفهم ترى فيهم الأقطاب الذين

تلتف حولهم والمرشدين الذين تسترشد بهم في المهمات والخطوب ، والحماة الذين يرعون مصالحها ، بحيث كانت كلمتهم فيها هي النافذة وأمرهم هو المطاع ؛ فساعد على هذا وذاك نظام الكهنوت المسيحي المستقر الذي يجعل الرئيس الديني كياناً لابد منه في شؤون الطائفة الدينية والمدنية. فكل هذا جعل لرؤساء الدين مركزاً خطيراً نافذاً عرف الافرنسيون كيف يستغلونه في تنفيذ سياستهم بما وثقوه بينهم وبين هؤلاء الرؤساء من روابط وأمدوهم به من نفوذ، واظهروه لهم من احترام ، ومنحوهم إياه من منافع ، وحققوه لهم من مطالب .

دور رؤساء الموارنة الدينيين خاصة

وكان دور الرؤساء الموارنة أقوى الادوار في هــذه السياسة لأن الطائفة المارونية أكثر الطوائف عدداً فضلا عن أنها تعتبر نفسها العنصر الاصلي في لبنان الضارب في أعماق تاريخه وجوداً وتقاليد، حيث تطابق هؤلاء الرؤساء مع السلطات الافرنسية في موضوع طبيعة لبنان وكيان لبنان وصبغة مسيحية لبنان ووجوب الاحتفاظ للبنان بكل ذلك ، والانسجام التام مع الافرنسيين وسياسة فرنسا وممثليها والتمسك بها واعتبارها الحامية التي لابد منها للبنان ونصرانيته وموارنته والأم الحنون التي ارتضع لبنان ونصاراه وموارنته منها لبن الثقافة والحضارة ، ثم النأي به عن الاندماج في سوريا والعروبة ؛ حتى لقد صار للبطرك الماروني في هذه المواضيع وغيرها من شؤون لبنان العامة سياسية وغير سياسية المركز الممتاز على غيره والكلمة النافذة والصوت الداوي ، وحتى صار يعتبر نفسه ويعتبره الموارنة حامي كيان لبنان ، بل وحتى صارت حكومة لبنان تقره على ذلك (١) ،

---

١ – للدلالة على هذا نورد كتاباً ارسله البطرك الى رئيس الجمهورية اللبنانية بشأن المصالح المشتركة حينما استلمتها حكومتا لبنان وسوريا من الافرنسيين واتفقتا على ابقائها مشتركة بينهما تدار بنظام اتحادي :

« لقد كنا ولا نزال نطالب باستقلال لبنان الناجز والآن اطلعنا على اتفاقية المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا وتعيين مجلس اعلى له اختصاص مستقل عن الحكومة وعن مجلس النواب في التشريع والتعيين والادارة. فعجبنا لهذا الاتفاق الذي لم يسمع بمثله بين الدول المستقلة اذ قد يفضي الى الاضرار

وحتى صار له تقاليد مراسمية فيزوره المندوب السامي الافرنسي عقب مجيئه لتلقي التهنئة منه وتزوره الحكومات اللبنانية فور تأليفها كافـــة تسعى اليه لتقدم اليه الولاء وتحصل منـــه عـلى البركة ، وحتى صار من تقاليده أن يزار ولايزور تقريباً وان يزار أولاً على كل حال مهما كانت صفة الزائر ، وأن لا يستقبل أي زائرحتى ولا رئيس الجمهورية على باب قصره بل تستقبله الحاشية ويدخل الى حضرته في البهو حيث يكون في انتظاره (١) ، وأن ينقل مـن مقره الصيفي الى مقره الشتوي وبالعكس بموكب ، وأن ينزل الى بيروت إذا نزل في الظروف الهامة بموكب ، الخ ..

بالمصالح اللبنانية فضلاً عن تأثيره في استقلال لبنان الناجز . وعليه نرجو فخامتكم أن توقفوا المشروع ونرغب الى مجلس النواب أن لا يوافق عليه مع رغبتنا الدائمة في أن تكون العلاقات بين سوريا ولبنان ودية قائمة على أساس الثقة المتبادلة » .

وقد أجاب رئيس الجمهورية البطرك بما يأتي :

« ان ما ذكر من الاتفاق المنعقد بـــين الدولتين بشأن سلطة التشريع لا يخلو فعلاً من بعض التباس . ولهذا عمدت الحكومة الى الصراحة فقدمت مشروع قانون الى مجلس النواب يخولها حق الاشتراع الذي كان يمارسه الافرنسيون كما أن المجلس السوري وافق في جلسته الأخيرة على نص مماثل تماماً للنص الذي عرض على المجلس النيابي اللبناني فزال بذلك كل لبس أو غموض . وستتولى الحكومات حق التشريع فيما يتعلق بالمصالح المشتركة . واني أنتهز هذه الفرصة لأقدم الى غبطتكم شكري . وشكر الحكومة اللبنانية على سهركم الدائم على استقلال لبنان الذي هو هدفنا الأول في جميع الأعمال » .

وهذان الكتابان تبودلا في اواسط ١٩٤٤ أي في العهد الوطني الاستقلالي الذي كان يمثل الشعب فيه حكومة وطنية ومجلس نيابي منتخب .

والمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان ظلت أربعة وعشرين عاماً ١٩٢٠ - ١٩٤٤ تدار من قبل الافرنسيين مباشرة ويشرعون لها فلم يكن البطرك يرى في هـــذا خطراً على لبنان ولا محلاً للاعتراض والأحتجاج فضلاً عن أنه كان راغباً كل الرضاء عن السلطات الانتدابية التي كانت تجمع في يدها كل شيء وتلعب في كل شيء في لبنان وتحجب عنه أي معنى من معاني الاستقلال الناجز ، ولكنه لم يلبث أن رأى الخطر ماثلاً الآن لأن يد فرنسا قد ارتفعت وشيئاً من الاتحاد الاقتصادي الذي فيه حياة لبنان بالدرجة الأولى قد ظل قائماً بينه وبين سوريا مما يمت الى ما نحن في صدد تقريره !

١ - تنقل النبذة التالية عن جريدة الحياة عدد ٢٤٦ وتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٧ فيصدد زيارة رئيس الجمهورية والوزارة للبطرك بمناسبة عيد الجلاء ، فالبطرك دعاهم الى وليمة غداء في تمره ليهنئهم بالجلاء وتقاً للتقاليد التي ذكرناها . وفي النبذة صورة ثانية مما تقدم :

« لبى فخامة رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء والوزراء دعوة غبطة البطريرك المـــاروني

ولقدزار البطرك الماروني باريس عام ١٩١٩ فاستقبل فيها استقبالاحافلا ورسمياً وتبادل الرسائل مع كليمنصو في صدد كيان لبنان وصلة فرنسا الوثقى به فكان ذلك تدشيناً لما اخذ يجري بعده مما ذكرناه من تقاليد .

ولقد كان قوة تأثير فكرة كيان لبنان وصفته المسيحية أو المارونية والخوف من إنغماره بأكثرية إسلامية أن صار بعض زعماء الموارنة ورؤسائهم الدينيين يعتنقون فكرة فائدة إنسلاخ المناطق العديدة التي ضمت إلى لبنان والتي يسكنها أكثرية إسلامية ساحقة والتي ذكرناها في مناسبة سابقة ليصبح لبنان وطناً قومياً مسيحياً يأوي اليه من يشاء من نصارى سوريا أيضا ، ويصرحون بها أحيانا ، بل لم يتورع أحد كبار رؤسائهم الدينيين وهو المطران مبارك الذي يتمتع بنفوذ عظيم في طائفته عن تقديم مذكرة إلى لجنة تحقيق فلسطين رحب فيها بقيام وطن قومي يهودي في فلسطين متحدياً كل عربي على وجه الارض إلى جانب وطن قومي مسيحي في لبنان وتحالف الشعبين في سبيل حماية أنفسهم من غزوات المجاورين - أي العرب ! - ومطامعهم وكان ذلك في سنة ١٩٤٦ أي في العهد الوطني الأستقلالي ... ومما يذكر أن هذه المذكرة وبعض تصريحات مثيرة من بابها أثاوت الاوساط العربية والحكومة في لبنان وشنت بعض الصحف وبعض النواب حملة عليه فانبرت صحف مارونية وإفرنسية تدافع جهرة عنه وعن حريته في الاعراب عن رأيه ورأي طائفته ، ثم سافر في رحلة إلى باريس فلما عاد استقبل استقبالا عظيماً حتى كانت الزينات منصوبة له من باب بيروت إلى مقره في إحدى الضواحي وتزاحمت على السلام عليه الوفود للتبرك منه ونظمت القصائد والقيت الخطب الاشادة بوطنيته وشجاعته وجهاده ... ومن تمام الصورة أن المجلس النيابي اللبناني كان منعقداً في ذلك النهار يتناقش في الخطر العظيم الذي يهدد لبنان وشعب لبنان من جرّاء انتصار الغزوة الصهيونية .

فذهبوا الى الصرح البطريركي حيث اقيمت لهم مأدبة غداء فاخرة . وقد غادر الموكب بيروت في الساعة الواحدة من بعد ظهر أمس واقيمت لهم اقواس النصر في الطريق وكان السكان يستقبلونه بالتصفيق اينما مرّ . وقد رحب بهم على مدخل الصرح أصحاب السيادة المطارنة ثم استقبلهم غبطة البطريرك في بهو الدار استقبالا حاراً . ومن ثم دلفوا الى المائدة المعدة لهم فوقف البطريرك والقى خطاباً هنأ فيه فخامة رئيس الجمهورية واعضاء الحكومة بعيدي رأس السنة والجلاء وذكر الجهود المباركة التي بذلها ويبذلها فخامة اللبناني الأول في سبيل تحرير بلاده وايصالها الى المركز المعد لها بين الأمم الراقية. ثم شرب نخب المدعوين ونخب لبنان ودعا لفخامة الرئيس بالتوفيق والبركة . ورد عليه فخامة الرئيس بخطاب عدد فيه مواقف البطريركية في مختلف الظروف والازمات من اجل الاستقلال ومساعيها للحصول عليه وأثنى على موقف غبطة البطريرك الحالي الذي كان وما يزال عدو الاستعمار الاجنبي بمختلف الوانه. الخ

استغلال الافرنسيين الطائفية في خططهم ومناوراتهم وأثره في الطوائف الاسلامية

ولقد ظلت الدعاية الأفرنسية المغرية التي أخذت تبث في الدروز والشيعيين في العهد الفيصلي ضيقة نطاق الاستجابة طيلة قيام هذا العهد ، كما ظل نشاط هذه الدعاية واهتمامها موجهاً بقوة في الدرجة الأولى إلى الطوائف المسيحية وظلت الاستجابة اليها فيها بما يتسق مع الميول والرغائب والمطامح والذكريات لكل من الفريقين . غير أن انهدام العهد الفيصلي جعل الطوائف الاسلامية بما فيها المسلمون تقف أمام السلطات الافرنسية وجهاً لوجه دون أمل وسند .

ولقد استغلت هذه السلطات منذ البدء الطائفية في السكان وحرصت على تدعيمها لما تعرفه من التنافس والتناظر بينها منذ أمد بعيد ، فجعلت وظائف الحكومة ومراسمها واعتبارات الحياة العامة من مختلف مناحيها قائمة عليها ، وكان هذا من اشد الأعمال الافرنسية نكاية وبعد مدى في حياة لبنان والحركة العربية فيه . وقد قواه الافرنسيون في سكان لبنان ، فقوي قوة عجيبة حتى شغل الحيز الأول في النفوس ، لان فيه إرضاء شهوات ومطامع الافراد الذين يملأون عادة ميدان الحركة والحياة العامة في الامة العربية في معزل عن الشعب الغافل المستغل ، وكان من قوته أن البطرك الماروني جعل الاحتفاظ به واجبا لا مندوحة عنه لحفظ التوازن بين السكان ، ونادى به في كل مناسبة ودافع عنه بكل شدة هادفا بهذا الى الهدف الذي ذكرناه قبل وهو إبقاء صفة الاكثرية للطائفة المارونية وإبقاء المارونية صفة لرآسة الدولة في لبنان .

فكان هـــذا وذاك بما اضطر أبناء الطوائف الاسلامية إلى مجاراة الموقف والاهتمام بأنصبتها في تلك الوظائف والمراسم والاعتبارات على الأساس الطائفي حفظاً لكيانها ومصالحها . واستجاب إلى هـذا بنوع خاص المستوظفون والوجهاء وأصحاب الثروات والزعامات من أبناء هذه الطوائف الذين رأوا في هذا الاساس باباً وتوطيداً للوجاهة والكسب ، وغدت هذه الامور تشغل أفكارهم وتدفعهم إلى التزلف للسلطات من جهة وبث الدعوة بين أبناء طوائفهم إلى المطالبة بحقوقهم

وأنصبتهم من جهة أخرى .

وهكذا وجدت الدعاية والتوجيهات الافرنسيـــة المغرية والاستعمارية معاً صداها في هذه الطوائف ، واستطاعت أن تثير فيها العصبية الطائفية ، وأن تـكاد أن تجعلها تستغرق في اهوائها ومنافساتها ويرصد بعضها بعضا ، وتفسد ما بينها من صلات الاخاء والتشارك في العواطف والمفهومـــات الوطنية والقومية ، وكادت الروح القومية العربية أن تمنى بشيء من الفتور بين أنصارها الطبيعيين الذين اندمج كثير منهم في فكرة كيان لبناني مستقل والتمسك بها بل والدفاع عنهـا وكاد يغدو قصارى همهم الدفاع عن حقوق طوائفهم وكفالة مصالحهم ومنافعهم وكرامتهم في نطاقها الضيق .

- ٧ -

سير الافرنسيين في لبنان كسيرهم في سوريا

ولم يكن سير الافرنسيين في لبنان ليختلف عنه في سوريا في العهد الانتدابي ، بل كان هنا أقوى أثراً وأبعد مدى وأيسر سيراً بسبب ما كان من الانسجام بينهم وبين أكثرية السكان ، وبسبب الطائفية المقيتة التي قووها وجعلوها عماد كل شيء ، وضمنوا بها اكثر رؤساء الطوائف وزعمائها وناهيها والطامحين فيها ؛ حتى لقد رأى بونسو أن يقول في تقريره أمام لجنة الانتدابات عام ١٩٣٠ إن لبنان راض عن نظام الانتداب ومندمج فيه وإن سوريا فقط هي التي ترفضه وإنه ليس هنـــاك مشكلة من هذا النوع بين فرنسا ولبنان !

ولقد كان الموظفون الافرنسيون يملأون دوائر الحكومة اللبنانية ومصالحهـا فضلاً عن إدارتهم المباشرة للمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الباب الأول ؛ وكان المستشارون الافرنسيون أصحاب الشأن الأول في أعمـال الحكومة ومشاريعها ومصالح أصحاب المصالح فيها ، وكان الموظفون الافرنسيون يتقاضون المرتبات والعلاوات الضخمة ، وكانت الرشاوى والمحسوبيات والشفاعات هي الوسائل الناجعة الى قضاء المصالح والمطالب ، وكان المندوب السامي هـــو

المشرع والمنفذ والمرجع الأول والأخير في كل أمر ، وقد اتخذ بيروت مركزاً دائماً له وأحاط نفسه فيها بمظاهر السلطان الفخمة وابتنى قصراً ذا حدائق غناء لا يقل في ابهته ومراسمه عن قصور الملوك ، وكانت الشفاعات والمحسوبيات والرشاوى تعمل عملها الناجع كذلك في دار المفوضية التي كانت تتدخل في كل شيء أيضاً حتى في تعيين صغار الموظفين بل والخاتير والنواطير ، وغدا المصرف اللبناني السوري الذي أنشيء في بيروت وأخذ يصدر أوراق العملة قبل انهدام العهد الفيصلي كما غدت الشركات الافرنسية والمصالح الافرنسية والتجارة الافرنسية هي الحاكمة المسيطرة على اقتصاد لبنان وثروته ومشاريعه ، والمتمتعة بالحمايات المتنوعة على حساب مصالح وشركات وتجارة لبنان وأهلها .

- ٨ -

أثر سوء الادارة والاستغلال في اهل لبنان ومصالحهم وعواطفهم

ومن الجدير بالقيد أنه بالرغم مما قلناه من انسجام أكثرية سكان لبنان في الانتداب الافرنسي واندماجها في التوجيهات والتلقينات والدعايات الافرنسية وإساغتها الحكم الافرنسي المباشر تقريباً بهدوء وسكون بل برضاء فان ما كان من تميز الاقتصاد الافرنسي وتأثيره في تعطيل مصالح أهل البلاد وشل صناعاتهم وتجاراتهم وشركاتهم أولاً وما كان من صلف الافرنسيين وحمقهم وغطرستهم الشديدة القظيعة ثانيا ، وما كان من سوء استغلال الموظفين الافرنسيين لمناصبهم وسلطاتهم والاستغراق في رغبة الاثراء بأي طريق وإقترافهم بسبيل ذلك كل عسف وشذوذ ثالثا ، أحدث رد فعل شديد في نفوس كثير من هذه الأكثرية وحتى في نفوس كثير من الموارنة حيث أدرك الواعون من مختلف الطوائف نظرة الازدراء التي ينظر الافرنسيون بها الى الجميع ، واستخفافهم بهم وترفعهم عنهم ، وحيث رأوا أن تظاهر فرنسا بحب لبنان وأهله وإشادتها بتقاليدها فيه ودعايتها الطويلة العريضة في صدده لم يكن لسواد عيون لبنان وأهله وإنما كانت وسيلة لبسط السيطرة على لبنان وسائر بلاد الشام بطريقه وجعلها مجال فرنسا الاستعماري على حساب مصالحها

واقتصادياتها ، وأن الروح الاستعمارية والاستغلالية والمتغطرسة هي المسيطرة على السياسة الافرنسية من جهة والمسيرة للافرنسيين كأشخاص واتهم الفرصة من جهة اخرى .

ولقد قاسى أهل لبنان صغيره وكبيره من جراء ذلك الشيء الكثير من العنت والمهانة والارهاق وتعطيل المصالح واخفاق الشركات والصناعات المحلية فضلاً عن سوء الادارة وفساد الجهاز الحكومي وامتلائه بالمحاسيب والجواسيس والآلات والادوات الضارة المستغلة بدورها ، وسيطرة الرشوة على كل شأن من شؤون الناس مما أوجد فيهم تياراً من الاستياء والتذمر والخيبة والألم كانت تظهر آثاره في بعض الصحف غير المأجورة وفي بعض المناسبات ، كما كان من عطف كثير منهم على حركات سوريا الوطنية والثورية حتى خشي الافرنسيون عواقب ذلك فجردوا المسلمين السنيين والشيعيين والدروز مما قد يوجد في ايديهم من سلاح أثناء الثورة السورية الكبرى ، وكما كان من حركات اهل المناطق المنضمة للبنان بسبيل الانضمام الى سوريا والمطالبة بالوحدة السورية على ما ذكرناه في مناسبات سابقة ، بل لقد كان يندمج في هذه الحركات أحيانا غير سكان هذه المناطق وغير مسلمين أي فئات من الطوائف النصرانية وخاصة الأرثوذكس ولم يكن يندر ان يكون بينها موارنة وكاثوليك كما جرى في عام ١٩٣٦ بمناسبة حركة تجديد المعاهدة على أساس جديد استقلالي بعض الشيء اسوة بسوريا حيث اجتمع فريق من نابهي مختلف الطوائف في بيروت وبحثوا في ما آل اليه حال لبنان فرأوا ان الوحدة السورية خير علاج لذلك . وقد سبق هذا حركة قوية في بيروت وصيدا وطرابلس الشام بالمطالبة بالوحدة السورية حينما اخذت السلطات الافرنسية تهيء وفداً بإسم وفد مفاوضة ليذهب الى باريس ويوقع على معاهدة الاستقلال أسوة بما تم لسوريا حيث رفع حملة الفكرة العربية وخاصة الطوائف الاسلامية اصواتهم بهذا الطلب وقامت المظاهرات الصاخبة احتجاجا على اقصاء ممثلي المسلمين الحقيقيين عن الميدان وادخال بعض المنافقين المتزلفين لفرنسا منهم ، وأدت الى اشتباكات دموية في مدينتي صيدا وطرابلس وأضربت المدينتان إضراباً طويلا استمر في طرابلس نحو ثلاثة اسابيع ، وكما جرى شيء من هذا في عام ١٩٤٠ حيث اتفق فريق من زعماء

الطوائف المختلفة على منهج وطني قومي عربي يهدف الى الاتحاد مع سوريا ثم مع الاقطار العربية الاخرى ، وكان هذا بمثابة نواة لانضمام لبنان الى جامعة الدول العربية ، ويمكن ان تعد حركة الحزب القومي السوري الذي سبقت الاشارة اليه والذي اندمج فيه كثير من شباب لبنان على اختلاف طوائفه وخاصة طوائفه النصرانية من هذا القبيل من ناحية ما، حيث كانت تهدف الى وحدة سوريا الطبيعية واستقلالها والتمرد بشكل من الاشكال على وضع لبنان وحالته وعزلته وفنائه في فرنسا ، وهذا غير الجمعيات اللبنانية العديدة او الجمعيات العربية او الجمعيات السورية التي كانت تضم رجالاً وزعماء ونابهين لبنانيين من مختلف الطوائف والتي كانت تبذل نشاطها خارج لبنان وفي مصر والمهاجر واوروبا ضد الاستعمار والانتداب الافرنسي والتصرفات الافرنسية وفي سبيل الاستقلال والوحدة السورية مما يدل على ان احرار لبنان الذين كانوا خارج نطاق السيطرة والتأثير كانوا استقلاليين واتحاديين وقوميين .

- ٩ -

أشكال الحكم الوطني المزيف في لبنان واستناداتها وطرائقها

اما الحكم الوطني فقد كان لبنان وظل الى عهده الوطني عام ١٩٤٣ محروماً من حقيقته حتى حينما اراد الافرنسيون ان يتظاهروا في مسايرة الرغبة فيه حيث كان مظاهرة لا اكثر ، يبقى فيه الافرنسيون اصحاب الشأن والسلطان الحقيقي. وكانت هذه الالوان من الحكم المزيف تقوم تبعاً لما يقوم من مثله في سوريا نتيجة للحركات والمطالب والثورات التي لم تكن تقف وان كانت تشتد حيناً وتضعف حيناً ونتيجة كذلك لفكرة التجارب والحلول النصفية . فكان الافرنسيون كلما تراءى لهم اقامة شكل من اشكال الحكم المحلي اوكلما رأوا ضرورة اوفائدة في التنفيس او المسايرة او التحذير واقاموا في سوريا شكلاً من اشكال الحكم المحلي او لوناً من الوان الحكم الوطني عمدوا الى اقامة مثله في لبنان قبله او عقبه .
فحين أعلن لبنان الكبير جعلوا حاكمه العام وطنياً مارونيا على ما ذكرنا قبل

وكانوا أحدثوا قبل ذلك في سوريا نظام رئيس الدولة او الحاكم العام في دويلاتها . وحينما اعيد نظام الدولة السورية الموحدة ومجلس الوزارة الادارية بعد اخفاق تجربة التجزئة والدويلات قام مثل هذا النظام في لبنان ، وحينما أخذ بونسو يسير في خطواته في سبيل وضع دستور سوري عقب خمود الثورة الكبرى ، وقيام حكومة نيابية تتعاقد مع فرنسا لتحل المعاهدة محل الانتداب على ما كان يطالب به السوريون فعل مثل ذلك في لبنان فاصدر دستوراً له وأجرى انتخابات نيابية وقام نتيجة لذلك جمهورية لبنان الاولى ؛ مع التنبيه على أنه لم ير ضرورة لانتخاب جمعية تأسيسية تضع الدستور كما كان الحال في سوريا حيث كان يستساغ في لبنان كل ما يفعله الافرنسيون دون اهتمام بالشكل والمبدأ ، حتى لقد احتوى دستور لبنان الافرنسي مواد عجيبة خلدت طابع الانتداب الافرنسي الصريح كما خلدت صفة الطائفية وأساسيتها في توزيع الوظائف ، وكانت الراية التي تقررت في هذا العهد الراية الافرنسية وفي قرنة من قرنها الارزة بما ينطوي فيه ذلك الطابع الصريح المستساغ ، وقد نفذ دستور لبنان قراراً بما كان من انتخابات نيابية وقيام الجمهورية في حين طال الاخذ والرد بين بونسو وبين رجال سوريا في صدد الدستور ولم يصدر على الوجه المشوه الذي صدر إلا بعد سنتين ثم لم يطبق وتجري وفاقه الانتخابات النيابية وتقوم الجمهورية السورية الاولى إلا بعد سنتين ثانيتين على ما ذكرناه في الباب الاول ، ومما جرى ان الافرنسيين مع كل ما كان من استساغة لبنان لخطواتهم وسياستهم تدخلوا في الانتخابات النيابية المذكورة تدخلا فظيعاً بحيث لم ينجح إلا مرشحوها ، وسقط غيرهم الذين لم يكونوا في عداد هؤلاء المرشحين بالرغم من أنهم ليسوا أعداءً أو مضادين لسياستهم وتوجيهاتهم .

ولما عرض على سوريا في عهد جمهوريتها الأولى عام ١٩٣٢ المعاهدة التي وضعت لتقوم مقام صك الانتداب والتي كان فيها الكثير من محتويات هذا الصك والالتزامات التي يفرضها عرض مثلها على لبنان حكومة ومجلساً فأقرت بدون عناء مع ما كان من رفض سوريا لها .

ولقد كان في مطلع هذا العهد حادث يدل على ما كان ينظر اليه الافرنسيون من نظرة الازدراء والسخرية والاستهتار إلى ما يقوم في لبنان من أوضاع دستورية

ويتخذ من قرارات نيابية وهو ان الشيخ محمد الجسر المسلم ولم يكن ضد الانتداب بل يصح أن يقال عنه انه من موالي فرنسا قد رشح نفسه في انتخابات رآسة الجمهورية واستطاع أن ينال الاكثرية ، فما كان من المندوب السامي إلا أن الغى الانتخاب والمجلس النيابي والدستور معاً بجرّة قلم لأنه كان يتوخى ان يكون هـذا المنصب لمسيحي ماروني ولم يكن الدستور ينص على ذلك ، ثم عدّل الدستور وجـــدد الانتخابات النيابية بجرة قلم كذلك وتدخل بصورة سافرة ومخجلة حتى تم انتخاب المرشح الذى أراده !! .

ولما ثارت دمشق عام ١٩٣٥ وانتهى الأمر بالمعاهدة الجديدة التي قامت بها في سوريا الجمهورية الثانية والعهد الوطني عام ١٩٣٦ نتيجة لمفاوضات باريس جرى مثل هذا في لبنان حيث أرسل وفد الى باريس ووقع فيها على المعاهدة وقامت حكومة جديدة وجرت انتخابات نيابية جديدة وأتوا بأميل ادّه هذه المرة رئيساً للجمهورية الثانية . ولما سحب المندوب السامي بيو المعاهدة السورية وأعلن عودته الى ممارسة صلاحياته الانتدابية فعل مثل ذلك في لبنان ، ولما انهارت فرنسا وأعيد شكل الوزارة في سوريا من قبل الجنرال دانز ممثل فيشي جرى مثل ذلك في لبنان ، ولما قامت الجمهورية الثالثة الانتدابية في سوريا بعد الغزوة الديغولية الانكليزية عام ١٩٤١ قام مثلها في لبنان . وقد قام كاترو هنا أيضاً بحركة استفتاء بهلوانية كما فعل في سوريا حيث عين بعدها الفرد نقاش رئيساً للجمهورية الثالثة وأعلن استقلال لبنان في حفلة عامة خطب فيها هو والرئيس نقاش ومنّ في خطابه على لبنان بمنحه الاستقلال من قبل فرنسا كما فعل في سوريا .

ومما جرى وفيه الدلالة كذلك على تلك النظرة أن كاترو حاول أن يظل يمارس السلطات الانتدابية في لبنان قائلاً إن فرنسا الحرة قد ورثتها مع أن فرنسا الحرة لم تكن إلا حركة تحريرية تتمثل في لجنة ولم يكن قد اعترف بها كحكومة فرنسا الرسمية ، ومع أن كاترو صرح في خطابه الذي ألقاه في حفلة إعلان الاستقلال أن لبنان أصبح دولة مستقلة ذات سيادة . وقد احتج الرئيس النقاش على كاترو بسبب محاولته فما كان من هذا إلا أن أقاله وعين الدكتور ثابت محله !! وقد حاول هـذا بتحريض الافرنسيين تكثير عدد النواب المسيحيين حتى يكونوا اكثرية كبيرة

مسيطرة فأثار فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين اشتد التوتر بين الطائفتين بسببها وكاد يقع وقائع أليمة لولا تدخل الانكليز وحسمهم الموقف بحل وسط مما حمل الدكتور ثابت على الانسحاب فحل محله بترو طراد .

وهكذا يصح أن يقال إن ما كان يجري في لبنان من تجارب الحكم وما أقيم فيه من ألوان وطنية لهذا الحكم على ما كانت عليه من زيف إنما كان تبعـاً لما كان يجري في سوريا وكنتيجة للحركات والمطالبات والثورات الوطنية التي لم تكن تقف فيها ، ومكافأة على هدوء لبنان وانسجامه وبالأصح انسجام أكثريته مع فرنسا وعدم اندماجه بما كان يقوم في سوريا مـن تلك الأعمال التي كان الافرنسيون يسمونها أعمال شغب من عناصر شغب . حيث لم ير هؤلاء من المنطق ان يقوم في سوريا نتيجة لهذه الأعمال لون من الحكم الوطني ولا يقوم مثله في لبنان الهادىء العاقل المنسجم .

وباستثناء ما ذكرناه قبل قليل من موقف الرئيس النقاش عام ١٩٤١ وجرأة الشيخ الجسر على ترشيح نفسه في دور الدستور الأول ١٩٢٨ ثم باستثناء ما كان يقوم في الأوساط الاسلامية والمدن الاسلامية المنضمة الى لبنان بالرغم منها من حركات احتجاجية تصل أحياناً الى حد الثورة على نطاق ضيق مما ذكرناه سابقاً فانه لم يكد يقع في لبنان وبتعبير أصح من قبل جمهرة النصارى وموارنتهم أي رد فعل حيوي له صلة بالأهداف والمبادىء الوطنية الاستقلالية لكل ما كان يقوم من تجارب في الحكم تصل احياناً الى الحكم الافرنسي المباشر ممثلاً في حاكم افرنسي عام أو يجري فيه من تبديل وتغيير وإلغاء كما كان يقع في سوريا ، فقد كان يستساغ كل ما يقع كأنه شأن عادي يقع في حدود أوضاع دستورية موطدة ، وكان يوافق على كل ما يقترح ويطلب وقد رأينا أنه لما طلب من مجلس لبنان التمثيلي عام ١٩٢٣ إقرار توسيد منصب الحاكم العام للقومندان ترابو وافق على ذلك دون ما عناء . بل لقد وقع حادث عكسي طريف حيث تآمر فريق مـن النصارى بزعامة شخص اسمه الدكتور شلفون ضد عهد المعاهدة الاستقلالية عام ١٩٣٦ - ١٩٣٨ هادفاً إلغاء هذا العهد وقيام حكم افرنسي مباشر في لبنان ! وكان ذلك في أوائل عام ١٩٣٨ حيث خطا الدكتور ورفاقه خطواتهم الأولى



صاحب الفخامة الشيخ بشاره الخوري
رئيس الجمهورية اللبنانية



رياض الصلح يلقي بيانه الوزاري الاول



عرض عسكرى في العهد الوطني بلبنان

بحركة تختيم مضابط تطالب بذلك ، ثم خطوا خطوتهم الثانية بعد قليل لتحقيق هذا الهدف بالقوة ، وكان عدد المتآمرين نحو ثلاثة آلاف مزودين بالسلاح والعتـــاد ، وكانت خطتهم احتلال دوائر الحكومة واعتقال الوزراء والنواب وإعلان إلغاء الحكم الوطني وعدم رضاء لبنان عنه وتفضيله الحكم الافرنسي المباشر عليه . غير ان الحكومة اكتشفت الحركة قبل نضوجها واستطاعت أن تقضي عليها في ١٧ مايس ١٩٣٨ حيث اعتقلت الدكتور وعدداً كبيراً من المتـآمرين معه وصادرت ما لديهم من أسلحة ووثائق . وهذا من عجائب الحوادث الأليمة التي كانت نتيجة لدعايات فرنسا وتغلغلها في لبنان والتي انقلبت بها المناهج أبشع انقلاب وأغربه .. ومن تمام العجب المؤيد لما قلناه قبل قليل من أن حركة شلفون في تختيم المضابط كانت تجري مكشوفة وتذكر في الصحف ويتحدث عنها في المجالس دون مـا غضاضة ولا سخط ، كأنه لم يكن حكم استقلالي وطني قائم ، وكأنه لم يكن في مفهومات الاكثرية اللبنانية في هذا الوقت أي فارق كبير بين قيام حكم وطني استقلالي يقوم على معاهدة وبين حكم افرنسي مباشر ، وكأن الثورة في سبيل هذا ضد ذاك يصح أن تكون من الأعمال الوطنية أو السائغة في حوصلة هذه الجمهرة ...

ومما لا ريب فيه أن هذه الحركة لم تكن لتخلو من أصابع افرنسية بدليـــل الهدف والكثرة والسلاح والحركة الجهرية الاولى . والراجح أنها كانت من قبيل ما كان الموظفون الافرنسيون يقومون به في سوريا من مختلف الدسائس اللئيمة لاحباط العهد الوطني مما كان من جملته تخويف الدروز والعلويين ونصارى الجزيرة من العهد الاستقلالي وتشجيعهم على التمرد عليه بل ودفع عناصر الشغب منهم الى استعمال السلاح ضد ممثليه وموظفيه وفاقا لخطة عامة مرسومة في باريس من قبل الأوساط الاستعمارية والعسكرية التي كانت ضد قيام عهد المعاهدة عـلى الأساس الذي قام عليه على ما ذكرناه في الباب السابق ، مع ما كان من فارق عظيم بين سوريا ولبنان ، حيث كان على رأس عهد لبنان أصدقاء فرنسا والفانون فيها الذين يرون فيها الأم الحنون الحامية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال ، وحيث ظل ممثلوها يتمتعون كذلك بكل ما يتمتعون به من جاه ومال وسلطان وأمر ونهي دون ما تشاد ولا عناء ولا تجهم ولا اعتراض .

ولكن الطبيعة الاستعمارية والاستغلالية الافرنسية كانت أشد تغلغلاً في الافرنسيين من ملاحظة ذلك وحملهم على هضم التخلي عن السيطرة الشاملة ولو في الظاهر ...

سير الافرنسيين في لبنان مثله في سوريا

هذا، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن كل ما كان في سوريا من الافرنسيين في عهد الانتداب ثم في أثناء الحرب الى قيام العهد الوطني الثاني من سوء استعمال وسوء استغلال ومطاردة من يوصفون بأعداء فرنسا وملء المعتقلات بهم أثناء الحرب وتشريد باقيهم قد جرى مثله في لبنان . وقد اشترك الانكليز الذين غزوا لبنان وسوريا مع الديغوليين في هذه المطاردة والاعتقالات والتشريدات في لبنان كما اشتركوا فيها في سوريا ، ولا نرى حاجة الى الافاضة فيه هنا مكتفين بما قلناه فيه في الباب الاول .



الفصل الثاني

العهد الوطني

١٩٤٣ — ١٩٤٦

- ١ -

الحياة النيابية الجديدة وانبثاق العهد الوطني الاول

ان العهد الذي يصح ان يسمّى عهداً وطنيا في لبنان قد قام في عام ١٩٤٣ كما قام مثيله في سوريا وبنفس العوامل والخطوات التي انتجته هنـاك ، حيث تقرر بالتفاهم بين الانكليز والافرنسيين او بالأحرى بضغط الانكليز بالنسبة للبنان خاصة تحقيقا لتصاريحهم عن غاية الحرب التحريرية اعادة الحياة النيابية الدستورية وامتاع لبنان وسوريا باستقلالها وسيادتها ، وقد جرت الانتخابات في منتصف عام ١٩٤٣ وبعد قليل من انتخابات سوريا جريا على العادة في متابعة لبنان لخطوات سوريا في احداثه . وقد كانت روح الجو والظروف التي املت هـذه الخطوة مشجعة ، وكانت دعوة العروبة قوية الصوت في البلاد العربية والمشاورات في سبيل الوحدة العربية جارية في مصر فأفاد كل هذا انصار العروبة والاستقلال في لبنان وامدهم حيوية ، وكان مـن نتائج ذلك ان فاز في الانتخابات الشيخ بشاره الخوري ورياض الصلح وفريق كبير مـن جماعاتهم الذين كانوا يستشعرون بمعنى الحرية والاستقلال الصحيح والفكرة العربية قليلاً او كثيراً بالرغم عن مابذله الافرنسيون من جهود وتوسلوا به من وسائل متنوعة من رشاً وارهاب واغراء ودس في سبيل فوز انصارهم لضمان استمرار الحال في لبنان على الاقل عـلى ما يرغبون ، ولقد أساءتهم النتائج الى درجة كبيرة واتهموا الانكليز بها .

واشتد استياؤهم وحنقهم بل وتشاؤمهم حينما تم انتخاب الشيخ بشاره رئيسا للجمهورية التي تعد في سلسلة العدد الجمهورية الرابعة ، واختيار هـذا رياضا الصلح رئيسا للوزراء ، فقد كان رياض بمثابة الرمز الاول للحركة العربية في لبنان ومن رجالها القدمين الذين ناضلوا نضالا متصلا مدى ثلاثين عاما في سبيلها وقضى اكثر مدة العهود الانتدابية مشرداً يناضل ويكافح في اوروبا ومصر والبـــلاد العربية الاخرى ، وكان الافرنسيون يعدونه عدوهم الاول ، وكان له ضلـع في حادث قرار مجلس ادارة لبنان عـام ١٩٢٠ ومحاولة فرار اعضائه الذين وقعوا القرار ، وهو الحادث الذي اثار الافرنسيين أيما اثارة اذ كان يعني تمرد لبنان الممثل في مجلس ادارته على الانتداب الافرنسي ، وكان ذلك في شهر ايلول من عام ١٩٤٣

حيوية الحركة العربية في هذا العهد

ولقد كان العهدالجديد فاتحة خير للحركةالعربية في لبنان حيث اخذ انصارها يتنفسون الصعداء ويستعيدون حيويتهم وآمالهم ونشاطهم ، واخذت الصحف التي يديرونها تدعو الى تدعيم العهد الجديد ومناصرته ليسير قدما في توطيد حرية لبنان واستقلاله وخلاصه من الكابوس الاستعماري الافرنسي الشديد الذي جثم على صدره والذي كاد ان ينطبع بطابع الخلود فيه ، واظهار وجهه العربي الذي يمثله في الحقيقة اكثر من نصف سكانه .

وقد صدف ان كانت دعوة العروبة في هذا الظرف تشتد قوة وصوتا والآمال تتضاعف في مستقبلها والمشاورات في سبيل الوحدة العربية تجري في مصر فزاد هذا في حيوية العهد الجديد وقوته وآماله .

- ٢ -

توطيد الاستقلال وتعديل الدستور وعروبة ابنائه في هذا العهد

ولقد كان من اهم ما اهتم له رئيس الوزارة إزالة كل ما يناقض استقلال لبنان

وسيادته . وقد اعلن رئيس الوزارة في البيان الوزاري الذي القاه في مجلس النواب في ١٧ ايلول من عام ١٩٤٣ عزم وزارته على توطيد استقلال لبنان وسيادته الكاملة ، ونيته في تعديل الدستور ورفع المواد التي تتناقض مع ذلك ، وحمل حملة شديدة على الطائفية وذهنيتها ، واعلن عزمه كذلك على العمل على توطيد بنيان امة والقضاء على هذه الذهنية ، وقال ان لبنان متمسك بحدوده واستقلال كيانه ، وانه على هذا الاساس عربي يمت الى العروبة بأوثق المظاهر والصفات ، وانه يجب ان يتعاون مع شقيقاته اشد التعاون على ذلك الاساس ، وانه يعتقد ان هذه الشقائق تريد فقط ان لا يكون لبنان مقراً للاستعمار ولا ممراً له ، وانه سيحقق هذه الرغبة فيوطد للبنان عزته وكرامته ، وانذر كل موظف يسير على ما كان يسير عليه بصدد مرجعية غير مرجعية الحكومة اللبنانية وتلقي وحيه من غيرها ، واوجب استعمال اللغة العربية وحدها في مصالح الحكومة ، وقطع على نفسه عهداً بتنفيذ هذا المنهج وعدم البقاء في الدست اذا ما ظهر له استحالة ذلك . فقوبل البيان بالهتاف الطويل من اعضاء مجلس النواب الذين كانت اكثريتهم مسيحية ، وكان نواب الموارنة منهم اكثر نواب الطوائف الاخرى عدداً ، كما شارك آلاف المستمعين في داخل البرلمان وخارجه في هذا الهتاف وسيطر عاصفة من الحماس والابتهاج والاغتباط ، ونالت الوزارة ثقة تكاد ان تكون اجماعية على اساسه ، حيث لم يشذ عن ذلك الا اميل اده صاحب فكرة الوطن القومي المسيحي اللبناني والفاني في السياسة الافرنسية .

براعة رياض في بيانه وأثرها

ولقد كان رياض بارعاً في إعلانه تمسكه بحدود لبنان وكيانه وتعاونه مع الاقطار العربية الاخرى بصفته قطراً عربياً على هذا الأساس ؛ حيث ارضى غير المتعصبين من عقلاء النصارى وخاصة موارنتهم الذين كان اشد ما يخشونه من الحركة العربية ان يندمج لبنان في وحدة سورية او وحدة عربية فيفقدوا شخصيتهم ويعودوا اقلية مهيضة كما كانوا في عهد الدولة العثمانية . وقد حرصت الدعاية الافرنسية على

بث الخوف الدائم من هذه الناحية خاصة وتصويرهم العرب والاسلام الذي يدين به اكثرية العرب العظمى لهم بعبعهم الاكبر ليضمنوا تمسكهم بهم وفنائهم فيهم وتطلعهم الى فرنسا كحامية لهم ؛ كما كانوا يخشون أن تؤدي قوة الحركة العربية الى انسلاخ المناطق الواسعة التي ضمت الى لبنان القديم فيعود صغيراً لايستطيع ان يقوم بأوده ولا تكون له إمكانية ما إلى الحياة بمفرده ، على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . ونقول استطراداً ان رجال الحركة العربية قد لمسوا هذه النقطة الحساسة فيهم وسهولة نفوذ الدعاية الافرنسية منها اليهم فقرروا منذ البدء مراعاتها ، وكان أول تسجيل رسمي منهم لها في قرارات المؤتمر السوري العام سنة ١٩١٩ حيث قالوا ان للبنان الحق في اختيار شكل الحكم الذي يرغب فيه شريطة ان يكون في منأى عن الاستعمار ؛ ثم ظلوا يراعونها في كل مناسبة، وآخر ماكان من هذا ميثاق جامعة الدول العربية الذي الحق به ملحق خاص بلبنان بسبيل توكيد احترام كيان لبنان وحدوده كذلك فان رياضاً في براعته ارضى أنصارالعروبة لأن المهم عندهم ان يظهر وجه لبنان العربي وأن يندمج في الحركة العربية العامة ، وأن يكون في منأى عن الاستعمار الافرنسي .

ولقد كان البيان الذي كان بطبيعة الحال بالتطابق مع رئيس الجمهورية الماروني وأعضاء الوزارة الذين ينتسبون الى مختلف الطوائف والمقابلة الحارة التي قوبل بها من النواب والشعب مفاجأة عظمى للعالم العربي الذي كان يرى في لبنان المعصم المنيع لفرنسا وسلطانها الاستعماري في الشرق العربي ، واعلاناً صارخاً لتمرد ممثلي الطوائف اللبنانية على هذا السلطان الذي استهتر طيلة خمس وعشرين عاماً بمصالح لبنان وكرامة اهله وخدعهم بالتمويه والتضليل لمآربه وجشعه واستغلاله ، وبرهاناً على ما كان من تطور في الأفكار اللبنانية ، وصدىً لما بدا من النشاط العربي ومشاورات القاهرة في سبيل الوحدة او الاتحاد العربي والآمال القومية العربية .

موقف الافرنسيين من التعديل وعدم ادعوائهم بالواقع

ولقد كان ينبغي أن يرى الافرنسيون وقد اصبحوا يمثلون حركة التحرير الافرنسية هذا الامر طبيعياً ، واثراً من آثار تطور العالم وهتافات الحرية

والاستقلال وحقوق الشعوب المستضعفة وقصد حماية العالم من ديكتاتور النازيين والفاشيين التي ظل الحلفاء يهتفون بها اربع سنين طويلة ، وان يرحبوا به ، ولا سيا انهم أعلنوا بالاتفاق مع بريطانيا ان هدف الغزو الجديد هو تحرير بلاد الشام ومنح سوريا ولبنان استقلالها وسيادتها ، وانهم يمثلون فرنسا الحرة متمردين على استسلام فرنسا وخضوعها للالمان ووقوعها تحت سنابكهم لتشرب من ايديهم كأس المهانة والاحتلال ، وانهم اضطلعوا بقيادة حركة النضال في سبيل انقاذها ، وان يدركوا ان تلك المواد اذا ساغ ان تكون في دستور وضع في ظل الانتداب الرسمي القائم فان من الطبيعي ان لا تبقى في العهد الاستقلالي الجديـــد الذي لم يبق للانتداب الرسمي فيه قائمة ، ولكن الروح الاستعمارية المتعسفة المتغلغلة فيهم لم تكن لتهضم هذا ، ورأوا في البيان الوزاري وما قوبل به من حماس وترحيب في داخل المجلس وخارجه مفاجأة عظمى لهم ، ومحاولة لزلزلة سلطانهم الاستعماري الذي ظنوه منيعاً خالداً قوي الاساس في لبنان واللبنانيين على الاقل ، واعتبروا ذلك حركة من حركات رياض الصلح عدوهم الأول فحسب ، وظنوا أنهم إذا أعلنوا معارضتهم لها حوّلوا الناس عن موقفهم وجردوا رياضاً من التأييـــد فأذاع هيللو مندوب لجنة التحرير الافرنسية الديغولية التي كانت اتخذت الجزائر مركزاً لها بياناً تحذيرياً قال فيه مغالطاً ان الدستور اللبناني بمثابة عقد بين طرفين لا يحق لطرف ان ينفرد في تعديله وان النصوص المراد تعديلها تنطوي على ماعلى فرنسا من التزامات انتدابية موكولة لها من عصبة الامم لايمكنها التخلي عنها، وان احترام العقود أساس استقلال الامم وكرامتها، وانه واثق من أن اللبنانيين سيتروون في اتخاذ اي خطوة تتناقض مع ذلك ، فرد رياض عليه مذكراً ان في الدستور مادة صريحة تجعل لمجلس النواب الحق في التعديل

التعديلات الدستورية المقترحة

ثم قدم مشروع التعديل الى المجلس . وكان يتضمن الغاء خمس مواد لا يمكن أن تأتلف مع أي معنى من معاني الاستقلال والسيادة وتهدف الى تخليد طابـــع الانتداب وسلطان الدولة المنتدبة مما لا يعقل أن يرد في صلب دستور الدولة ، ومما

يدل في الوقت ذاته على نظرة السخرية والازدراء التي ينظر بها الافرنسيون الى الأوضاع الدستورية وأشكال الحكم الوطني في لبنان وعلى روح الغطرسة والسيطرة المتغلغلة فيهم ، وكان يتضمن كذلك تعديل خمس مواد اخرى تعديلا يكفل ذلك المغى ويرفع القيود التي قيدت بها صلاحيات رئيس الجمهورية ، ويجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . وهذه هي المواد الخمس التي اقترح الغاؤها :

المادة (٩) ان الاحكام المقررة في هذا الدستور يعمل بها مع الاحتفاظ بما للدولة المنتدبة من الحقوق والواجبات الناتجة عن المادة (٢٢) من عهد جمعية الامم وعن صك الانتداب .

المادة (٩٢) تؤكد الجمهورية اللبنانية في هذا الدستور حسن قصدها في المحافظة على روح السلام والوفاق مع الدول الاخرى وخصوصاً الدول المجاورة الواقعة ضمن نطاق الانتداب الافرنسي التي يرغب لبنان في توفيق عرى الولاء معها في جو هادىء من الوئام على شرط المعاملة بالمثل .

المادة (٩٣) تتعهد الجمهورية اللبنانية بمقتضى هذاالدستور تعهداً رسمياً أن تحكّم الدولة المنتدبة بتسوية الخلافات التي من شأنها أن تعكر جو الامن بينها وبين جيرانها وكل الدول الاخرى الراغبة في الاتفاق معها على ان تتضمن هذه الاتفاقات نصاً صريحاً يقضي بالزام الدول المتعاقدة بالتحكيم الاجباري في كل خلاف .

الماده (٩٤) تتفق الحكومة اللبنانية في ما بعد مع ممثل الدولة المنتدبة على إنشاء وكالة لبنانية في باريس ووظائف ملحقين لبنانيين بدور الاعتماد السياسية والقنصليات الافرنسية في البلاد الأجنبية حيث تدعو الحاجة الى ذلك بالنسبة الى عدد اللبنانيين المقيمين فيها . وتبذل الحكومة الافرنسية كل ما في وسعها في سبيل توثيق العرى التي تربط اللبنانيين المهاجرين بوطنهم الاصلي .

أما المواد المقترح تعديلها في (١ و ٢ و ٣ و ٥٢ و ٩٥) حيث رفع منها عبارات الدولة المنتدبة وصك الانتداب كما رفعت القيود التي تقيد رئيس الجمهورية في

المفاوضات في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها، وأوجبت على رئيس الجمهورية عرض المعاهدات المتعلقة بالمسائل المالية والتجارية الملزمة على المجلس وحيث رفع ايجاب أعتبار اللغة الافرنسية لغة رسمية ثانية وجعل استعمال هـذه اللغة منوطاً بقانون يحدد الاحوال التي تستعمل فيها .

ومن الجدير بالذكر أن الدستور السوري لم يكن فيه مثل هذه المواد الانتدابية ولم يدخل فيه الا ما يتصل بكيان الدولة ونظامها وفاقاً لدساتير الدول لأنه من وضع الجمعية التأسيسية ، وإن كان بونسو قد الحق به المادة السادسة عشرة وأدخـل على بعض مواده التعديلات على ما ذكرناه في مناسبته ، في حين أن الدستور اللبناني هو من وضع الافرنسيين فقط قبله اللبنانيون أو تقبلوه كما كانوا يتقبلون كل ما يعرضه الافرنسيون دون نشاد ولا عناء ، ولهذا كانت مغالطة هيللو مفضوحة حينما قال ان الدستور عقد بين طرفين .. ولكن الافرنسيين لم يكونوا ليبالوا بمثل هذه النقائض ، ولا بما هو أخطر منها . . .

وقد قرر المجلس النيابي النظر في التعديل على وجه الاستعجال بالرغم من محاولة اميل اده بالتأجيل ، وكان جو لبنان قد توتر من الموقف المتجهم الانذاري الذي وقفه المندوب الافرنسي باسم لجنة التحرير فزاد هذا التوتر من حماس المجلس الذي أقر التعديل بالاجماع تقريباً ووسط مظاهرة حماس بالغة ، وانسحب إده ورفيق له قبل التصويت ، وخطب فريق مـــن النواب يمثلون مختلف الطوائف الاسلامية والمسيحية في سياق التصديق خطباً قوية في صدد الاستقلال والسيادة والعروبة .

- ٣ -

اعتقال رئيسي الجمهورية والوزارة ورفاقهم

وقد كان هيللو سافر الى الجزائر لبحث الموقف مع اللجنة وعـــلم بما تم فعاد مسرعاً ليحول دون نشر قرار التعديل في الصحف ؛ وفي صباح اليوم التالي أي بتاريخ ١١ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٣ الباكر ؛ وكان هذا اليوم يوم ذكرى الهدنة وكان الافرنسيون دعوا إلى حفلة استعراضية بمناسبتها ، ارسل قوة فاعتقلت رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب وبعض الوزراء والنواب الآخرين ، وبعث بهم مخفورين إلى قلعة راشيا رغماً عـــن وعده لوزير بريطانيا

المفوض الذي شعر بالجو المتكهرب بشرفه انه لن يفعل شيئا مثيراً ، وأصدر قراراً باقالة رئيس الجمهورية والوزارة وحل مجلس النواب وتعيين إدّه رئيسا للدولة، وقال إن التدابير المتخذة هي للوقوف امام مؤامرة عدائية ضد فرنسا، وإنه لا خوف على استقلال لبنان وسيادته ... وهذا هو ما أراد الافرنسيون ان يسيغوه من معنى الاستقلال والسيادة للبنان وسوريا . فاعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة والوزراء والنواب واقالتهم وحل مجلس النواب من قبل موظف افرنسي ليس من شأنه أن يتعارض مع الاستقلال والسيادة ! .

وقبل ادّه المنصب وأصدر بلاغا طلب فيه الاخلاد للسكينة وهدد من يحاول الاخلال بالامن بالعقاب الشديد !

وقبـــل يوم الاعتقال أعلن هيللو الحكومة اللبنانية سحبه دعوتها الى حفلة الاستعراض المنوي إقامتها في اليوم التالي باستثناء رئيس الجمهورية ولكن هـذا اعلنه رفض دعوته فلم يسع وزراء الدول الحليفة إلا إعلانه رفض الدعوة . وكان هذا مما زاد في توتر الجـو واشعر الوزير البريطاني بشيء مثير مبيت حاول هيللو تطمينه بنفيه ائلا ينسد له تدبيره وأقسم له على ذلك بشرفه الكريم !

ولقد استعملت القوة التي ذهبت للاعتقال وكان يقودها ضباط افرنسيون كل مظاهر الاهانة والارهاب والتشفي مع رجال الدولة حيث دخلوا عليهم في غرف نومهم التي كان بعض الزوجات يشاركن أزواجهم فيها ، وحيث كسروا الابواب والشبابيك ومزقـــوا الستائر عن بعضها ، وحيث كانوا يدفعون رئيس الجمهورية دفعا شديداً ويشتمونه ناعتين إياه بالرجل الوضيع ، وحيث لكموا عبد الحميد كرامي لكمات عديدة واعتقلوه بثياب نومه ، مما يدل على شدة الغيظ الذي استولى على السلطات الافرنسية وروح الحقد والصلف المتغلغلة في نفوسهم .

انفجار الشعب ضد أثر الحادث

ولم يكد القرار يذاع ويعرف الناس بأمر الاعتقالات حتى انفجر الهياج في لبنان كشرارة مست برميل البارود . فقامت المظاهرات واعلن الاضراب العام

في بيروت ثم عم لبنان وأنزل الافرنسيون فصائل السنغاليين للشوارع كما سيروا فيها الدبابات لارهاب الناس ، فأخذت الاشتباكات تقع بين الاهلين وبين القوات الافرنسية السنغالية،واستشهد وجرح عدد كبير من الناس بينهم عدد من الاطفال ديسوا بالدبابات دوسا اندفاعا بما اعتاد الافرنسيون تكراره في مثل هذه الفرص من أن السوريين واللبنانيين كلاب يجب أن تداس ، كما اعتقل عدد كبير من مختلف الطوائف في بيروت وطرابلس وصيدا خاصة ، وتوترت الاعصاب توتراً شديداً ، واجتمع فريق من النواب مع الوزراء الذين لم يعتقلوا وقرروا تأليف حكومة طوارىء وطنية ، تمثلت فيها الطوائف ، كما عين نائب عن رئيس الجمهورية وأخذت الحكومة التي اتخذت بشامون احدى قرى الجبل المنيعة مقراً لها تصدر البلاغات للموظفين وتنذرهم بعدم اعتبار حكومة إده والتمرد عليها ، واستجاب الى ندائها جمهرة الموظفين فانشلت حكومة إده الذي لم يستطع أن يجد من يتعاون معه في تشكيل حكومة رئيسية أو وزارة ، وشرعت في اتخاذ التدابير للنضال الوطني ، وبدأت تتشكل بعض العصابات المسلحة ويقع بعض اصطدامات بينها وبين قوى الافرنسيين ، واحتج البطرك الماروني والبطاركة الآخرون ورؤساء الدين الاسلامي على العدوان ، وأعلنوا تضامن المسلمين والنصارى في الموقف، واتفقت منظمتا النجادة الاسلامية والكتائب النصرانية - وهما منظمتان كشفيتان من جهة وتشبه بعض التشكيلات العسكرية الحزبية من جهة اخرى — على الاندماج في بعض ، وذهب المسلمون للمساجد لصلاة الجمعة فحاولت السلطات منعهم لئلا يخرجوا بالمظاهرات فاقتحموا النطاق ووقف شباب النصارى يحرسون الأبواب، واتحدت الصحف الاسلامية والنصرانية في الحملات القارعة ضد الافرنسيين، واحتج وزراء الدول المفوضون احتجاجاً شديداً على البغي وخاصة على رئيس الدولة الذي هم مفوضون لديه وأخذوا يجتمعون حول الوزير البريطاني سبيرس لمعالجة الموقف.

وكان في ما جرى مظاهرة نسائية اشتركت فيها نساء مختلف الطوائف فأثار هذا الافرنسيين حتى صوبوا عليهن النار ، وقد هتفت بهن احداهن قائلة انه الأجدر بهم ان يظهروا بطولتهم في انقاذ فرنسا المهينة التي ترسف تحت ذل الالمان واحتلالهم بدلاً من اظهارها أمام نساء لبنان وشعب لبنان الاعزل من السلاح القليل الضعيف الذي لم يفعل شيئاً إلا انه أراد حريته واستقلاله ...

ولادة لبنان العربي

وهكذا ولد لبنان ولادة عربية وطنية نضالية رائعة ولو انها تأخرت والتحق بقافلة النضال العربي في سبيل اهداف الحركة العربية من الاستقلال والسيادة، وضد المستعمرين وأساليبهم الباغية وتزلزلت من تحت اقدام الأم الحنون ارض كانت تظنها أرضها المستقرة، ووقفت تتمرد عليها امة كانت تظن انها من لحمها ودمها، ونصلت الصبغة الافرنسية المموهة وظهرت صبغة لبنان العربية الطبيعية بفضل حمق الافرنسيين وروحهم الاستغلالية المتغطرسة وعمايتهم عن وزن الامور والظروف ...

وقد احيط أميل اده الذي وقف شاذاً بجو من الارهاب حتى انه لم يكن ينتقل بين دار الحكومة وبيته الا تحت الحراسة الشديدة، وقد اطلق الرصاص على موكبه اكثر من مرة كما القيت على بيته عدة قنابل ..

- ٤ -

اثر العدوان في الامة العربية وتضامنها الرائع

ولقد كان للحادث رد فعل شديد وسريع في البلاد العربية، فأعلن الاضراب العام في المدن السورية والفلسطينية والعراقية والأردنية، وقامت المظاهرات الصاخبة فيها. واستدعى الملك فاروق وزراء اميركا وانكلترا وحدثها في الأمر منذراً طالباً الوقوف من بغي فرنسا موقف الحزم المتناسب مع هتافات الحرية والاستقلال ومبادىء ميثاق الاطلنطي التي بشروا العالم وخاصة الشعوب الصغيرة بها، وحملت الصحافة المصرية حملات قارعة، وكتب بعض الكتاب البارزين والمعروفين بحب فرنسا وتشبعهم بروحها وثقافتها قطعا تقريعية لاذعة، وقد جاء في قطعة لتوفيق الحكيم مثلاً: خاب أملي في فرنسا انا الذي احب ثقافتها ونشردعوتها وصدق كلامها في الحرية والمساواة والاخاء، انا الذي بكى لمحنتها وتفجع لنكبتها وظن ان الحرية الانسانية انهارت بانهيارها وأن العدالة البشرية اندكت بتحطيم

جيشها . هل كان يخطر لنا على بال ان في هذا الجيش بقية من حمية تهب يوماً لا لكي تطرد من ارضها العدو المغير بل لتطأ بأقدامها استقلال شعب صغير ! بأي حق تتحدث فرنسا بعد اليوم عن حريتها وحرية الشعوب ؟ وبأي صفة تطالب الحلفاء بقعد في هيئة الامم المشرفة على تحقيق العدالة الدولية ، من ذا يتطلع بعد اليوم الى فرنسا الرافعة علم الحريات ؟ لقد قدمت فرنسا الدليل على انها فقدت روحها القديم الذي جذب اليها الافئدة ! لقد ماتت في فرنسا تلك المعاني الرائعة التي نثرت نسمات الامل في النفوس (١) ! واثكلاه عليك يا فرنسا ! إن فجيعتي فيك اليوم يوم انهيارك لتتضاءل الى جانب فجيعتي فيك اليوم وانت تخنقين بيديك الواهنتين المرتعشتين حرية شعب ضعيف ناهض ! وارسلت هيئات مصر وشخصياتها البارزة احتجاجاتها ورفعت اصوات استنكارها ، وارسل الملك فاروق برقية عظيمة ممتلئة بالعواطف والتشجيع الى الشيخ بشاره لتقوم مقام بعثة التهنئة على رأسته التي كانت مزمعة على الرحلة الى بيروت من قبله ، وقد جاء فيها فيما جاء : ولا شك في ان شعب لبنان يتمتع باستقلاله وانه بالغ في ظل الحرية والعدالة والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد . ولست في حاجة الى ان أؤكد لفخامتكم ان الشعب اللبناني يستطيع ان يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومتنا وشعبنا في ساعات الشدة والحرج ، ففي هذه الساعات وبها تتأكد العواطف وتتمكن المحبة . ان الساعات تمر بالشعوب وتمضي وتبقى الشعوب برجالها وسيبقى شعب لبنان .. » وارسل رئيس الوزارة المصرية وكان النحاس باشا برقيات احتجاجية شديدة الى انكلترا واميركا وفرنسا ، وكانت برقية للجنرال ديغول لاذعة التقريع ، واعلن البرلمان المصري استنكاره الشديد ، وصدف افتتاح هذا البرلمان في هذا الظرف فدخلت قضية لبنان في خطاب العرش معلناً فيه الاستنكار والتضامن . ومثل هذا جرى في العراق وفي سوريا ، حيث حدث وصي العراق ورئيس سوريا وزيري بريطانيا واميركا ، وحيث احتجت الحكومات احتجاجات شديدة ، وحيث حملت الصحافة حملات قارعة ، وحيث شارك البرلمان السوري والعراقي الحكومة والشعب في الاحتجاج والاستنكار والتضامن .

(١) وفي هذا الكلام اثر من آثار اسطورة نصر فرنسا لحرية الشعوب وغفلة عن الدلائل التي قدمتها فرنسا المرة بعد المرة على انها في خارج فرنسا باغية ظالمة استعمارية عدوة للحرية والعدالة والاخاء والمساواة .

موقف الانكليز من الحادث

ولقد كان موقف الانكليز مدهشاً عظيما . فالحكومة أعلنت استنكارها الشديد وأظهرت اهتمامها البالغ ، واحتجت على فرنسا وموقفها الباغي ، وقالت إنها لايحق لها أن تفعل ما فعلت بدون علمها ، وهي شريكتها في الموقف وضامنة لاستقلال لبنان وسيادته ، وإن ما فعلته من شأنه أن يضر بالغ الضرر بالجهود الحربية ، وأن فرنسا مدينة لها بوجودها في سوريا ولبنان ، وكان من أوجب واجباتها أن تفكر في ذلك قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه . وأبدى البرلمان قلقه وخطب خطباؤه مستنكرين منددين . وحملت الصحافة الانكليزية حملات شديدة ونعتت فرنسا الحرة بأقبح النعوت ، وذكرتها بحالة فرنسا ومهانتها الحاضرة ، وقالت إنه كان يجدر بها بدلاً من عدوانها على استقلال شعب ضعيف وكرامته أن تقوم بواجبها في إنقاذ وطنها المهين وكسب عطف العالم بسبيل ذلك . وجاء كايسي وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط الى بيروت مرتين واحتج بشدة على تصرفات هيللو وقال له بصراحة إنه ارتكب أفظع خطأ ، وإن عمله من شأنه أن يثير مشاكل عظيمة في سبيل الجهود الحربية بسبب اختلال الأمن في الشرق الأوسط الذي سيحدث من جرائه ، واهتمت الولايات المتحدة الأميركية للموقف وأبدى روزفلت قلقه من تفاقم الحال وضرر اضطراب الامن في الشرق العربي في الجهود والحركات الحربية التي كانت في أشد أدوار احتدامها ، وقال إن ما فعلته فرنسا مخالف لميثاق الأطلانطي ومناقض لما يهتف به الحلفاء من حرية الشعوب واستقلالها والقضاء على الروح الاستعمارية الديكتاتورية .

نشاط الجنرال سبيرز

ولقد كان الجنرال سبيرز المفوض البريطاني عظيم النشاط في الأزمة ، وحاول أن يحول دونها ، فلما أخلف هيللو بوعده وأخل بالقسم الذي أقسمه له بشرفه على

أن لا يقدم على عمل مثير ازداد نشاطه واهتمامه حتى لكأنه اعتبر العمل صفعة مهينة له ؛ ولقد غدت دار المفوضية البريطانية منذ صباح الاعتقالات قطب حركة شديدة حيث كانت الوفود تترى عليها من مختلف الطوائف محتجة صاخبة مطالبة بالتدخل والحماية ؛ فكان يطمئن الناس ويبدي عطفاً شديداً على رجال الحكومة وقضيتهم ، ويتصل بحكومته اتصالاً مباشراً في صدد سرعة تدخلها مما جعل هذه الحكومة تبدي ذلك الاهتمام العظيم الذي أحبط عمل الافرنسيين وأرغمهم على التراجع عن بغيهم في النهاية ؛ ولذلك كان حقدهم في بيروت والجزائر مصبوباً في الدرجة الاولى عليه حتى وصل الأمر بهم في بيروت الى التآمر على حياته وإطلاق النار على الجماعات التي كانت تفد الى داره وإغراء الصبيان برجم سيارة زوجته حينما جاءت تزور زوجة رياض الصلح ، وإهانتها بعد سنتين حينما جاءت الى باريس بصفتها رئيسة البعثة الصحية التي كانت تألفت في سبيل فرنسا وجنودها !

٦ -

انفجار الشعب وتعضيد الانكليز في اللجنة الديغولية وحنقها

واستاءت اللجنة الديغولية بطبيعة الحال أعظم استياء من اهتمام العالم العربي والانكلو أميركي لما حدث ؛ لأنها رأت فيه تفويتاً للفرصة المتاحة لها للقضاء على حركة التحرر والعروبة التي قادها رياض الصلح ؛ وامتعضت خاصة من حملات الانكليز، وأرادت أن ترى فيها نيات مبيتة ضد مركز فرنسا وحقوقها، كما اتهمت سبيرز بالتهييج والتآمر ضدها ؛ ولم تتخلّ عن حمقها وصلفها وروحها الاستعمارية ومغالطاتها ، ولم تفكر لحظة في فظاعة العمل الذي أقدمت عليه فأخذت تبرره بحجة أن حكومة لبنان أرادت أن تتحدى فرنسا وتجعلها أمام أمر واقع ، وتتآمر على حقوقها ومصالحها التي لا يمكن أن تتخلى عنها ، كما أخذت تهاجم الدول التي تتدخل في امور لبنان التي لا تهم إلا فرنسا ولبنان ، والتي يجب أن تترك لهما وحدهما لتسويتها فيما بينهما ! ومما قالته إن مركز انكلترا ليس إلا عسكرياً بسائق الحرب، وإنها ليس لها أن تدس أنفها في شؤون لبنان وتزعم لنفسها ضمان استقلاله ، وإن

حرية لبنان منوطة بفرنسا مما يصدق عليه بسبب ظروفها التي قالت فيها هذا القول المثل العربي القديم « است في الماء وأنف في السماء » ؛ وقد اتهمت رياض الصلح خاصة بسوء النية والتهييج والاستعانة بعناصر الشعب للضغط على الأفكار وتبييته خطة عدائية صريحة نحو فرنسا .

تراجعها مرغمة عما فعلت

على انها لم تر بداً وقد ساقها العالم بألسنة حداد ، وتضامن العرب تضامناً قوياً مع لبنان من التراجع ؛ ولعلها خشيت أن يتفاقم الامر وتشتد اصابع الانكليز بالحركة فيصل الموقف الى التشطيب عليها ، ولاسيما انها لم تكن بعد شيئاً مذكوراً في الحرب والقوة وكانت شبه لاجئة في الجزائر ومدينة لبريطانيا بكل شيء حتى الخبز الذي تأكله هي وموظفوها والقوى التابعة لها ، دون أن تدرك أن عملها الاحمق قد اسكت أنصارها ومواليها وكان من العوامل التي قضت على وجودها في لبنان ونسفت كل الجهود الجبارة في سبيل خلودها فيه ؛ فأوفدت الجنرال كاترو لحل المشكلة على الوجه المناسب ، وجاء هذا الى القاهرة فاجتمع بكايسي ثم الى بيروت ، وأخذ يتصل بمختلف الأوساط المسيحية والاسلامية ، وزار دمشق وتحدث مع رجالها في الموقف . ولم يلبث هيللو أن تلقى أمراً بالعودة الى الجزائر ، وأن اقيل بعض الموظفين الافرنسيين وارسلوا كذلك الى الجزائر ، وان اطلق سراح المعتقلين ، وان صدر من القائم بالاعمال قرار بالغاء القرار السابق مع اعتبار التعديل الدستوري لاغيا ، فعاد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء الى مناصبهم ، والمجلس النيابي الى اجتماعاته ، وقامت مظاهرات الابتهاج قوية صارخة في بيروت حتى ان النواب رفعوا رئيس الجمهورية على اكتافهم وأدخلوه الى قصره كذلك . وشاركت بلاد العرب لبنان في ابتهاجه وفرحه وحماسه وانهالت منها عليه برقيات التهنئة الفياضة بعواطف الاخوة المبتهجة بولادة لبنان العربي . وجاءت بعثة الملك فاروق للتهنئة ، ورأس رياض الصلح بعثة الشكر ومعه غرسة من الارز لتغرس في ساحة قصر عابدين كرمز لهذا الشكر وخلوده فكان له استقبال عظيم متناسب مع تلك العواطف .



مشهد من مشاهد الاحتفالات بيوم الجلاء عن لبنان



الاثر التذكاري لجلاء فرنسه عن لبنان

قلعة راشيا



صاحب الغبطة البطريرك انطون عريضة



مشهد من مشاهد مراكب الجلاء في بيروت
الشيخ بشاره الخوري ورياض الصلح وجميل مردم ومحسن البرازي

وقد اختفى اده عن العيون عندما رأى بوادر تراجع الافرنسيين، وخصه المجلس النيابي في اولى جلساته وباقتراح من زعيم مسيحي فيه بقرار الاستنكار والاشمئزاز ثم ما لبث ان طرده من بين أعضائه ، فكان في هذا درس بليغ يلقيه لبـــنان في ولادته الجديـدة على زعيم من زعماء الموارنة بل من كبارهم تولى رآسة دولة لبنان وكان له الأنصار والأتباع والمؤيدون الكثر لشذوذه المعيب في موقف وطني عصيب.

محاولات ومساومات كاترو

ومما كان ان كاترو حاول أن يساوم ليحفظ لفرنسا شيئاً من الهيبة فاستحضر الشيخ بشاره الخوري من راشيا مخفوراً وعرض عليه بعض العروض فرفضها فاعيد الى معتقله مخفوراً كذلك، وفعل مثل هذا مع رياض الصلح فأخفق، فلم ير بداً من الحل المرضي، وأرسل اليه بعد أيام كتاباً يقول فيه ان لجنة الجزائر وافقت على منح لبنان جميع مطالبه وان التحفظات التي ابداها قد الغيت . ومن عجيب ما يذكر من أدلة حمق الافرنسيين وسوء نياتهم وشدة الغيظ الـذي ثار في نفوسهم ان كاترو رغم محاولاته هذه غدا موضع حقد شديد من قبل الموظفين الافرنسيين لما كان منه من تسليم حتى ان بعضهم حاول التآمر على حياته على ما نشرته بعض الصحف في حينه . وعلى كل حال فقد كان التراجع الافرنسي تاماً متناسباً مع ولادة لبـــنان العربية الوطنية النضاليـة ومع الصلف والغطرسة والغرور والحمق الذي رافق الافرنسيين في جميع تصرفاتهم وفي موقفهم الباغي الاخير والذي ظل يعميهم عن ادراك حقائق واقعهم وواقع العالم ، وعدم ارعوائهم عن الغي واتعاظهم بالأحداث ، وكان من ذلك ان صرحوا عن ما في قلوبهم من غيظ وحسرة على انهم لم يتمكنوا من انزال بطشتهم الكبرى في اللبنانيين الذين خانوهم ، وان دفعهم هذا الغيظ والحسرة الى موقف غادر لئيم في سوريا بعد سنة ونصف مما كان سبباً في التشطيب لهم في لبنان وسوريا واقتلاع جذورهم منها . . .

لبنان بعد انكشاف الغمة

وخرج لبنان من محنته فائزاً منصوراً يتبختر بحلته العربية الوطنية النضالية .
وقد اجتمع المجلس النيابي فكان اجتماعه مظاهرة وطنية عربية كبرى تبارى فيها خطباء النواب بالاشادة بالحرية والاستقلال والكرامـــة والتضامن العربي .
ولقد كان النواب وحكومة الطوارىء قرروا إبدال العلم واخراج الارزة مـن حضانة العلم الافرنسي وجعله متسقاً مع الوان العلم العربي ، فرفع العلم عـلى دار المجلس في اجتماعه الاول فكان ذلك تدشيناً رسمياً رائعاً لتقويض اركان فرنسا ومزاعمها في لبنان واستقلال لبنان عنها بكيانه العربي الجديد .
ولقد أقام البطرك الماروني وليمة لرئيس الجمهورية والوزارة فألقى خطبة بدأها بالبيت العربي المشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق عـــلى جوانبه الدم

ثم قال فيما قال أما وقد أريق الدم في سبيل الاستقلال فلا شك في انه سيظل قائماً مستقراً .
وتبادل المسلمون والنصارى الزيارات في المساجد والكنائس بمظاهرات شعبية اخوية جياشة ، وقد انشد بعض المسيحيين في احدى الكنائس قصيدة جاء فيها :

إني بقرآني عرفت مسيحـــكم   ورأيت في الانجيـــل وجه محمد

حيث كان كل هذا مشاهد جديدة سارة في حياة لبنان دعمت ولادته العربية ، وفقئت في عين المستعمر الباغي الذي مثل عـلى مسرحه ابشع الأدوار ، واستغل خلاف طوائفه خاصة ألأم استغلال ، وكان مطمئنا بمركزه وخلوده وحيزه الشامل في لبنان كل الاطمئنان .
واقيمت حفلة تكريمية في صيدا خطب فيها رياض الصلح فقال ان شروط استقلال لبنان ثلاثة وهي ان يرغب فيه المسيحيون ويقبـله المسلمون وتعترف به الاقطار العربية ، وقد تحققت هذه الشروط الثلاثة . فكان في هذا الايجازتلخيص للوقائع وتدعيم لها .

وبدا ان الافرنسيين ظلوا يظنون ان اعلانهم إلغاء التعديل الدستوري مـا يزال هو المعتبر ، فقطع رياض هذا الظن بتصريح في البرلمان قال فيه ان اعلان الالغاء ليس شرعياً فـلا قيمة له ، وان ما تم قد تم وفقاً للدستور وهو المرعي المعتبر . وقد اثار هذا التصريح الافرنسيين ثانية وكادت ان تحدث ازمة جديدة ، واجتمع الوزراء في بيت رئيس الجمهورية واحضروا ما امكنهم من قوةاستعداداً للطوارىء وتصميماً على الدفاع ، فكان ذلك باعثاً للافرنسيين على التراجع ثانية وبلعهم الشربة كرهاً بصورة الطوع . على انهم بعـد خمسة اشهر حرضوا بعض انصارهم فجاؤوا في مظاهرة الى البرلمان في احدى المناسبات وحاولوا انزال العلم الجديد ورفع العلم الافرنسي محله ودوت النار ، وكان مصير المحاولة الاخفاق .

- ٩ -

قوة العهد اللبناني العربي بعد الحادث

ومنذ انكشاف الغمة عن لبنان العربي الجديد اخذت تتهيأ له اسباب توطيد استقلاله وسيادته ، فاخذت تتوالى اعترافات الدول به ، واندمج في مشاورات الوحدة العربية في القاهرة التي انتهت بقيام جامعة الدول العربية وغدوه عضواً فيها ، واندمج كذلك بالتضامن والتشاور مع سوريا في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب رسمياً مع دول المحور وبذل المساعي الناجحة في الاشتراك في مؤتمر سان فرنسيسكو وغدوه كذلك عضواً مؤسساً في هيأة الامم معترفاً باستقلاله وسيادته محرراً من اغلال الانتداب ووزره على الوجه الذي فصلنا الكلام عنه في الباب الأول .

تضامن لبنان وسوريا في تصفية مركز فرنسا واثره

ولقد اختط رجال العهدين في سوريا ولبنان خطة التضامن التام فيما بينهما في صدد تصفية الموقف مع فرنسا ، فامكن بذلك النجاح في استلام المصالح المشتركة

التي كانت في يد السلطات الانتدابية الافرنسية مباشرة . وسار رجال العهدين في هذه الخطة إزاء مطالب فرنسا التي تقدمت بهـا كشرط لتسليم الجيوش فرفضها لبنان كما رفضتها سوريا ، ووقف لبنان الى جانب سوريا موقفاً قويا في محنة مايس ١٩٤٥ ، وتضامن معها في الشكوى الى مجلس الامن وطلب الجلاء وتحقيقه أخيراً على ما ذكرناه كذلك في الباب الأول .

جلاء فرنسا عن لبنان

وفي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٤٦ تم جلاء آخر جندي اجنبي عن لبنان ، وخفق العلم اللبناني العربي وحـده في سمائه ، وكان ثاني بلد عربي تزول عنه غمة الاستعمار والاحتلال دون ما قيد ولا شرط ولا عهد . وقد سجلت ذكرى الجلاء عن لبنان على صخرة من صخور نهر الكلب التي سجلت عليها بعض احداث التاريخ اللبناني الكبرى بمركب حافل اشترك فيه وفود العرب .

الامال بالمستقبل بالرغم عن بعض المشاهد الحاضرة

وهكذا استوفى لبنان لقاء موقفه الوطني العربي هذا الثمن العظيم الذي كان يشك كل الشك في بلوغه حتى ولو بلغته سوريا بـدون ذلك الموقف الذي كانت الفكرة العربية والحركة العربية ورجالها اصحاب الاثر الاقوى فيه ، لما كان من رسوخ قدم فرنسا في لبنان ماديا ومعنويا واعتبارها نفسها انها في ارضها ولـما كان من الصلات الوثيقة والعواطف العميقة المتبادلة بينها وبين كثرة كبيرة من سكانه ، الامر الذي كان يقض من مضجع سوريا خاصة ، لأن خطرها يظل سيفا مصلتا فوق رأسها بسبب ذلك ، فضلاً عن انه كان يقض مـن مضجع اصحاب الفكرة العربية ورجال حركتها خشية من ان تقوى فرنسا على لبنان فيغدو إفرنسيا او بمثابة ذلك ، ويكون مقراً للاستعمار وممراً له الى غيره ..

ومع اننا لا نجهل ان تلك الكثرة من سكان لبنان ما زالت تحت تأثير تلك الصلات والعواطف ، وتحت تأثير العصبية اللبنانية المسيحية الضيقة المتجهة للعرب

والعروبة نتيجة لدسائس فرنسا ودعايتها بسبيل توطيـــد قدمها الاستعمارية في الشرق العربي ، ومع ان آثار ذلك تظهر حينا بعد حين قوية اليمة مرة تبعث في النفس الحسرة والتشاؤم وضعيفة مرة اخرى على السنة بعض رؤساء الدين والزعماء المارونيين والكاثوليك عامة وبعض الصحف والمنظمات المسيحية والمارونية خاصة حيث يصل الامر احيانا الى الخروج عن كل منطق وكرامة والاساءه لبني لبنان ولبني سوريا وللعرب عامة بدون إثارة او استفزاز مما يظهر فيـــه اصابع فرنسا الدساسة أحيانا ومما ذكرنا بعض امثـلة منه في مناسبة سابقة فإن الأمل غير ضعيف في ان يخف ذلك التأثير رويداً رويداً حتى يزول ، وحتى تتوطد الفكرة العربية في مسيحيي لبنان ومسلميه على السـواء ، ويدرك الجميع ان في ذلك كرامة وطنهم وامتهم وعزتها وقوتها ومصلحتها معا ، ولا سيما إن رجال الحركة العربية قدروا منذ الاصل وما يزالون يقدرون بواعث الفكرة المستحكمة في نصارى لبنان وخاصة موارنته وهي ضرورة احتفاظ لبنان باستقلاله وكيانه واحترموها بسبيل تطمين نصاراه والتحاقه بقافلة العروبة التي تسير فيها بـــلاد العرب جمعاء والتحرر من اصابع فرنسا ومطامعها . بل وانه ليسرنا ان نسجل ان بوادر ذلك آخذة بالقوة والنمو يوما بعد يوم باتساع نطاق الفكرة العربية القومية والاستشعار بكرامة الاستقلال والسيادة وعزتها مما يبشر بالوصول الى الغاية المرجوة التي يتم فيها النصر للفكرة والحركة العربية واهدافها ان شاء الله .

الباب الثالث

فرنسا والمغرب العربي

تمهيد

ظروف بلاء المغرب بفرنسا

إن ابتلاء سوريا ولبنان والحركة العربية فيهما بفرنسا قد جاءت من حيث الفعل بعد ابتلاء المغرب العربي بها. ومن المؤسف أن الظروف التي ساعدت سوريا ولبنان والحركة العربية فيهما على النجاة من بلائها لم تسنح بعد لهذا المغرب العزيز فظل الى الآن يقاسي الشدائد المريرة منه .

ولقد بليت سوريا ولبنان ببلائها عقب يقظة الروح القومية والحركة العربية وما كان من رجالها من نشاط وما بذلوه من جهود وقدموه من ضحايا قبيل الحرب العالمية الاولى ؛ ثم نشبت هذه الحرب التي كانت مبادىء التحرير وحق الشعوب الضعيفة وحريتها والقضاء على الروح الاستعمارية وحق الفتح وسائل دعائية مهمة فيها . وقد قطع الحلفاء بلسان انكلترا للعرب الذين كانوا في حكم الدولة العثمانية عهوداً بالحرية والاستقلال واشتركوا بسببها في الحرب المذكورة الى جانبهم ،فكان هذا مما قوى موقف العرب في سوريا ولبنان وساعدهم على النجاة بعد محنة شديدة استغرقت أكثر من ربع قرن مع ذلك ؛ فضلاً عن ما كان من ظروف دولية أخرى واتتهم أثناء الحرب العالمية الثانية على ما فصلناه في البابين الأولين من هذا الجزء ؛ هذا في حين أن المغرب العربي قد ابتلي بفرنسا في تواريخ سابقة تيسر لها فيها توطيد قدمها فيه واختطاط سيرة من شأنها أن تجعل البلاء مزمناً مستعصيا .

قصة المغرب الاليمة

والحق إن قصة فرنسا في أقطار المغرب العربي أليمة جداً لانها تقص ما قاسته هذه البلاد من فرنسا باسلوب من شأنه أن تهلع له القلوب وتدمى له العيون وتقشعر منه الأبدان لفظاعته وقسوته بحيث يصح أن يقال إنّ ما قاسته سوريا ولبنان على شديد ما قاستاه ليس إلا ظلا لما قاساه ولا يزال يقاسيه ذلك الجزء الكبير من

الوطن العربي ؛ حتى إنه لا يكاد يصدق وقوعه في أشد أدوار الظلم والقسوة الهمجية التي يمكن أن تكون انعدمت فيها معاني الرحمة والانسانية والعدل والمنطق؛ وبحيث يثير الاشفاق والرأفة في أشد القلوب قسوة ، ويبعث أشد العجب من موت الضمير العالمي وسكوته على هذه المآسي والجرائم التي تمثل منذ عشرات السنين على مسرح هذه البلاد الشهيدة التي هي في سرة أوروبا بل وتكاد تكون في صميم نطاقها ، مما يعد وصمة عار لا تمحي عن جبين الحضارة الغربية وممثليها ؛ وبحيث يزداد المرء يقيناً بخرافة تلازم مبادىء الحرية وحقوق الانسان لفرنسا وثورتها الكبرى تجاه أي بلد أو شعب آخر ، ويزداد نقمة على أولئك العرب الجغرافيين خاصة الذين لا يفتأون دون ما خجل يقررون هذا التلازم ويشيدون بإنسانية فرنسا وعدلها وحريتها ضلالا وتضليلاً بينما يكون وجهها الاستعماري الكالح الكريه بارزاً كل البروز وفي أشنع مناظره في جزء كبير من وطنهم العربي منذ عشرات السنين . ويزيد في غصة هذه القصة وبشاعتها أن الأقطار المغربية كانت متمتعة باستقلالها آخذة بالسير في طريق الامم التي سبقتها في مضمار الحضارة فتصدت لها فرنسا بغياً وعدواناً بدافع الطمع والجشع والسلب والاستعمار ودون ما أي استفزاز ، واختطت فيها خطة رهيبة غايتها إلغاء المغرب العربي الاسلامي من الوجود إلغاءً واستبداله بمغـــرب افرنسي نصراني ، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والقومية والاجتماعية ، وإثارة النعرة الجنسية والتقاليد الجاهلية في البربر الذين اندمجوا في العروبة والاسلام منذ الآماد الطويلة وأصبحوا والعرب يؤلفون الشعب المغربي العربي الاسلامي لأجل التفريق والتوهين ؛ وعدتها الارهاب والتنكيل والتبشير والقذف بشذاذ الآفاق من الافرنسيين العاطلين والمتبطلين الذين ضاقت بهم بلادهم وسبل عيشهم فيها واختصاصهم بخيرات البلاد وبركاتها وثرواتها من أرض وزراعة وصناعة وتجارة ومعادن على حساب اهلها وإعدادهم ليكونوا اليد المعوانة على تلك الخطة الرهيبة .

ولعمر الحق انه ليجب على السوريين واللبنانيين خاصة أن يضاعفوا شكرهم لله عز وجل الذي أنقذهم من الكابوس الافرنسي الذي لو مد له الأجل وغفلت عنه الهمم ولم تنبهه الظروف القاهرة لكانت مآسيه الرهيبة التي يرسف فيها المغرب العربي

مقدرة عليهم ؛ وقد رأوا بوادرها الكريهة ، وخاصة اذا ذكروا ما كان يفكر فيه الافرنسيون من جلب عشرات الوف الاسر الافرنسية وتوطينها بين ربوعهم على ما جروا عليه هناك ؛ كما إنهم يجب عليهم أن ينتبهوا كل الانتباه وأن يحذروا كل الحذر ، لان تلك الروح الجشعة الشرهة المستعمرة ماتزال قائمة تحرق الأرّم على سوريا ولبنان وتترقب الفرص السانحة للكرة عليها ، ولا تني في بث سمومها ودعايتها بواسطة من اصطنعته منهم من المأجورين والضالين والمخدوعين .

كفاح المغرب ضد نكبته

ومن الحق ان يسجل أن المغرب العربي لم يقصر في مكافحة النكبة التي ابتلي بها، بل جاهد وما يزال يجاهد أروع جهاد في سبيل حريته واستقلاله على ما كان من كيدله في إضعاف قوته وسلب وسائله ، وتفوق عدوه ؛ وضحى بأعظم التضحيات، وكتب صفحات من نور في تاريخ البطولة والجهاد الوطني . وإذا كان المشرق العربي لم يكن على صلة وثيقة بذلك فمرد هذا إلى ما ضربته فرنسا على المغرب من ستار كثيف ، وما شغل هذا المشرق من شواغل ونكبات قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها .

على أن من فضل الله على الحركة العربية أن التقصير المتبادل قد انتهى بما كان من التقاء المغرب والمشرق أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في ميدان واحد ، وتواصلها تواصلاً من شأنه أن يشد من أسر هذه الحركة وحيويتها ، ويساعد على تحقيق أهدافها عاجلا أو آجلا على كل حال ؛ ولا سيما ان الروح في العالم كله آخذة بالتغير، وإنها ضائقة حتما بفكرة التسلط على الشعوب الضعيفة واستعبادها وحرمانها من حريتها وحقها في الحياة الكريمة المستقلة .

الفصل الأول

فرنسا والجزائر

- ١ -

حالة الجزائر قبل النكبة

إن أول قطر ابتلي بفرنسا وصار الجسر الذي امتد عدوانها عليه الى تونس شرقاً ومراكش غرباً هو القطر الجزائري .

ولقد استولى الاسطول العثماني في أواسط القرن السادس عشر على هذا القطر بشيء من اليسر لما يجمع بين سكانه والدولة العثمانية مـن وحدة الدين ورابطة الخلافة الاسلامية العامة، ولم يلبث أن قامت فيه حكومة تركية ارتبطت بالدولة المذكورة برباط خفيف من التابعية نظراً للبعد بينها وبين العاصمة وغدا مع الزمن إسمياً وفي نطاق شمول الخلافة التي تتسم بها هذه الدولة .

وهكذا كانت الجزائر مستقلة استقلالا تاما، وكان رؤساء الدولة الذين يتلقبون بلقب « الداي » يمتون الى العنصر التركي الذي استعرب وتأقلم، وكان لها اسطول قوي بلغت سفنه المسلحة بأربعين مدفعاً (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعاً فما دون (١٤٠) ، وكان عدد جيش الاسطول ثلاثين الفا، وكل هذا قبل الثورة الافرنسية أى في أواسط القرن الثامن عشر ، وكان للدولة بقوة هذا الاسطول صولة في البحر الابيض عادت عليها وعلى رعاياها بالثروات الطائلة .

وقد كانت الجزائر بخيراتها وثروتها وموقعها تحرك مطامع الدول الأوروبية البحرية ، وقد تحرش بها أكثر من دولة واكثر من مرة فلم تنل منها منالا .

ولقد انكسر الاسطول الاسباني مرة أمامها أشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما أتت الحملة الاسبانية الغازية به من سلاح وعتاد ومؤن ، وأعاد الاسبان الكرة فلقوا نفس المصير . ولقد قذفت أساطيل الدول الأوروبية مدينة الجزائر اكثر من مرة دون جدوى ، حيث كانت من أعظم مدن البحر المتوسط حصانة ان لم

تكن أحصنها ، وفيها من المدافع الضخمة ما يفوق في رميه وقوته مدافع تلك الاساطيل .

وفي إبّان ثورة فرنسا الكبرى وتألب الدول الأوروبية عليها مدت الجزائر يد العون اليها بالتموين ، حيث سمحت لها بشراء قمحها وأقرضتها بعض المال بدون فائدة برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك ، كما بادرت الى امدادها بما امكنها من مواد ووسائل نقل ومواش ، مما جعل نابليون أيام عهد قنصليته يزجي شكر فرنسا الحار اليها ، وفي سنة ١٧٩٥ اعتدت سفينة اسبانية على سفينة افرنسية وأسرتها على مقربة من الجزائر فسير الداي بعض سفنه وفك أسر السفينة الافرنسية واسترد ما سلبه الاسبان منها. ولقد كانت الصلات ودية بين فرنسا والجزائر بحيث كان بعض رعاياهذه أيضاً يمدون يد المساعدة الى تلك إبان محنتها. ومن ذلك ما أقرضه جزائري يهودي لفرنسا من قروض عديدة بلغت عدة ملايين اشترت بها فرنسا القمح والمواد الغذائية الأخرى وكان ذلك بتشجيع الداي وكفالته ، وقد استغلت فرنسا هذه الصلات الودية فأنشأت مراكز تجارية في بعض الانحاءالساحلية كانت فيما بعد نقطة ارتكاز للبغي والعدوان !

- ٢ -

النكبة وظروفها العدوانية

ولقد عاملت فرنسا الجزائر كما يعامل الضيف اللئيم مضيفه حيث ثار شرهها وطمعها فيها بدلا من شكرها والاعتراف بجميلها . فلم ينته دور امبراطورية نابليون ، ويستأنف دور البوربونيين ثانية وتستريح فرنسا من شدائد المحنة التي انتابتها خلال اربعين عاماً حتى أخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على ثرواتها وخيراتها وتكون لها مستعمرة ومستغلا ، فسلحت سراً بعض المراكز التجارية التي انشأتها ، واستسنحت فرصة انشغال بعض أقسام الأسطول الجزائري في الحرب العثمانية اليونانية التي استمدت الدولة العون فيها من الجزائر كما استمدته من محمد علي الكبير والي مصر ، فأصدرت تعليماتها لقنصلها بخلق فرصة مناسبة للعمل

وفي نيسان عام ١٨٢٧ خاطب الداي القنصل بلهجة حادة محتجاً على عدم اجابة حكومته على بعض مطالبه ورسائله فأجابه القنصل بإجابة جارحة أثارت غضبه وجعلته يضرب وجه القنصل بمروحته ويطرده من حضرته . فسارعت فرنسا الى إنذار الداي باعتذار لا يمكن ان يقبله فأعلنت عليه الحرب والحصار ، وأخذت تعد حملة كبيرة للغزو . وكانت السفن الجزائرية التي تحارب في مياه اليونان قد تحطمت مع ما تحطم من الاسطولين العثماني والمصري في واقعة نافارين ، فأضعفها ذلك أمام الحملة القوية التي أعدتها فرنسا وسيرتها في صيف عام ١٨٣٠ .

وكانت هذه الحملة مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه (١٠٣) مجهزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع ، ومن جيش مقاتل عدته اربعون الفا ، وأسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد مؤلف من نحو (٤٠٠) سفينة. وأنزل الافرنسيون قواهم في احدى النقاط الساحليه التي تبعد قليلا عن الجزائر وتحصنوا فيها وكانوا قد أعدوها لمثل هـــذه المناسبة من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن الملك شارل العاشر ودع الحملة بخطبة صليبية دلت على الروح التي كانت تحفز فرنسا الى البغي جاء فيها فيما جاء « ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها» وقد كان مثل هذه الروح من جملة الحوافز ونقاط الارتكاز الاستغلالية في صلة فرنسا بلبنان وسوريا ومطامعها فيها على ما ذكرناه في البابين السابقين ...

نجاح الغزوة الافرنسية

ولقد ظن الداي ان نزول الافرنسيين في النقطة التي نزلوا فيها ييسر له حصارهم وإبادتهم وكان واثقاً من قدرته على ذلك بما استطاع أن يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العدو كثيرا. ودارت رحى معركة عنيفة في تاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور على الافرنسيين فعلا ، غير أن تفوق القيادة الافرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الذي لم يلبث أن انقلب ضدهم، فاستطاع الافرنسيون أن يستولوا على المعسكر وما فيه وأن يحطموا خط الدفاع

الأول ، وأن يتقدموا نحو العاصمة ويحاصروا قلعتها ويضيقوا الخناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكرة . ولقد دافعوا عن القلعة حتى نفد ما عندهم من عتاد وهلك القسم الاكبر من المدافعين، وحينئذ أشعلوا النار في مخزن البارود فانفجر واندك البرج حتى لا يستولي عليه الافرنسيون سليما ، ثم تحرج الموقف فطلب الأهاون من الداي مفاوضة الافرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء إلا الاستسلام المطلق لان الغزوة لم تكن تهدف الى ما تهدف اليه حرب بين دولتين وإنما كانت تهدف الى سلب واستعمار ، فتقدم بعض أعيان المدينة موافقين على تسليم العاصمة وانتهاء حكم الدولة الحسينية (نسبة للداي حسين) .

معاهدة التسليم

وعقدت معاهدة بذلك كان من نصوصها تخيير الداي في مغادرة البلاد بأمواله أو البقاء فيها في حراسة فرنسا ، والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينية والمدنية وعدم التعرض لأموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فان الافرنسيين لم يتورعوا حينما دخلوا العاصمة من إعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات مما اضطر كثيراً من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد .

ولقد وجد الافرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات ذهبا وأربعة وعشرين مليوناً فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باردة .

وقد غادر الداي بلاده مع اسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هنا أخذ يتصل بأنصاره للانقضاض على الغزاة وقام فعلاً ببعض المحاولات أكثر من مرة ولكنه أخفق فاضطر الى نفض يده والانتقال الى الاسكندرية حيث استقر فيها الى أن مات عام ١٨٣٨ .

- ٣ -

التصرفات الباغية اثر الاستسلام

ولقد كان تصرف الغزاة في حملتهم الباغية سيئاً كل السوء وحشياً كل الوحشية لم يرعوا فيه عهداً ولا ذمة ولا شرفا ، ولم يستشعروا فيه بأي عاطفة من عواطف

الرحمة والرأفة والانسانية والدين مما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك عقب احتلال العاصمة أي في تموز عام ١٨٣٣ لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة . فقد احتوى تقرير هذه اللجنة فضائح يندى لها الجبين ، ومظالم تقشعر لهولها الجلود لم يكن يستهدف بها إلا الارهاب والاخضاع والسلب ، ولم يكن لها من موجب ، لأن البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقاً لمعاهدة وعدوا بها برعاية تقاليد اهلها وحقوقهم . وهذه مقاطع ممّا احتواه التقرير(١) :

« لو يقف الانسان لحظة متأملاً الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى أن سيره لم يكن مخالفاً للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضا ، حيث أننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب أبسط حقوق الشعوب الطبيعية قدتجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والأرواح ، وأضفنا الى ملكية الدولة أملاك المؤسسات الدينية وصادرنا املاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجزرعلى الأملاك الخاصة الشخصية دون أي مقابل ثم أجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم ! ولقد أرسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجالاً لم تثبت إدانتهم ولم تجر محاكمتهم ، وقتلنا رجالاً يحملون جوازات المرور ، وذبحنا جماعات من السكان بصورة إجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم ، وقدمنا للمحاكم رجالا مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين. وقد وجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم . ولقد ألقينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجيء ومؤن . لقد أطلقنا على الخيانة والغدر اسم المفاوضة وجعلنا منها كميناً للغدر والتقتيل . وبكلمة موجزة لقد تجاوزنا بربرية البرابرة الذين جئنا لتمدينهم ثم ظللنا نشكو إخفاقنا فيهم . »

ولقد أثار هذا التصرف نائباً افرنسياً حـراً اسمه دي شاد فوقف في مجلس النواب الافرنسي في نيسان عام ١٨٣٤ يندد به ويذكر بعض مشاهده وقد قال فيما قال : لقد هدمنا في الجزائر تسعمئة بيت دون اتخاذ أي إجراء ودفع اي

(١) من كتاب القضية الجزائرية لدوريان و. م لويف

تعويض واستولينا على ستين مسجداً وهدمنا منها عشرة وحوّلنا بعضها الى كنائس ودسنا المقابر وبعثرنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه. ولقد كانت مدينة الجزائر قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة وكانت ضواحيها تماثل ضواحي مرسيليا في بهجة المناظر، ولكن كل ذلك قد زال بعد أن اجتيحت حيث خربت سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور واتخذت سقفها حطباً واقتلعت الأشجار وجعلت وقودا ..

ولقد احتوى تقرير مفصل لقنصل افرنسي وصفاً مروعاً لبعض ما كان في مذبحة أوقعها جيش الاحتلال في نيسان عـــام ١٨٣٢ في منطقة الولايقة لمجرد شكه في اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية حيث قال إن الحملة فاجأت القبيلة عند بزوغ الشمس فذبحت كل افرادها دون أن يستطيع أي منهم دفاعاً وقضت على كل حي دون تمييز بين شاب وشيخ وامرأة ورجل وعاد الجنود حاملين رؤوس الضحايا على رماحهم. أما الأغنام التي وجدوها في ساحة المأساة فقد بيعت لقنصل الدانيمارك، وأما بقية الغنيمة وهي مسلوبات المذبوحين فقد عرضت للبيع في سوق عام حيث تشاهد أساور النساء في المعاصم المبتورة التي ظلت الأكف الدامية عالقة بها وحيث تشاهد أقراط النساء وبقايا اللحم متدلية منها. وبعد توزيع حصيلة السلب بين الذابحين صدر بلاغ يومي يوم ٨ نيسان ١٨٣٢ يبارك هذا العار حيث يعرب عن مدى الرضا البالغ الذي شعر به الجنرال إزاء الحزم والكفاءة التي أظهرها جنوده البواسل ..

- ٤ -

مقاومة أهل البلاد

على أن أهل القطر لم يستسلموا باستسلام العاصمة، وازداد نفورهم من التصرفات الوحشية التي أخذت اخبارها الرهيبة تنتشر فتملأ القلوب رعبا، وأخذت كل ناحية من أنحاء القطر تستعد للدفاع وتحصّن مواقعها وتنظم وسائل مقاومتها، غير أنها لم تتحد تحت قيادة واحدة. فكان هذا من أسباب إخفاقها حيث تمكن الافرنسيون من القضاء على مقاومة النواحي واحدة بعد اخرى بالمكر والدس والقوة الغاشمة معاً.

جهاد الامير عبد القادر

وكان أهم الحركات النضالية ضد الافرنسيين حركة الامير عبد القادر . فقد اجتمع رؤساء القبائل في الأنحاء الغربية فبايعوه بيعة شرعية بالأمارة وعاهدوه على السمع والطاعة وكان ذلك عام ١٨٣٢ ، فأنشأ دولة في هذه الأنحاء وأخذ يستعد للنضال ، وقد جنح القائد الافرنسي الى مسالمته ريثما يتمكن من الأنحاء الاخرى فاعترف بأمارته . ولقد أهاج هذا باريس وحملها على استبدال القائد وزودت الجديد بالمدد والأمر المحتم بالقضاء على دولة الأمير الفتية ، غير أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وانتصر الامير عليها وأوقع فيها جسيم الخسائر ، فسيرت عليه حملة اخري نجحت في احتلال عاصمة الامير « المعسكر » وإحدى مدن أمارته الكبرى « تلمسان » . وكان الامير جنح الى حرب الكر والفر دون معركة كبيرة ، وظل كذلك يزعج الافرنسيين الى أن اضطروا الى التعاهد معه عام ١٨٣٧ والاعتراف بأمارته في مقاطعة وهران مقابل اعترافه بسلطتهم على مقاطعة الجزائر وغيرها مما دخل في حوزتهم . وسنحت للامير بذلك فترة سلم تفرغ فيها لتنظيم دولته وتدريب جنده والاستعداد للطوارىء . وكان الافرنسيون مشغولين في هذه الفترة في إخضاع المقاطعات التي لم تكن قد خضعت لهم بعد .

نهاية الامير

فلما تم لهم ذلك التفتوا الى الامير ليصفوا الحساب معه ، وأخذت تدور بين الفريقين حروب ومعارك عديدة ، والتزم الامير طريقة الكر والفر وعمد الافرنسيون الى الدس والاغراء ونجحوا في تخذيل بعض القبائل عنه ، وحاول الامير ان يجد في الارض المراكشية ملجأ للاستجمام والتنظيم فأنذر الافرنسيون سلطانها فاضطر هذا الى منع الامير من اتخاذ بلاده قاعدة لحركاته مع الالم والحسرة ، ومع كل هذا وبالرغم من تضييق الافرنسيين الخناق عليه واستيلائهم على مخياته وأسرهم بعض

اسرته وعدداً كبيراً من خلص انصاره ومصادرتهم لأمواله ظـــل يصول ويجول ويكر ويفر حتى انتهكت منه القوى وفقد القدرة على الاستمرار ولم يبق له مناص فاستسلم عام ١٨٤٧ حيث بقي في أسر فرنسا الى عام ١٨٥٢ ، ثم غادرها الى البلاد العثمانية واستقر في دمشق حيث توفي فيها .

وحشية الافرنسيين في سياق حرب الامير

ولقد كان الجنرال سان أرنود احد قواد الحملات الافرنسية يبعث لأخ له في فرنسا رسائل خلال سنتي ١٨٣٨ - ١٨٥١ احتوى بعضها مشاهد عديدة لما كان من تصرف هذه الحملات اثناء حروبها مع الامير والمقاطعات التي لم ترد أن تضع رقابها تحت أقدام الغزاة تدل على أن ذلك التصرف الوحشي الرهيب الذي وقع في مدينة الجزائر وضواحيها اثناء الحملة الأولى وعقبها قد ظل مستمراً في هذه الحملات بنفس الروح والهدف وهمـــا الارهاب والسلب ودون أن يستشعر في ذلك بأي عاطفة من عواطف الانسانية والعرف والرحمة والشرف . فقد جاء في رسالة له بتاريخ ٧ ماوس ١٨٤١ بعد غزو مدينة قسطنطينة « إنّ الحرب لم تبق حياً لأننا لا نأسر أسرى . ولقد بدأ الجنود السلب ثم تبعهم فيه الضباط وانتهى اكبر سهم مـــن المسلوبات والغنائم الى ايدي القائمين على الجيش وضباط قيادته العليا وهو ما يحدث دائماً. اننا ندمر كل المدن ونجتاح كل املاك الامير. وسوف يجد الجيش الافرنسي في كل مكان وبيده اللهيب . وفي رسالة بتاريخ ٥ نيسان ١٨٤٢ : نحن الآن في جهات مليله وسرشال نحرق كل الخيام وكل القرى وندمر كل المغاور.. وفي رسالة في ٧ نيسان ١٨٤٢ : ان بلاد بني نصر جميلة جداً وهي أغنى بلاد رأيتها في أفريقيا الشمالية . لقد حرقناها كلها ودمرناها تدميراً..وفي رسالة بتاريخ ٥ مايس ١٨٤٢: اننا قلما ندخل في معارك ونحـن دائبون عـلى نهب المساكن وتدميرها.وفي رسالة بتاريخ ٥ تشرين الاول ١٨٤٢ : ها أنا محاط من كل الجهات بالسنة النيران التي أشعلتها في القرى والبيوت بعد تفريغ ما فيها من مخزونات لقد جاء بعض اهلها الى الاستسلام فرفضت لاني اريد استسلاما شاملا وها أنا ذا مستمر في التحريق . وفي

سارلة ٢ تشرين الثاني ١٨٤٢ : ذهبت الى جيمو وأشعلت النار في كل مكان في طريقي وحرقت هذه القرية الجميلة . وكان الجنرال بيجو قد غادرنا قبل الى مثل مهمتي. وكانت النيران تشتعل فوق الجبال وكنت اشاهد ألوفا من الجثث المتراصة على بعضها وهي تلقى في النار . انها جثث بني نصر التي حرقنا قراها ومساكنها . وفي بلاغ ارسله هذا الجنرال السفاح الى قائد فصيل له يقول : ان كل القبائل والسكان الذين لا يقبلون شروطنا يجب ان يسحقوا وان نستولي على كل اموالهم واملاكهم وأن يبادوا دون تمييز بين ذكر وانثى ، بل يجب ان لا ينبت النبات حيث وضع الجيش الافرنسي قدمه .. وفي احدى الرسائل التي أرسلها قائد هذا الفصيل الى جنراله : ان النساء والاطفال المختفين وراء الاشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل ونذبح واصوات المحتضرين والمولولين تختلط بأصوات الحيوانات التي تجأر بجانبهم .. وفي رسالة له ثانية : اننا نبقي بعض النساء اللاتي نستولي عليهن ونبادل بعضهن بالخيول ونبيع بعضهن بالمزاد .

وفي كتاب صيد الانسان الذي نشره الكونت دي هيس سيون وردت مذكرة لضابط من ضباط الحملة جاء فيها: اننا حملنا برميلاً مملوءاً بالآذان المصلومة من الاسرى ، وان عدد ما قضينا عليه منهم برصاص البنادق وطعنات الحراب أكثر من أن يحصى . ومن بين هؤلاء اشخاص دلونا على مخازن للقمح وجدناها فارغة . أما المدن والقرى التي احتللناها فقد كانت محرّقة منهوبة . وقد أتلفت جميع مخزوناتها كما دمر نخيلها وأشجار مشمشها . وقد تم هذا دون اطلاق رصاصة واحدة في معركة .

ولقد كان من الفظائع التي ارتكبت بأمر من الجنرال روفنو وبامر الجنرال روفنو إبادة قبيلتي شميلة وأولاد ريا خنقاً بالدخان بالرغم عن إعلانها الرغبة في الاستسلام .

- ٥ -

خطة الاستعمار وهدم الكيان

ومُذ لاحت للافرنسيين بشائر نجاح حركتهم الباغية في الجزائر اختطوا خطة جعل هذا القطر مستعمرة إفرنسية محرومة من أي لون من الوان الحكم الوطني . فأنشأوا إدارة مدنية لتنظيم مصالح الحكومة تحت إمرة القيادة العسكرية . وكان من أول ما فعلوه وضع اليد على املاك ضباط وجنود الجيش الجزائري وأراضيهم في السهول الخصبة المحيطة بمدينة الجزائر وإقطاعها للمستعمرين الأفرنسيين الذين صحبوا الحملة. ثم أخذوا يشجعون غيرهم على الهجرة إلى الجزائر ويقطعونهم الأراضي مجاناً أو يهيئون لهم شراءها بأبخس الأثمان. وكان شعارهم الفتح بالسيف والمحراث معاً وكان كل مستعمر يعد جندياً رديفاً فيسلم له السلاح والارض ووسائل العمل معاً ، فلم تنته مقاومة الأمير عبد القادر عام ١٨٤٧ حتى كان عدد المستعمرين مئة وعشرين الفاً ! وقد سنت السلطات قوانين للخدمة الاجبارية توجب العمل الاجباري على الجزائريين في كل مشروع عام تعلنه ، وبالاجرة التي تقدرها تحت طائل العقوبة على المتنعين ، واعتبرت العمل في مزارع المستعمرين من المشاريع العامة فيسرت بذلك لهؤلاء بالاضافة الى الأرض المجانية اليد العاملة الرخيصة والتحكم بأجورهم تحكم السادة بالعبيد .

التجارب الفاشلة والثورات

وفي السنة التالية لاستسلام الامير قررت الجمعية الوطنيه الافرنسية إعتبار الجزائر أرضا إفرنسية وتطبيق شرائع فرنسا عليها ولكنها لم تمنح الحقوق السياسية إلا للافرنسيين المستعمرين فقط ، وهو ما لا يمكن أن يدخل في منطق غير منطق الاستعمار الافرنسي الذي اختط خطته الرهيبة . فالجزائر إفرنسية ولكن الجزائريين غير إفرنسيين . وهذا يعني أن قرار الجمعية هو جعل الجزائر ملكاً للشعب الافرنسي أرضاً وسكاناً !! وقد ظل الجزائريون بعد هذا القرار تحت

كابوس الحكم العسكري الارهابي ، بما كان يثير القبائل حيناً بعد حين ، حيث ثارت قبائل الجرجرة ثم قبائل أولاد سيدي الشيخ واستمرت ثورتهم مدة طويلة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر .

ولقد جنح الامبراطور نابوليون الثالث إلى التنفيس عن العرب وتهدئة خواطرهم أثناء ثورات القبائل العنيفة ، فأعلن أنه إمبراطور العرب كما هو امبراطور الافرنسيين ، وأن العرب يجب أن يلقوا العدل والمساواة أسوة بهؤلاء ، وأصدر بعض الاوامر والتشريعات التي تتسق مع هذا الاعلان وتؤدي إلى قيام حكومات محلية وطنية ، فثارت ثائرة المستعمرين ورجال السلطة الافرنسية في الجزائر ، وأقاموا في سبيل تحقيق عزيمة الامبراطور العراقيل . وكان أن اشتبكت الحرب بين فرنسا والمانيا عام ١٨٧٠ وأن سقطت الامبراطورية وقام عهد الجمهورية الثانية ، ورأت هذه أن تكون الجزائر دار هجرة وإستعمار للنازحين عن الالزاس واللورين فكان في كل هذا القضاء على تلك البادرة التنفيسية ، وأخذ سيل المهاجرين يتدفق على الجزائر فيقطعون الاراضي ويمنحون ما يحتاجون اليه من وسائل العمل مجاناً ، حتى لقد أنشىء بين سنى ١٨٧٥ - ١٨٨٠ نحو مئتي مستعمرة ، وتجاوز عدد المستعمرين عام ١٨٨١ نصف المليون .

قانون الارهاب

وفي سنة ١٨٨١ قامت ثورة جديدة في جنوب وهران وبلاد الزاب أزعجت الافرنسيين أيما إزعاج ، غير أنهم قمعوها في النهاية واستولوا على اراضي الثوار وأخذوا يمنحونها للمستعمرين الوافدين . ثم سنوا قانوناً جزائياً ارهابياً اسمه « الانديجين » أناطوا الحكم به بالحكام الاداريين بحيث يستطيع هؤلاء أن يحكموا بالسجن لمدة خمس سنين على كل من يتفوه بما لا يليق في حق فرنسا وحكومتها ، أو لا ينفذ أمر الحراسة او يتهاون فيه ، أو يتمنع عن تسليم وسائل النقل والمونة والمـــاء والوقود بالتسعيرة التي يضعها الحكام ، أو يسهو عن قيد المواليد والوفيات ، أو لا يحترم القرارات الادارية في قسمة الارض المشاع ، أو يتأخر عن دفع الضرائب أو عن الاجابة الى دعوة المراقبين الافرنسيين ، أو يؤوي شخصاً من غير أهل

منطقته،أو يسكن في مكان غير مكان اقامته بدون إذن،أو لايسجل قدومه ومغادرته بلداً ليست بلده ، او يزور مقاما من مقامات الاولياء أو يقيم له نذراً بدون اذن، أو ينشيء مسجداً او زاوية او مدرسة بدون اذن ، او لايساعد السلطات الادارية في أي شيء تطلبه منه الخ فكان هذا القانون سيفاً مصلتاً وكابوساً مفزعاً قاسى منه العرب الشدائد والمحن وسيطر الافرنسيون في ظله على مختلف مرافق البلاد .

- ٦ -

الحكم المدني بعد الحكم العسكري

وفي اواخر القرن التاسع عشر انتهى عهد القيادة العسكرية بعد ان دام نحو ٦٠ عاماً ، وقام مقامه حكم مدني افرنسي ، وغدا اسم « فرنسا الافريقية » يطلق على الجزائر ، وصار يمثلها في البرلمان نواب وشيوخ ينتخبهم المستعمرون فقط استمراراً للجاري، والغي ما بدىء بانشائه في عهد الامبراطورية الثالثة من حكومات محلية ، وجعلت الجزائر ثلاث مناطق افرنسية ، وغـــدت الوزارة الافرنسية مصدر الحكم والسلطات بطريق الوالي العام الذي يمثلها كما غدا التشريع الجزائري يصدر عن البرلمان الافرنسي ، وظل اهل البلاد في منأى عن كل ما يتصل ببلادهم من تمثيل وحكم وتشريع مع تسميتها بافريقية الافرنسية وغدوها منطقة افرنسية وتطبيق الشرائع الافرنسية عليهم فيها .

وفي سنة ١٩٠١ أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة فأدى هذا الى ضبط كافة الاوقاف الاسلامية التي كانت تقوم بأود المساجد ورجال الدين والقضاء الاسلامي، وادخلت ضمن املاك الدولة ، وانيطت ادارة المساجد والقضاء الشرعي بمصلحة افرنسية ، وابيح منح الاراضي الوقفية للمستعمرين بأثمان بخسة جداً ولآجال طويـــلة الأمـــد .

وعلى ان فرنسا عادت فرأت أن الفرق الشاسع والتباين الكبير بين سكان فرنسا والجزائر وحالتيها الاجتماعية والثقافية أشد مـــن أن تسمح بحكم الجزائر حكما افرنسيا مماثلا لفرنسا في التشريع والادارة .

نظام الدومنيون ومسخه

فقررت عـــام ١٩٠١ ان تجرب فيها نظام الدومينيون البريطاني ، فانشىء للجزائر برلمان محلي كما انشىء فيها مصالح وسلطات محلية متنوعة ، وجعل للحاكم الافرنسي العام مجلس خاص من سكان الجزائر الافرنسيين والعرب . غير ان التجربة كانت تقليداً مسيخاً لم تؤد الى نتيجة صالحة ، لان الافرنسيين لم يستطيعوا ان يهضموا فكرة التخفيف من السيطرة على كل شيء ، والتخلي عن شيء مـــن الصلف ، او يفهموا حق شعب الجزائر في بلاده . وظل الوالي العام الافرنسي هو القابض على زمام الامور صغيرها وكبيرها ، ويتلقى الاوامر مباشرة مـن وزير الداخلية، وظل مع هذا عدد غير يسير من دوائر الحكومة المهمة كالجيش والبحرية والمعارف والموازنة تابعة للوزارة الافرنسية رأسا،وظل اكثر الوظائف الحكومية المهم منها والثانوي في يد الافرنسيين ، ولم يكن لسكان الجزائر وخاصة العرب المسلمين الذين هم الاكثرية العظمى اي كيان واثر ايجابي في هذا النظام الذي كان مفروضاً أنه انشىء لهم ، وكانت غالبية المجلس الخاص والبرلمان المحلي اللذين اشرك فيها الجزائريون افرنسية مع اعتبار قراراته استشارية .

التجنيد الاجباري

وفي عام ١٩١٢ فرضت فرنسا الجندية الاجبارية على المسلمين ، وكان القانون يقضي بخدمة الجزائري المسلم ضعف المدة التي يقضيها الافرنسي دون ان يكون بينهما اي مساواة في المرتبات والمراتب والمعاملة ، فحمل هذا خاصة مع ما كان من اضطهاد وحرمان شديدين كثيراً من المسلمين على النزوح عن وطنهم الى بلاد الشام وغيرها من البلاد الاسلامية .

- ٧ -

ونشبت الحرب العالمية الأولى فأعلنت الأحكام العسكرية في الجزائر وأصلت سيف الارهاب فوق الرؤوس أشدمما كان قبلها على شدته وقد جند من الجزائريين

ربع مليون جندي ومئة الف عامـــل أرسلوا الى جبهات اوروبا ومعسكراتها ، وزيدت الضرائب وطرحت التكاليف التموينية الباهظة على الأهلين وحظر عليهم الاجتماعات والتنقلات وحيازة السلاح ، وانشئت المحاكم العسكرية الـــتي كانت تصدر الأحكام القاسية لأتفه الاسباب والتهم والمخالفات .

ولقد كانت فرنسا الى هذا تغدق لهم الوعود وتبشرهم بحياة سعيدة بعد النصر ؛ فلما تم لها ذلك وقد هلك منهم مئة الف كان كل ما فعلته لهم تخفيف أحكام ذلك القانون الارهابي الذي ذكرناه وبعض الضرائب ، وتوسيع نطاق ممارسة انتخاب المجالس البلدية والمحليـــة والسماح بتشكيل الجمعيات المحلية واهتمامها لشؤون الأهلين ، وتوسيع نطاق التعليم بعض الشيء ، مع الاحتفاظ بأساس بقـاء الجزائر ضمن افرنسيتها المقررة. على أن الروح الاستعمارية الافرنسية جعلت هذهالتعديلات التافهة بدون ثمرة مجدية وظلت حالة الحرمان والاضطهاد الشديدة هي القائمةالمستمرة على أشد ما يكون من بغي وسوء .

صور لما كانت عليه الجزائر الى سنة ١٩٣١

وبين يدينا كتابلم يكتب للدعاية والتسويء وقد طبع في الجزائر وهو موثق بالأرقام والاحصاءات والوقائع صدر عام ١٩٣١ أي بعد مرور مئة عام على ابتلاء هذا القطر بفرنسا وبعد اربع عشرة سنة من انتهاء الحـــرب العالمية التي أغدق الافرنسيون فيها الوعود للجزائريين يستطيع المرء ان يتبين منه ما كانت عليهحالة البغي والسوء والحرمان والبؤس التي ظـل يرتكس فيهـــا الجزائريون وهـو كتاب تاريخ الجزائر للمدني . واليك مقتبسات من هذا الكتاب تصور الحالةالسيئة الرهيبة التي كانت عليها الجزائر في عام صدوره .

التعليم

فالتعليم الذي ينفق عليه من ميزانية الجزائر نوعان واحد للمسلمين وآخـــر للأوروبيين . ونسبة الامية في المسلمين خمس وتسعون في المئة . وعـدد الذين هم في مداوس الحكومة منهم ستون الفا بينما كان عدد المسلمين اذ ذاك اكثر مـــن

سبعة ملايين وعدد الذين هم في سن الدراسة اكثر من مليون . وبعبارة ثانية ان نسبة الذين هم في هذه المدارس اقل من ست في المئة من الذين هم في سن التعليم مع ملاحظة ان هذا بعد ان وسعت السلطات نطاق التعليم بعض الشيء. وللقارىء ان يستنبط نسبة التعليم قبل هذا التوسيع المزعوم ! ومع ان مدارس المسلمين تسمى المدارس العربية فانحظ العربية والدين الاسلامي فيها ضئيل جداً، ومناهجها افرنسية صرف . هذا في حين ان عدد الطلاب الاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم (١٣٦٠٠٠) من عدد مجموعهم البالغ (٩١٣٠٠٠) وان نسبة الذين هم في المدارس منهم اكثر من ثمانين في المئة من مجموع الذين هم في سن التعليم . وفي الجزائر عدد غير قليل من المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية ، ولكن جل مقاعدها مخصص لابناء الاوروبيين ونصيب المسلمين فيها ضئيل جداً ، وتعليم اللغة العربية والديانة الاسلامية لايدخل في مناهج هذه المدارس .

وفي الجزائر جامعة تحتوي أربع كليات للطب والصيدلة والعلوم والآداب والحقوق ، وجل مقاعدها مخصص لابناء الأوروبيين وليس فيها من أبناء المسلمين إلا (٧٥) طالباً .

ومست الحاجة إلى قضاء شرعيين فأنشئت مدرسة لتخريجهم ضيقة النطاق ضعيفة المنهج والروح ولم تكن تتسع لأكثر من مئة طالب .

وقد أنشئت بضع مدارس مهنية ابتدائية جاءت ضيقة النطاق ضيقة المنهج والروح كتلك ولم تأت بفائدة عملية ومثمرة .

ومع انه هناك عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية للبنات إلا انها هي الأخرى تكاد تكون محتكرة للبنات الأوروبيات وحظ الفتاة الجزائرية فيها قليل جداً او يكاد ان يكون معدوماً .

وقد وضعت العراقيل المتنوعة في وجه ابناء المسلمين الذين يرغبون في إرتياد مناهل العلم في فرنسا وغيرها ، فكان الذين يتيسر لهم التغلب على هذه العراقيل أو التهرب منها يعدون على الاصابع .

هدف التعليم

وهدف التعليم الرسمي لأبناء المسلمين هو تنشئة أجيال متفرنسة لا تعرف العروبة والاسلام . ويتحقق هـــذا الهدف بمن يخدمون الجندية منهم حيث يقضون مدة طويلة في أوساط إفرنسية . ويبــذل المسلمون الذين هم شديدو التمسك بعروبتهم وإسلامهم جهوداً عظيمة في مكافحة هذا الهدف مندفعين بقوة الغيرة على المقدسات والتقاليد والكيان بما ينشئونه من كتاتيب عربية ومدارس قرآنية مسجدية على شدة ادقاعهم وضعف تنظيمهم . وقلما ينالون مساعدات مالية من السلطات في هذا السبيل مع ان هذه السلطات تتصرف بأموال الأوقاف الاسلامية ، وكل ما هناك ان جامع الزيتونة الذي يشبه في نظامه جامع الازهر يبذل جهودا عظيمة في حفظ العروبة والاسلام والكيان .

الحالة الصحية

والحالة الصحية عند المسلمين سيئة جـــداً . والفقر المدقع الذي ترتكس فيه غالبيتهم العظمى من أهل المدن والقرى وعمال المــدن يحول بينهم وبين التطبب والعلاج . ومن ثم فإن الامراض الخبيثة والوبائية تفتك فيهم فتكاً ذريعاً دون مبالاة من السلطات . وقــد ذكر أحد الكتاب الافرنسيين أنه تقدم في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ (١٨٦٠٧) شباب للجندية منهم تلبية للدعوة فوجد أن (٨٢٦٨) منهم لا يصلحون للخدمة بسبب سوء حالتهم الصحية . وكذلك وجد من (٨٤٨٤) ممن دعوا إلى الخدمة في مدينتين أخريين (٣٤٤١) لا يصلحون لهـا . واستدعت السلطة عام ١٩٢٣ في وهران (١٤٦٤٢) للخدمة فوجد بينهم (٥٤٤٦) لا يصلحون لها منهم (٢٦٧٣) بسبب ضعف البنية وانحطاط القوة و (١٦٥١) بسبب امراض العيون و(٢٥٣) بسبب السل و (٣٦٨) بسبب الزهري و(٢١٨) بسبب الحمى المزمنة و (٢٥٣) بسبب الانحلال الجسمي الناشيء عـن عدم كفاية التغذية . والمدن والأرقام المذكورة أمثلة يقاس عليها سائر الأماكن بطبيعة الحال . وقــد كانت نسبة الوفيات في الاطفال عام ١٩٢٥ كما نشر في تقرير رسمي (٤٤) في الالف عند

الاوروبيين بينما كانت عندالمسلمين (١٣٨) . ولقد انشأت السلطات (٩٧) مستوصفاً للأهالي وصفها كاتب إفرنسي بقوله انه لا يستطيع ان يصف حالتها اي قلم سوء بناء وقذارة وانعدام عناية وفقدان أبسط وسائل الاسعاف .

تنظيم سلب اراضي الجزائر

واراضي الجزائر الزراعية والحرشية تبلغ نحو واحد وعشرين مليون هكتار او مئتين وعشرة ملايين دونماً على تفاوت في الخصب والصلاح . وأملاك الدولة والبلديات منها نحو تسعة ملايين هكتار وأملاك الأهالي نحو ذلك . اما املاك المستعمرين فقد بلغت نحو مليونين ونصف هكتار منها نحو مليون وسبعمئة الف وزعت عليهم رسميا بإسم الاستعمار الرسمي بأثمان إسمية ولآجال طويلة . والباقي اشتروه من الاهالي بمساعدة السلطات وضغطها بابخس الاثمان . وقيمة الهكتار الذي في يد المستعمر تقدر بخمسة وعشرين الف فرنك بينما قيمة الهكتار الذي في يد الاهلين لا تزيد عن ثلاثة آلاف فرنك مما يدل على ان ما في يد اولئك هو اجود الاراضي واخصبها واعمرها . وعلى هذا الحساب فإن قيمة اراضي المستعمرين إثنان وستون مليار فرنك بينما قيمة اراضي الاهالي التي هي ثلاثة أضعاف ونصف هذه مساحةً سبعة وعشرون مليار . وعدد المستعمرين هو (٩١٣) الفا . وقياسا على الماضي يمكن ان يقال ان قسما كبيراً من اراضي الدولة والبلديات التي من ضمنها اراضي الاوقاف الاسلامية والتي صودر شيء كثير منها من الاهالي في مبادىء الغزوة قد تسرب الى المستعمرين خلال المدة التي انقضت بين سنة صدور الكتاب الذي ذكر هذه الارقام وهي ١٩٣١ وبين سنة ١٩٥٠ (١) والتي ظلت قوافل المستعمرين مستمرة فيها بخصوات حثيثة ، وان عدد المستعمرين قد تجاوز المليون والربع ، وان ثروتهم الزراعية قد تضاعفت بينما ثروة الاهلين قد تضاءلت ، وفقرهم قد اشتد كثيراً عن قبل .

---

(١) في خطاب القاه نائب جزائري في مجلس النواب الافرنسي في ٢٠ آب ٩٤٧ تصديق لذلك والخطاب منقول في مناسبة آتية من هذا الفصل

الفقر المدقع

وقد ادى هذا الى ان أصبح أغلب سكان القرى والبراري عمالاً زراعيين عند المستعمرين بل وان اصبحت حالتهم شبيهة بحالة عبيد الارض في القرون الوسطى والاخيرة لا يكادون يحصلون على ما يسد الرمق ويستر العورة . وتضع السلطات شتى العراقيل في وجه من يريد النزوح الى فرنسا للعمل فيها منهم لئلا يفقد المستعمرون اليد العاملة الرخيصة . ومما يجدر التنبيه عليه ان المستعمرين يعتمدون في اعمالهم الزراعية على رؤوس اموال متخمة تهيئها لهم المصارف والشركات والجمعيات التعاونية كما ان الآلات الحديثة تشغل حيزاً كبيراً في هذه الاعمال . ويكاد المسلمون أن يكونوا محرومين من كل ذلك . والسلطات في شغل عنهم بما أخذته على نفسها من تشجيع الاستعمار الأوروبي وترقيته وتوسيعه على حساب الضرائب التي تجبى منهم !

ومن أراضي الدولة والبلدية مساحات واسعة غابات ، غير أنها نعمة على الأوروبيين ونقمة على المسلمين ، حيث تهيأ للأولين كل وسائل الاستثمار بينما يرهق الآخرون بالغرامات والمصادرات لأتفه الأسباب .

الكروم

وقد كاد المستعمرون يحتكرون زراعة الكروم وعصيرها ، حيث كانوا يملكون في سنة ١٩٣١ نحو مئتين وخمسين الف هكتار ، ويستخرجون منها ما معدله عشرة ملايين هكتو ليتر من الخمور سنوياً بينما لم يكد يبقى في يد المسلمين شيء من كروم العنب . اما كروم الزيتون فقد كان المستعمرون يملكون في تلك السنة نحو نصفها .

المعادن

وفي الجزائر معادن ومناجم كثيرة وغنية من فسفات وحديد وزنك ورصاص ونحاس وزئبق ونفط ورخام وفحم وجص . واستثمار هذه المعادن محتكر في يد

الأوروبيين . وقد كان عدد الامتيازات التي نالوها لغاية سنة ١٩٢٧ (١٢٧) وكانت قيمة ما اصدرته شركات الاحتكار من هذه المعادن في تلك السنة مئتي مليون . وقياساً على الماضي فما لاشك فيه ان استثمار الاوروبيين لمعادن الجزائر قد اتسع وان قيمة الانتاج والكسب قد تضاعفت أضعافاً مضاعفة وكل ما للمسلمين من ثروة بلادهم المعدنية العظيمة هذه إشتغال بضعة آلاف عامل بالاجور البسيطة وبالتحكم الذي يشبه تحكم السادة بالعبيد .

الصناعة

كذلك الصناعة فان الاوروبيين قدانشأوا شركات ضخمة واسسوا مصانع عظيمة دعمتها منشآت ومصارف قوية فغدت الصناعات والمنشآت الآلية الكبيرة محتكرة في ايديهم تقريباً بحيث كان لهم في سنة ١٩٣١ (١٥٠) مطحنة كبرى و (٥٥) معجنة كبرى و (٥٠٠٠) معصرة زيت و (٥٠) معملا للدخان وثمانية معامل كونسروه على انواعها ومعملان للثقاب و (٥٤) معملا للدباغة و (٥٨) مصنعاً للبراميل و (١٥) معملا للاحذية و (٨١) معملا لصناعات متنوعة أخرى ! ولم يستطع المسلمون ان يجروا في هذا المضمار جريا ذا بال لقلة المال وكثرة العراقيل وكل ما لهم في هذه الحركة بضعة آلاف من العمال يعيشون على فتات المعامل الأوروبية المذكورة . وقد كانت لهم صناعات يدوية ناجحة فلم تزل المزاحمة الاوروبية والسياسة الجمركية تشدد عليها حتى قضت عليها تقريباً .

التجارة

وتكاد التجارة تكون محتكرة أيضاً في يد الأوروبيين وليس للمسلمين فيها الا نصيب ضئيل . وما يصدر من الجزائر من خمور وحبوب ومجففات وحمضيات ودخان وجلد انما يصدر عن ايدي الأوروبيين والبيوتات التجارية الأوروبية ، التي تستولي على ما ينتجه المسلمون من غلات زراعية متنوعة بالاسعار البخسة وتتولى تصديرها . وقد فتحت ابواب الجزائر على مصراعيها للسلع الافرنسية بنوع خاص

واستثنيت تقريباً من الرسوم الجمركية ، واحتكرت استيرادها البيوتات التجارية الاوروبية فغدت الجزائر سوقاً عظيمة لهـذه السلع محمية من المزاحمة الاوروبية ومتحكمة في هذه السوق .

التجنس

ولقد فتح للجزائر باب التجنس الذي يسمح لهم بالتمتع بالحقوق الافرنسية . غير انه اشترط على من يريد التمتع بهـا ان يتعامل بالقانون المدني الافرنسي في الأمور الشخصية والمدنيه من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة الخ دون القانون المدني الاسلامي . فكان هذا الشرط وظل حائلا دون اشتراك المسلمين في الانتخابات البرلمانية الافرنسية والانتخابات المحلية المخول حقها للافرنسيين ، ودون انتفاع الموظفين المسلمين بالامتيازات الممنوحة لزملائهم الافرنسيين في المرتبات والدرجات والاجازات الخ ، ولم يستجب الى هذا الشرط الا فئة قليلة منهم . والمتبادر أن فرنسا قد هدفت في هذا الشرط الى هذه الغايات والاعتذار به عنها لأنها تعرف شدة تمسك الجزائريين بتقاليدهم الاسلامية ؛ وفي هـذا ما فيه من المكر وسوء النية والروح العدوانية ، وهو مخالف للمنطق والعقل بل والحق الدولي . ولكن روح الاستعمار الافرنسية لم تكن لتعبأ بمثل هذا المثل .

وبالرغم عما يخسره المسلمون من هذا الموقف فانهم متشددون فيه كل التشدد . ويرون في الشرط انخلاعاً من ربقة الاسلام والكيان العربي الجزائري كما هو كذلك حقيقة . ولقد غدا الذين قبلوا بهذا الشرط والذين ظلوا موضع كل ما كان من تشويق واغراء أقلية ضئيله كالطبقة المنبوذة بحيث لا يصاهرهم المسلمون ولا يشتركون في تشييع جنازاتهم ولا يوافقون على دفنها في مقابرهم . ومن الطريف ان هذه الطبقة لم تستطع في الوقت نفسه ان تندمج في المجتمع الافرنسي أيضاً حيث ظل الافرنسيون ينظرون اليهم نظرهم الى الافريقي المنحط عنهم جنساً ومركزاً . وحيث ظـل هؤلاء يتمتعون بامتيازات عديدة لا يتمتع بها اولئك .

نظام الحكم والادارة

ولقد قلنا في مناسبة سابقة ان تجربة نظام الدومينيون جاءت تقليداً مسيخاً وأن الروح الافرنسية المتسلطة ظلت هي السائدة في النظام الجديد، كما ظل الوالي العام من جهة والحكومة الافرنسية من جهة هما أصحاب الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فيه. ونقتبس هنا من كتاب المدني بعض صور لما كان في الجزائر سنة ١٩٣١ من مجالس تمثل ما قلناه وتصور مدى ما كان من تسلط الافرنسيين في هذه المجالس التي هدر فيها حقوق المسلمين الذين هم اهل البلاد .

فقد كان للوالي العام مجلس حكومة بمثابة مجلس وزراء . غير ان اعضاء هذا المجلس هم رؤساء المصالح العامة الافرنسيون من جهة وقراراتهم استشارية بالنسبة للوالي الذي هو صاحب الهيمنة العامة الشاملة من جهة اخرى . وليس في هذا المجلس احد من المسلمين .

وهناك ثلاث تشكيلات ادارية او بلدية . . احداهما « البلديات العاملة » ومهمتها النظر في كل ما يتصل بالشؤون الصحية والتعليمية والتنظيمية ورؤساء هذه البلديات افرنسيون يعينهم الوالي . ويساعدهم مجالس منتخبة مؤلفة من الافرنسيين والمسلمين ولكن عددهؤلاء لايجوز ان يزيد عن الثلث! وحق الانتخاب لغير الافرنسيين والمتجنسين مقيد بقيود تجعل ممارسة هذا الحق محدودة جداً. ومن غرائب هذه القيود ان المسلمين يصح ان ينتخبوا افرنسيين ومتجنسين ولكن هؤلاء لا يجوز لهم أن ينتخبوا مسلمين جزائريين .. وثانية التشكيلات هي « البلديات الممتزجة » وهي اشبه بحكومات ادارية وتشمل صلاحيتها المدن وغير المدن . ورؤساؤها افرنسيون كذلك وتابعون للوالي رأساً، ويسمون مديرين او متصرفين ولهم دبدبة ومظاهر عسكرية . وسلطتهم تكاد تكون غير محدودة، ويكاد الواحد منهم يكون الحاكم بأمره . ولهم سلطات قضائية ادارية زجرية وخاصة بموجب القانون الارهابي الذي ذكرناه في مناسبة سابقة . ويساعد المدير لجنة اغلب اعضائها افرنسيون .. والثالثة هي « البلديات الاهلية » وهي خاصة بالأنحاء الجنوبية التي يعيش سكانها حياة القبيلة . وتكاد تكون هذه التشكيلة حكومة عسكرية، حيث يرأسها قائد الموقع الافرنسي ويساعده لجنة أغلب اعضائها من الضباط الافرنسيين.



الامير عبد القادر الجزائري

المجالس

وهناك مجالس تسمى المجالس العمومية في مراكز المديريات ذات صبغة تمثيلية مهمتها النظر في شؤون المديرية المحلية . وعدد النواب المسلمين فيها مقيد بالربع ! أما الارباع الثلاثة الاخرى فهم افرنسيون ينتخبهم الافرنسيون . وللمسلمين أن ينتخبوا إفرنسيين ولا يصح العكس .

وهناك مجلس اسمه مجلس النيابات العامة وهو بمثابة البرلمان الجزائري وله صلاحيات كبيرة في شؤون الضرائب والميزانية مع القيد ان قراراته استشارية . ويتألف من (٦٩) عضواً (٤٨)منهم افرنسيون نصفهم يمثلون المستعمرين ونصفهم يمثلون اصحاب المصانع والحرف والشركات . اما المسلمون فعددهم واحد وعشرون

وهناك مجلس آخر يسمى المجلس الاعلى وهو المختص بالنظر في القرارات التي يصدرها مجلس النيابات المالية مع القيد ان قراراته استشارية ايضاً، وعدد اعضائه ستون (٢٩) منهم يعينهم الوالي وهم اعضاء مجلس الحكومة وقواد الجيش واربعة من كبار الموظفين وثلاثة من الاهالي و (٣١) منهم يمثلون مجلس النيابات المالية رمجالس المديريات العمومية . ومن مجموع اعضاء هذا المجلس عشرة مسلمون فقط، سبعة منهم في مجالس المديريات وثلاثة يعينهم الوالي !.

وفي الجزائر سبع غرف تجارية . وأعضاؤها ينتخبون من التجار المسجلين . ومع ذلك ففي نظامها قيد ينص على عدم تجاوز عدد الناخبين والمنخوبين المسلمين عُشر العدد العام لكل من الطبقتين ! وهناك غرف زراعية ، وعدد اعضاء كل غرفة (٢٢) منهم (١٦) افرنسياً ينتخبون انتخابا من قبل المستعمرين وستة مسلمون يعينهم الوالي تعينا !

الوظائف

ولقد قلنا ان الوظائف المهمة والثانوية محصورة في الافرنسيين . وفي كتاب المدني اسماء الوظائف التي كان يحرم على الجزائري المسلم توليتها والتي تسمى وظائف

سلطة نسردها في ما يلي كمصداق لما قلناه ولتصوير حالة الحرمان والاحتقار التي يرتكس فيها اهل هذا القطر المذكور :

كاتب عام بالولاية - نائب مستشار حكومة - مدير عام - متصرف - نائب متصرف مستشار متصرف - كاتب عام متصرف - مراقب او مدير أو مدير ثان ببلدية ممتزجة - رئيس اول بدائرة الاستئناف رئيس غرفة عليا - مستشار عدلي - مدعي عام - وكيل حق عام - نائب مدعي عام - نائب وكيل حق عام - - رئيس محكمة ابتدائية - نائب رئيس محكمة ابتدائية - قاضي تحقيق - حاكم - نائب - قاضي صلح - نائب قاضي الصلح - مدير جامعة علمية - مراقب علمي - محافظ مياه - مراقب مياه - محافظ او مراقب غابات - قابض عام أو خاص بالخزينة الجزائرية مدير ديوان - مراقب ديوان - مدير تسجيل املاك الدولة ومراقب تسجيل - مدير دمغه - مدير بادارة الضرائب - مراقب بادارة الضرائب - مراقب اداوة عمال - مدير ادارة بريد - مراقب ادارة بريد - مفوض بوليس - مراقب بوليس في السكك الحديدية والمرامي ..

والذي يجري العمل عليه هو انه لا يمكن للمسلم الجزائري ان يتوظف في الادارة الجزائرية الا قاضيا شرعيا او ترجمانا أو نفراً أو شاويشا في البوليس أو مراسلاً أو ساعيا أو مدرسا أو كاتبا صغيراً .. وهناك عدد كبير من الافرنسيين يتولون هذه الوظائف التافهة أيضا . والمرتب الذي يتناوله الموظف الافرنسي اكبر من المرتب الذي يتناوله الموظف المسلم من نفس رتبته فضلاً عن زيادة ٣٣ في المئة باسم علاوة الاغتراب !

القضاء

والقضاء في الجزائر منظم وفق الانظمة الافرنسية كما أن القوانين النافذة هي قوانين افرنسية ، ولغة المحاكم هي اللغة الافرنسية . وهناك قضاء شرعي اسلامي للنظر في شؤون المسلمين الشخصية ، وكان ذا اختصاصات واسعة ظلت السلطات تنتقص من أطرافها حتى غدت بقانون اصدرته عام ١٨٨٦ ضيقة جداً تكاد تصبح

عدما حيث خولت محاكم الصلح الافرنسية النظر في جل الشؤون التي كانت ينظر فيها مما يتصل بالامور الشخصية والمدنية .

السياسة البربرية والتبشير

ولقد سارت السلطات الافرنسية على خطة التفريق بين العرب والبربر منذ عهد مبكر فاصدرت في عام ١٨٥٩ قانوناً يخرج القبائل البربرية من نطاق القضاء الشرعي الاسلامي ويجعلها تابعة لقضاء خاص يستمد من العرف الجاهلي رغم دينونه هذه القبائل بالاسلام وخضوعها لقضائه الشرعي أحقاباً طويلة ، ويقوم به هيئات من القبائل عرفت باسم هيئات الجماعة ، هادفة بذلك الى اثارة النعرة العنصرية في البربر وسلخهم عن الاسلام وتهيئتهم لنشاط التبشير المسيحي، الذي شجعته تشجيعا عظيما حتى انتشرت مراكزه في المدن والبوادي بكثرة كبيرة . وكان مما يعمد اليه المبشرون تلقين البربر أنهم أوروبيون مسيحيون في اصولهم ، وان العروبة والاسلام اجنبيان عنهم !

ومما فعلته السلطات بسبيل ذلك تخصيص مبالغ طائلة للجمعيات الدينية المسيحية باسم النظر في شؤون المسيحيين الدينية ونظرة الى رقمين في احدى الاحصائيات تدل على المحاباة وسوء القصد . فقد كانت مخصصات الجمعيات الاسلامية التي تنظر في شؤون المسلمين الدينية عام ١٩٢٧ (٣٣٧٠٠٠) فرنكا في حين ان عدد المسلمين يزيد عن سبعة ملايين اذ ذاك بينما كانت مخصصات الجمعيات المسيحية (٨٨٣٠٠٠) فرنك وهم اذ ذاك نحو ستمائة وخمسين الفا . وقد استولت السلطات على الاوقاف الاسلامية الواسعة القيمة وأدخلتها ضمن املاك الدولة .

- ٧ -

استمرار هذه الصور الى الآن

وهذه الصور البشعة الظالمة التي كانت في عام ١٩٣١ ظلت هي القائمة تعمل الى

الآن بجدّ ودأب في تجويع الشعب الجزائري وافقاره وحرمانه وتجهيله وهدم كيانه ومقوماته على ما يستفاد من صرخات بعض النواب الجزائريين في مجلس النواب الافرنسي بين يدي مشروع نظام الاتحاد الجزائري الافرنسي الذي فكرت به فرنسا ، مع ملاحظة ان النواب الجزائريين المسلمين هم من المتجنسين بالجنسية الافرنسية والذين وصلوا حبالهم بحبال فرنسا فاستطاعوا ان يصلوا الى مقاعد مجلسها النيابي. وأمامنا ثلاث خطب لثلاثة منهم احداها في حالة الجزائر الاقتصادية وثانيتها في حالتها الأدبية وثالثتها في حالتها السياسية.

صرخات نواب الجزائر عام ١٩٤٧

وقد جاء في الاولى التي القاها احمد مزغنه في هذا المجلس يوم ٢٠ آب من عام ١٩٤٧ فيما جاء : ان ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية أي تسعة ملايين هكتار من عشرين هي ملك لثمانمائة الف مستعمر بقطع النظر عن التفاوت العظيم في نوع الأرض حيث تزيد قيمة اراضي المستعمرين اضعافا مضاعفة عن قيمة أراضي الجزائريين ، وبهذا التفاوت العظيم أصبح المستعمرون هم أصحاب اجود الاراضي وأخصبها . وهم اصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة فيها . فهناك طبقة منهم كبيرة العدد يتجاوز متوسط ما يملكه الفرد منهم (١٠٠٠٠) هكتار اي مئة الف دونم . وهناك طبقة منهم أقل متوسط يملكه الفرد هو مئة هكتار، هذا في حين ان طبقة قليلة العدد من المسلمين متوسط ملكيتها خمسة عشر هكتاراً — ١٥٠ دونما . أما متوسط ما يملكه الجمهور الاعظم فهو هكتاران . ولا تصلح أراضيهم على الاغلب الا للزراعة الموسمية التي تظل تحت رحمة السماء في حين أن جميع الاراضي المروية والصالحة للخضروات والاشجار المثمرة في يد المستعمرين .

وقد خصوا عدا ذلك بخزانات المياه ومعدات الاشغال العامة التي تدفع تكاليفها ميزانية الجزائر. اما اليد العاملة فيقدمها الاهالي الذين كونت منهم تلك الاقطاعية طبقة تعد بالملايين من الفلاحين الكادحين الذين جردوا من كل شيء وحرموا من كل امل وباتوا عرضة للجوع والعري والتشرد ، فأصبحوا اساس المشكلة الجزائرية

فمن المليون والاربعمائة الف اسرة التي يتكون منها الجزائريون يوجد (٨٠٠)الف اسرة عمال كادحين منها ٧٠٠ الف أي ما يقرب من اربعة ملايين نسمة تتكون منها هذه الطبقة العاملة الزراعية. وقد كانت اغلبية هذه الطبقة هي صاحبة الارض والشاغلة لها تعيش بشيء من الهناء، ويكاد المزارع يكون شريكا لصاحب الارض أكثر منه اجيراً، ففي اقل من مئة عام تغير المجتمع الجزائري تحت ضربات هائلة تغيراً كليا حتى بدت هذه الصورة الرهيبة لهذة الطبقة. ولقد كانت حالة سوء الغذاء التي اصابت العالم اثر الحرب هي الحالة السائدة في الجزائر قبلها، وحالة المساكن التي تسكنها هذه الطبقة سيئة جداً وضارة بالصحة وقد تفشت فيها الامراض بسبب عوامل الجوع وسوء الغذاء والمسكن تفشياً مخيفا وللسل خاصة مرتع خصيب وواسع فيها.

ولا تختلف سياسة الاستعمار ونتائجها في ميداني الصناعة والتجارة عنها في ميدان الزراعة، حيث قامت على أساس حماية الصناعة والتجارة الافرنسية.

وقد جاء في الثانية التي القاها مسعود بو قادوم: ان الاستعمار الافرنسي لم يقنع من بلادنا بالاستئثار بثروتها واقتصادياتها واستغلال شعبها بل حارب كذلك ثروتها الثقافية وميراث شعبها الروحي. ان للجزائر شخصية خاصة كونتها القرون المديدة من وحدتها الجغرافية واللغوية والتاريخية والدينية. وليس هناك ما يزعمه البعض من فرق بين العرب والبربر بل هناك شعب واحد هو الشعب الجزائري. ولقد أجهد الاستعمار نفسه كثيراً في إبادة هذه الشخصية لأنه ظن ان الشعب الذي غلب بالسلاح واستؤثر باقتصاده وحرم مقومات شخصيته سيصبح بمثابة حفنة من غبار بشري خال من الروح ومستعد لقبول كل التغييرات وانواع العبودية والرق. إنكم لا تجهلون ان الشعب الجزائري دينه الاسلام ولغته العربية؛ وهذان هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان الشخصية التي يحاربها هذا الاستعمار. ومع أن معاهدة تموز ١٨٣٠ المنعقدة بين الداي والجنرال دي بورمون تحتم احترام حرية جميع السكان ودينهم وملكيتهم فانها انقضت بعد شهرين ثم ظلت تنقض. وقد وضعت الادارة الاستعمارية يدها منذ تلك السنين على الأملاك الدينية، وغدت المساجد والمعاهد تحت تصرفها المباشر وفقد الدين الاسلامي استقلاله، بل لقد حرم من

الحرية التي منحها مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الافرنسية والتي يتمتع بها الديانان المسيحي واليهودي. وأبعد نكاية وبشاعة من هذا أن النفقات التي تؤديها الادارة للأديان غير الاسلامية تحسب على خزينة الاوقاف الاسلامية وان ما ينفق على مصالح الدين الاسلامي الذي يعتنقه عشرة أضعاف معتنقي الاديان الاخرى لايزيد على ثلث ما ينفق على مصالح الأديان ... وكان من جملة آثار هذا العدوان أن أصبح موظفو المعاهد الاسلامية من أعوان الاستعمار الذي يبذل جهده في محاربة الدين الاسلامي ولغته ومعتنقيه ، وان تعطلت مؤسسات ثقافية عـــديدة كانت تساعد على تثقيف ابناء المسلمين وتعليمهم مساعدة كبرى . وهكذا كان وضــــع الاستعمار يده عــــلى املاك الاوقاف بمثابة سلب صريح وخيانة صارخة ، وضربة موجعة أصابت الدين الاسلامي وحده رغم مبدأ اللادينية الذي ما انفكت فرنسا تعلنه عن دولتها في كل مناسبة . ولقد سهلت السبل امام التبشير بالنصرانية بمختلف الوسائل مهما كان فيها من تحد للمسلمين وشعورهم . وكان المبشرون يغتنمون فرصة المجاعات والثورات لاخذ اطفال المسلمين وتنصيرهم على اعتبار ان تنصير المسلمين هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تذويب الجزائريين في البوتقة الافرنسية . وإذا كانت هذه المحاولات لم تنجح نجاحها المأمول فانما مرد ذلك الى قوة رسوخ التقاليد الاسلامية في الشعب الجزائري . والى جانب هـذه الجهود المبذولة لتنصير الشعب الجزائري هناك سياسة حرب مشنونة على عروبته . وقد اصبحت المدارس التي تعلم اللغة العربية نتيجة لهذه السياسة تحت اجراآت شديدة صارمة ، حتى تلك الكتاتيب التي يلقن المعلمون البسطاء فيها سور القرآن بطرقهم القديمة لم تسلم مـن هذه الاجراآت . ولقد كان من جملة هذه الاجراآت وجوب الحصول عـلى رخصة ، ثم عسرت هذه الرخص كل التعسير ، حيث شرط عــــلى معلمي المدارس العربية معرفة اللغة الافرنسية كما اعتبرت اللغة العربية القرآنية التي هي لغة اهــــل البلاد لغة أجنبيه فكان كل ذلك سبباً في إغلاق جميع المدارس والمعاهـد والكتاتيب القرآنية والعربية !

وقد جاء في الثالثة التي القاها الاستاذ دردور : ان الحرب التي أعلنها الاستعمار الافرنسي عـــلى الشعب الجزائري تطّرد في المجال السياسي اطرادها في المجالين

الاقتصادي والادبي فقد أنشأ الاستعمار جهازاً ادارياً تسيطر عليه الاقلية الأوروبية سيطرة مطلقة . ويقوم هذا الجهاز على الضغط المستمر المنظم على الجزائريين الذين حرموا من دستور يحفظ حقوقهم ويحمي حرياتهم والذين ليس لهم أية مساهمة جدية في حكم بلادهم ، حيث تتجمع جميع السلطات العسكرية والسياسية والادارية في يد الحاكم العام ، اما الادارة المباشرة فترجع الى مكاتب الشؤون الاهلية التي هي تحت سلطة هذا الحاكم وإدارة ضباط متخرجين من مدرسة بيجو الاستعمارية القديمة الذين لا يعرفون غير مبدأ واحد للحكم وهو مبدأ « القوة » ومن هذه المكاتب التي سميت أخيراً تضليلاً باسم « مكتب الاصلاحات الاسلامية » يعين الضباط حكاما لمناطق الجنوب ويعين المديرون والمخاتير والمراقبون الذين هم آلات مسخرة لتنفيذ سياسات الاستعمار الاقتصادية والادبية والسياسية . والمجلس الاعلى الذي هو استشاري يتكون من ستين عضواً ليس بينهم من العرب الا سبعة اربعة منهم منتخبون ! والمجلس المالي صاحب السلطات المالية يتكون من ٦٩ عضواً ليس فيهم إلا ٢١ جزائريا (١) ... وما تزال مناطق الجنوب تدار بادارة عسكرية وحكامها العسكريون يتمتعون بصلاحيات غير محدودة عسكرية وإدارية وقضائية . وما يزال قانون « الانديجن » الخاص بالعرب والذي وصفه احد الكتاب بأنه القضاء المرعب جاثماً على الشعب بصلاحيات النهب والاستغلال المتوحش والاستعباد وخنق الحريات وقتل الجهود والحيلولة دون اي حرية اجتماعية أو سياسية ومايزال نظام الغرامات المشتركة قائماً يرهق الشعب بمظالم حيث يفرض بموجبه على المنطقة التي تقع فيها جريمة ولم يعثر على مجرمها غرامة تبلغ أحيانا ستة وثمانية اضعاف الضرائب فضلا عن تعرض جميع الاملاك للحجز الصارم . كذلك وما يزال نظام الغابات مرعيا وهو الذي يقاسي منه الشعب أشد انواع المتاعب والاضرار ، ومن جملة ذلك وجوب تعليق جرس في رأس كل شاة ووجوب سلوك الرعاة طرقا معينة في غدوهم ورواحهم تحت طائلة الغرامات .. وقد حرم الشعب الجزائري من جميع الحريات مهما كانت أولية أو ضرورية لحياة الشعوب حتى حرية التنقل والتجول بينما يتمتع الأوروبيون في الجزائر بجميع الحريات ولهم الحقوق المطلقة في

(١) هذا العدد وذاك كان في عام ١٩٣١ !

تأسيس ما يشاؤون من الجمعيات والأحزاب وعقد الاجتماعات مما حرم منه الشعب الجزائري البتة .. ويستخدم الاستعمار سلاحاً رهيبا في ممارسة سيطرته وارهابه وهو ما يسميه من قبيل التواضع بالأمن العام والذي يتكون فضلاً عـــن الدرك والحرس المتجول وشرطة التحري والعملاء الاذناب التابعين لمكتب الشؤون الاهلية مـن جيش عرمرم مستعد في كل وقت لتحطيم اي محاولة يقوم بها الشعب ليدفع عن نفسه الأذى . وقد عززت هـــذه القوة في المدة الاخيرة واستخدمت شرطة خاصة مهمتها مراقبة نشاط الوطنيين السياسي .. وفي حقـل التعليم يسلك الاستعمار سياسة تجهيل منظمة خطرة . فهو فضلاً عن عدم بذله اي مجهود أو عناية لنشر العلم بين العرب يقوم بحرب سافرة مستمرة لمناهضة التعليم العربي . وخطته الدائمة في التعليم الافرنسي للعرب هي حبسهم في حلقاته الابتدائية واقامـــة كل العقبات أمام ما بعدها .. وقد جاء في بيان القاه رئيس المجمع العلمي الجزائري الافرنسي سنة ١٩٤٤ ان مجموع الاطفال المسلمين الذين هم في سن التعليم يبلغ مليوناً وربعاً ولا يتلقى منهم التعليم الافرنسي غير مئة الف، وأن عدد الاطفال الاوروبيين الذين هم في المدارس ضعف عـدد ابناء المسلمين مـع ان عدد المسلمين أكثر من عدد الاوروبيين سبع مرات . وهذا يعني بعبارة اخرى ان الاطفال العرب الذين يتلقون التعليم أقل من نسبة الاطفال الأوروبيين بأربع عشرة مرة . ويخصص من الميزانية لتعليم العرب (٨٨) مليونا بينما يصرف على مدارس الاوروبيين منها (٣٣٩) مليونا .. والاستعمار يبذل جهده في سبيل بقاء العرب اميين ويسهر على ذلك سهراً فائقا لانه يعتبر تعليمهم ماسا بقدسية امتيازاته . اما التعليم الثانوي والعالي فيكاد يكون محرما عـلى الجزائريين تحريما مطلقا . ففي جامعة الجزائر اربعة آلاف طالب ليس منهم من العرب الا مئة والباقون من ابناء المستعمرين . وليس من جزائري يستطيع ان ينتسب الى المدارس المهنية والفنية العالية ، فجميع طلاب هذه المدارس من اولئك الابناء . وكل ما هنالك بعض مدارس مهنية ابتدائية تعلم فيها مبادىء أولية للحدادة والنجارة يستطيع ان ينتسب اليها ابناء المسلمين (١)

(١) يلاحظ مصداق القول بأن الصورة التي كانت عام ١٩٣١ وحتى الارقام ظلت على ما هي عليه بعد مضي اكثر من خمس عشرة سنة اومنها ما كان تفوقا للمستعمرين على المسلمين مثل ملكيات الأراضي.

النضال الوطني بزعامة المصالي

ومع ان السلطات قد نفّست قليلاً من كابوس الارهاب بعد سنة ١٩٣١ وسمحت في وقت ما للجزائريين بتشكيل جمعيـــات أهلية تنشط في سبيل حقوق المسلمين وشؤونهم ، وأن هؤلاء سارعوا الى الانتفاع من الفرصة فأنشأوا بعض الجمعيات ، وأخذوا يرفعون اصوات الشكوى من جـور القوانين وسياسة التجهيل والافقار والحرمان من كل مشاركة مجدية في الحكم والادارة ومن استمرار تدفق المهاجرين وتوطينهم في الأراضي الصالحة والاغداق عليهم من أموال الدولة وتفضيل المستعمرين في كل شيء ، والسير بخطوات واسعة في سبيل سلخ الصبغة العـــربية الوطنية الاسلامية عن الجزائر الخ ، وأنه نتج عن هذا ايفاد لجنة تحقيق عام ١٩٣٢ لدرس الأوضاع فلمست كل اسباب الشكوى فيما قدم لها من أوقام وتقارير وشاهدته من وقائع ؛ فان السياسة الغاشمة المرسومة ظلت هي الدستور النافذ بتأثير رجـــال الاستعمار في فرنسا والجزائر دون مبالاة بالشكوى والواقع الأليم المرير على ما هو ثابت من صرخات نواب الجزائر التي اقتبسنا منها ما اقتبسناه آنفا ؛ فكان هذا مما دفع الوطنيين الذين كوّنوا كيانهم القومي الوطني بزعامة زعيمهم الكبير المأصلي الى خطوة جريئة وصريحة تصح أن تكون موقفاً حاسماً من مواقف النضال الوطـني السياسي الصريح ، وإعلاناً لولادة الحركة العربية القومية في الجزائر .

اعلان ميثاق الاستقلال واثره

كذبت كل ما منت فرنسا به نفسها وظنت أنها حققته في الجزائر حيث عقـد مؤتمر عربي في سنة ١٩٣٧ شهده اصحاب الشأن والكلمة والبروز من رجال المسلمين وشبابهم تقرر فيه إعلان الجزائر وطناً عربياً مستقلاً وبطلان كل ما فرضته فرنسا من أنظمة وقوانين وجهاز حكومي وإفرنسية الجزائر ، وأذيع بذلك بيـان قوي هز الافرنسيين هزاً عنيفاً وجعلهم يجن جنونهم ويقومون بحركة ارهاب واسعة

وعنيفة حيث أعلنوا الأحكام العسكرية واعتقلوا الزعماء الوطنيين ومئات من البارزين وحكموا على بعضهم بأحكام قاسية، ونفوا بعضهم الى المنافي الصحراوية . وكان لحركة الارهاب هذه رد فعل شديد ظهر فى المظاهرات الصاخبة والاشتباكات الدامية مما اضطر السلطات الى تخفيف غلوائها والعمل على تهدئة الأفكار ، ولا سيما ان حالة أوروبا قد كانت تسير من سيء الى أسوأ .

الجزائر في الحرب الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاغتنمتها فرنسا فرصة لفرض رقابة عسكرية ارهابية شديدة ، وجندت في ظلها مئات الألوف من الجزائريين الذين قذف بهم الى جبهات اوروبا وحاربوا في صفوف فرنسا وأراقوا دماءهم في سبيل الدفاع عنها ولما انهارت فرنسا الأم ووقعت تحت سنابك غزاة الألمان كانت الجزائر ملجأ حركة التحرير التي رفع لواءها ديغول باسم فرنسا الحرة ، واستغلتها هذه الحركة فيما صار لها من نمو وقوة، وبدلاً من ان يحفز هذا الافرنسيين على الاعتراف بجميل الجزائر وردّه عليها رداً كريماً شدد حرصهم على التمسك بها فأخذوا يرددون نغمة الاتحاد الافرنسي التي تهدف الى سلخ أقطار المغرب العربي من كيانها القومي العربي أبديا .

استئناف النضال الوطني

فعادت الحركة الوطنية الى النشاط ثانية على أساس بيان مؤتمر عام ١٩٣٧ وبزعامة المصالي وأخذت الروح تقوى وتنتشر، ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها في أوروبا حتى عادت الحركة النضالية الى قوتها منذ أوائل عام ١٩٤٥ ، وأخذت صرخات الاحتجاج تتعالى والزعماء الوطنيون يدعون الى الجهاد في سبيل الحركة والاستقلال والنجاة من براثن فرنسا والالتحاق بقافلة الحركة العربية العامة ، وأخذت البلاد العربية تردد هذه الحركة وتؤيد الجزائريين والمغرب العربي عامة في نضاله ومطالبه ، وكان قيام الجامعة العربية واشتداد قوة الحركة العربية

في ظروف قيامها مما ساعد على هذا الترديد وأحدث أثراً في اشتداد ساعد المغرب وحركته .

الانفجار الثوري

وتجهمت فرنسا واشتدت في المطاردة والكبت. فأدى ذلك الى انفجار شديد في مناطق قسنطينة وسطيف وغيرها حيث كانت اشتباكات دموية خطيرة اشترك فيها الألوف وبدت عليها علائم ثورة لاهبة واسعة المدى ؛ وقد عمدت فرنسا الى ما اعتادته من قوة القمع والتنكيل فقصفت مناطق الثورة بالطيارات والمدافع ودمرت عدداً كبيراً من القرى والأحياء وذهب ضحية هذا القمع القاسي أرواح آلاف من الجزائريين قدرتهم الاحصاءات المغربية الوطنية بما يتراوح بين الثلاثين والخمسين الفا واعترفت السلطة الافرنسية ببضعة آلاف من القتلى والجرحى وتدمير اربعين قرية كنتيجة له .

على ان نشاط الجزائريين النضالي لم يخمد وشعلتهم المتقدة لم تنطفىء وتصميمهم إزداد شدة على شدة بالرغم مما ترتكبه فرنسا في القمع والتنكيل مالا يكاد يصدق من فنون القسوة والبطش والانسلاخ من شعور الانسانية والرأفة والحق والمنطق ؛ مما عانت شيئاً منه سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الفصول السابقة . وهكذا يصح ان يقال انه بدأ في الجزائر عهد جديد للنضال القومي العربي ضد العدوان والبغي والجمود وسوء القصد الذي تعرضت له وتعرضت به الحركة العربية فيها بالتبعية من فرنسا ، وغدا للجزائر مطلب قومي عربي وشعار قومي هو التحرر من ربقة فرنسا والاستمتاع بالاستقلال والحرية والشخصية والالتحاق بالحركة العربية العامة والاندماج في اهدافها ، وسرت هذه الروح الى مختلف طبقات المسلمين حتى للذين تجنسوا بالجنسية الافرنسية واندمجوا في الحياة الافرنسية السياسية قليلاً او كثيراً حيث رأينا نوابهم في البرلمان الافرنسي يرسلون تلك الصرخات الداوية منددة بحكم فرنسا وعهدها وظلمها وسوء قصدها نحو عروبة الجزائر ومقوماتها الروحية ومصالحها الاقتصادية وكيانها القومي .

ولقد جاء هذا قوياً صارخاً في الخطاب الذي القاه الدكتور الامين دباغين النائب الجزائري في مجلس النواب في ٢٠ آب ١٩٤٧ كتتمة للصرخات التي ارسلها زملاؤه الثلاثة بسبيل رفض مشروع الاتحاد الافرنسي عبر فيه عن مدى الحركة النضالية وغايتها الصريحة وشدة صلتها بالحركة العربية القومية حيث هتف قائلاً :

ان اخوانه الذين سبقوه في الكلام قد بينوا ما مثله الاستعمار في بلاده المنكودة من كوارث حقيقية من مختلف النواحي ؛ غير انه من الخطأ الجسيم أن يظن أحد بأن رغبة الشعب الجزائري في الاستقلال قد نتجت من فشل هذا الاستعمار في مهمته المادية ؛ إذ ان معنى ذلك انه لو كتب له النجاح في الميدان المادي وتحسن من جراء ذلك مستوى الحياة للشعب الجزائري لكان كافياً لغض نظره عما سببه من ضياع شخصيته وسيادته وثقافته ؛ فلا يجوز ان يظن أحد صواب ذلك ، ولو فرضنا ان فرنسا تمكنت من تحقيق المعجزات في ما تسميه « مستعمرتها الجزائر » ولو فرضنا ان جميع الاضاليل التي يتاجر فيها لفائدة الاستعمار اصبحت حقائق قائمة ، ولو فرضنا ان الشعب الجزائري الذي يزعم هذا الاستعمار انه لم يكن سعيداً في عهده الاستقلالي السابق قد اصبح بفضل الغزو الافرنسي أرقى الشعوب ثقافة وأجودها صحة واكثرها رخاءً فإن كل هذا لن يغير شيئاً من نضاله المستميت في سبيل استعادة استقلاله وسيادته ! ارجو ان لا تنسوا ان الشعب الجزائري أمة بذاتها وانه كان ذا سيادة ، وان عدوان عام ١٨٣٠ هو الذي افقده سيادته ! إن هناك ميلاً الى تناسي هذه الحقيقة بما يتكرر من التوكيدات بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وانها مجموعة ترابية من الجمهورية الافرنسية ؛ غير ان هذه دعاو من جانب واحد لا تقوم على اساس ، وهي دعاو باطلة تكذبها جميع الحقائق التاريخية والجغرافية والجنسية التي لا تتحمل اي مراء . فقد كانت الجزائر بلاداً مستقلة ذات سيادة يسكنها شعب عربي له خصائصه وتقاليده القومية ؛ وكانت دول الارض بما فيها فرنسا تعترف بذلك وتعقد معها المعاهدات المتنوعة وتقف منها موقف الند من الند . ولما اعتدي عليها عام ١٨٣٠ كافحت كفاحاً شديداً دام نحو ثلاثين سنة

وقدمت من الضحايا ما يقرب من المليونين في المعركة . وإذا كان قانون الكثرة وتفوق القوة قد جعل مصير الحرب ضدها فليس معنى هـذا ان حقها في الاستقلال قد سقط وبطل او أن ذلك قـد اعطى فرنسا الحق بأن تدعي بأن الجزائر ارض افرنسية وبان تفكر في فرض اي نظام تشاء عليها . وليس من فرق بين الجزائر وبين اي امة غزاها هتلر او غيره من قبله كبولونيا وشكوسلوفاكيا ، ولم يغير هذا الغزو شيئاً من حقيقة الامر ، وها هو الاستقلال والحرية يعودان الى هـذه الأمم ، والامر بالنسبة للجزائر سواء بسواء . فهي دولة خاضت ببطولة نادرة حرباً خسرتها ، ولكنها لا يمكن ان تقبل بحال ان تكون نهـــاية تلك الحرب هي نهاية سيادتها لانها ستسترجع حريتها مـن جديد وتعود الى ما كانت عليه . ولا يخامرها ادنى شك في ذلك إن قرناً من الاضطهاد لم يفقد الجزائر شخصيتها ولم ينل مـن تصميمها المتحفز دائماً . وهذا هو السبب الذي من اجله لا يمكننا نحن الجزائريين ان نقبل بأي حل لا يحقق قبل كل شيء احترام هـــذه الشخصية وحرية ثقافتنا العربية وخاصة ضمان استرجاع سيادتنا القومية ضماناً مطلقاً ! ان الدافع للعدوان عام ١٨٣٠ إنما كان الطمع في الغنيمة والغزو ، وحل القضية الطبيعي والحالة هذه هو جلاء القوات الافرنسيةعن الجزائر وإعادة اراضيهاالمغتصبة الى ذويها الشرعيين ومدارسها الى ثقافتها العربية ومساجدها الى دينها الاسلامي . وليس لفرنسا مطلقاً ان تفرض على الجزائر اي قانون ونظام ، وان هذا هو ما تقاومه الجزائر وترفضه بكل قواها ، لان شعبها يعتبر نفسه هو وحده المالك لحق تقرير مصيره واختيار نظمه الخاصة التي يديرها سياسته ، ويعتـبر ان اعترافه بأي حكومة ولو فرنسا بحق منحه النظم والشرائع هو اعتراف منه بالأمر الواقع الذي اوجده الاستعمارفي بلاده ضد حقوقه المقدسة ومصالحه الحيوية ، وتنازل منه عن سيادته الوطنية وهذا ما لن يحدث ابداً . وقد حملنا هـــذا الشعب نحن النواب الوطنيين الجزائريين مسئولية تبليغ الشعب الافرنسي والعالم بأجمعه بأن بـلاده لا تعترف بهذا الأمر الواقع الذي احدثه غزو عام ١٨٣ وبأن الجزائر ليست افرنسية ولن تكون كذلك في يوم من الايام ، وبأنها لا تعترف لفرنسا بحق منحها القوانين أو سن المشاريع لها مهما كان نوعها وبأنها لن تقبل بأي حل لا يضمن له قبل كل شيء عودة سيادتها الوطنية إليها !

والخطاب طويل قوي مدعم بالحجج الدولية والحقوقية والمنطقية ومملوء بالتنديد القارص بظلم فرنسا وعسفها . وقد كان يقاطع من بعض النواب الافرنسيين الذين اغتاظوا أشد الغيظ من حملة النواب الاربعة الشعواء بسبيل اعلان عروبة الجزائر ورفضها نظام الاتحاد . ومن الطريف البالغ في القحة أن بعض المقاطعين كانوا ينعتون الجزائريين بجحود جميل فرنسا ومستعمريها في ما كان من إعمار بلادهم وازدهارها ناسين ان خير هذا إنما عاد اليهم وأنه أدى الى بؤس الجزائريين وجهلهم وفقرهم ومرضهم واسترقاقهم من قبل فرنسا ومستعمريها وتهديد كيانهم العربي والديني بالانهدام بل وهدمه فعلا إلى شوط بعيد .

الفصل الثاني

فرنسا وتونس

- ١ -

حالة تونس قبل النكبة

ومنذ أخذت قدم فرنسا تتوطد في الجزائر أخذت تفكر في القفزة الثانية ، فاتجهت انظارها الى القطر التونسي أولا ؛ وكانت تونس منذ اوائل القرن الثامن عشر تتمتع باستقلالها في ظل دولة تمت في اصلها الى العنصر التركي الدي استولى على الجزائر وتونس في أوائل القرن السابع عشر باسم الدولة العثمانية . وكان رؤساء هذه الدولة يتلقبون بلقب الباي والباشا . وقد تمكنوا بعد فترة من الزمن من الانفراد في الحكم دون الدولة العثمانية . وتعربوا وتأقلموا هم ومن كان معهم ممن يمت الى العنصر التركي ، واندمجوا في القومية العربية التونسية .

وفي أوائل القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوروبيةتعترف بتونس كدولة مستقلة وتنشىء معها صلات عهدية تجارية وسياسية . وأخذ أمراؤها يسيرون في طريق اصلاح جهاز الحكم وتقوية الجيش وتنظيمه وإنهاض البلادإقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . وقد سارت تونس في عهد امرائها أحمد باشا ومحمد باشا والصادق باشا خطوات حثيثة في هذا السبيل . ففي عهد الأول نظم الجيش وانشىء اسطول بحري وأسست مصانع الأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وفي عهد الثاني سن دستور حديث يقوم على المبادىء الديموقراطية بحيث سجل بذلك أولية الحكم الدستوري الحديث بين الدول العربية والاسلامية – إذ كان هذا في اواسط القرن التاسع عشر – ، وفي عهد الثالث قام مجلس تشريعي ذو سلطات واسعة ونظم

جهاز الحكم تنظيما عصرياً وسن قانون ضمان حقوق الفلاحين ووضع منهج خاص لتوزيع الأراضي الاميرية على سكان البادية وأصلحت مناهـــج التعليم ، وأسست المدرسة الصادقيه للعـلوم واللغات ، وارسلت البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا وغيرهما ، كما استقدم خبراء أجانب وسمح لرؤوس الامـــوال الاجنبية بالنشاط والاستثمار .

التنافس بين ايطاليا وفرنسا

ومنذ بدأت تونس نهضتها هذه أخذ التنافس يشتد على الاختصاص بها بين فرنسا وايطاليا بنوع خاص . وكانت رؤوس الأموال الأجنبية والخبراء الفنيون مـن مجالات هذا التنافس ومظاهره كما كانت سبباً في نكبة تونس بالاحتلال الافرنسي، حيث اخذ قناصل الدول المتنافسة يغرون الامراء بمشاريع اصلاحية ، ويورطونهم في الاستقراض بسبيل القيام بها ، ويضعون في عنق البلاد الاغلال واحداً بعـد آخر . وقد أدى هذا الى فرض ضرائب مرهقة للشعب نتج عنها ثورة داخلية عنيفة عام ١٨٦٤ واضطر الباي بقوة الضغط الدولي الى قبول لجنة مالية دولية لتوحيد الديون والى رهن ايراد الجمارك مقابل وفائها . وكانت هذه الديون تبلغ عام١٨٧٠ نحو ١٢٥ مليون فرنك . وظل التنافس قائماً بين ايطاليا وفرنسا على مرافق البلاد وامتيازات مشاريعها ، وحالف النجاح فرنسا أكثر فنالت إمتيازات عديدة بانشاء سكك حديدية وموانٍ ؛ ومن ثم اخذت تعمد الى تعطيل اعمـال اللجنة الدولية أو عرقلتها لتزداد أحوال تونس سوءاً وتقتنع الدول بتسليم مقاليد امورها اليها .

على انها لم تترك ذلك للصدف ؛ حيث أخذت تهيء الظروف المساعدة عـلى ما تريد ولا سيما انها رأت قنصل ايطاليا يسعى حثيثاً في منافستها وينال امتياز مصلحة البرق ويتمكن من شراء خط حديدي مـــن شركة انجليزية بثمن كبير . ولقد كان يقع على الحدود الجزائرية بعض الاحداث المخلة بالامن فاتخذت حادثاً منها ذريعة إلى تنفيذ عزيمتها وسارعت الى تسيير بعض قواها من ناحية هذه الحدود من جهة وإنزال قوة بحرية في مينائي بنزرت وطبرقة من جهة اخرى دون ان تعير احتجاجات الباي واعلانه استعداده لدفع الغرامات وضمان الحدود وأمنها اهتماماً . وفي تاريخ ١٢ مايس من عام ١٨٨١ حوصر الباي في قصره في باردو وأجبر عـلى توقيع المعاهدة التي تعرف بمعاهدة باردو .

وقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً لحفظ الأمن وتأمين الحدود ، على أن ينتهي الاحتلال حينما تتفق السلطتان الحربيتان الافرنسية والتونسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الأمن ؛ وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الاخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الأجنبية من قبل ممثليها وقناصلها ؛ وتعهد الباي بعدم ابرام أي عقد ذي صبغة عامة مع دولة اخرى دون علم فرنسا وموافقتها.

ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس ، بل أجبرت الباي في نفس السنة على اصدار مرسوم باعتبار المقيم الافرنسي العام – المندوب السامي – الذي سيمثل فرنسا في تونس وزيراً للخارجية كما أجبرته بعد سنتين على توقيع معاهدة اخرى نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة لها؛ وخطت بعد سنة أخرى خطوة خطيرة حيث ذهبت الى تأويل المعاهدتين تأويلا لا يتسق مع النصوص ، وعمدت الى التصرف بالأمور تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها؛ فأصدر رئيس الجمهورية مرسوماً يمنح المقيم الافرنسي العام نيابة عن الحكومة الافرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباي من أوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته .

وهكذا حلّت فرنسا محل الدولة ، وأتاحت لنفسها حكم البلاد حكما مباشراً وجعلت مقيمها الحاكم الأعلى والآمر المستبد فيها بغياً وعدواناً وبقوة الحديد والنار .

- ٢ -

الثورة ضد الحماية

على أن تونس لم ترضخ للواقع . فهاج الشعب منذ وطئت أقدام القوى الافرنسية أراضي بلاده وازداد هياجه مذ علم أن الباي انما أجبر على ما وقعه اجباراً،

فنشبت الثورة وعمت جميع أنحاء البلاد، وحينئذ أخذت النجدات تتوارد وأخذت السلطات الافرنسية تشتد في القمع والتنكيل وكانت معارك طاحنة استمرت بضعة أشهر واشتهرت القيروان وسوسه وقابس والقلعة الصغيرة وزغـوان وتستور وصفاقس خاصة بمقاومتها الضارية وبسالتها وضحاياها . وقـــد حوصرت الاخيرة حصاراً شديداً براً وبحراً ودمرت تدميرا .

ومع أن القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقـد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفه نحو ثلاثين عاماً أي الى سنة ١٩١٠ كما ان الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلاً من ثورات واحتجاجات وحركات وطنية ومواقف تمردية ومؤتمرات قومية ، ولم يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها في إعلان إرادته وتوكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبته بغياً وطمعا واستناداً الى تفوق القوة ، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تمارسه من القمع والتنكيل والدس والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريـــد والتشريع في سبيل إخضاع هذا الشعب العربي الأبي .

خطة الاستعمار وهدم الكيان

ومما كان يزيد من شدة الكفاح والمقاومة القومية العربية أن فرنسا استهدفت في تونس نفس الهدف الذي استهدفته في الجزائر وهو قلبها الى مستعمرة افرنسية وتبديل وجهها العربي المسلم بوجه إفرنسي مسيحي ، وانهـــا ظلت تبذل جهودها العظيمة طيلة المدة الطويلة التي مرت والتي تقرب من سبعين عاماً في الوصول الى هـــذا الهـدف وخاصـــة عن طريق فتح أبواب تـــونس لـــلمستعمرين ، ونزع أراضي العرب بمختلف الأساليب وإقطاعهـــا لهـم ، وتهيئة أسباب استقرارهم وتحكمهم في مختلف شؤون القطر الاقتصاديـــة والاجتماعية والسياسية والتشريعية والتنفيذية والثقافية وتسويد اللغة الافرنسية بحيث كادت تصبح لغة الدولة ، ومحاربة اللغة العربية والدين الاسلامي بكل الوسائل ، وإبقاء أهل تونس في اطار حديدي من الجهل والفقر والمرض !

- ٣ -

الحكم بعد الحماية

ولقد كان في تونس قبل النكبة حكم دستوري ديمقراطي تقوم على اساسه سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية على ما ذكرنا في مطلع الفصل . فكان من أول ما فعله الافرنسيون لاصلاح شؤون تونس إلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي وحكم البلاد حكما فردياً إستبدادياً . وقد ستروا يدهم المباشرة في الحكم بنقل السلطات إلى يد الباي الأسير الذي قيدوه بقيود جعلت هذه اليد صورة لا تتحرك إلا بما يريدون، سواء اكان ذلك في الشؤون التشريعية أم الاذارية أم المالية أم القضائية . وحينما توطدت أقدامهم وكثر المهاجرون والمستعمرون أنشأوا مجلساً إستشارياً خاصاً بالافرنسيين لتنسيق جهود الجاليات الافرنسية والمصالح الحكومية التي يسيطر عليها الأفرنسيون في صدد توطين المهاجرين وتأمين مصالحهم وسيطرتهم على الشؤون الزراعية والتجارية والصناعية . ومع انه أدخل في هذا المجلس مؤخراً عنصر تونسي فقد جاء هذا على منتهى ما يمكن من الاستهتار حيث جعل عدد اعضاء المجلس (٥٢) منهم (٣٦) إفرنسيون ينتخبون إنتخاباً من الجاليات الافرنسية و (١٦) تونسيون يعينهم المقيم العام تعييناً ... وتعالت الأصوات المستنكرة لهذا الوضع العجيب فأنشىء مجلس جديد باسم المجلس الكبير ، غير أنه حفظت الأكثرية فيه للافرنسيين فضلاً عن جعل قراراته منوطة بمصادقة المقيم العام وموافقة الحكومة الأفرنسية !

وعلى كل حال فقد ظل المقيم العام صاحب السلطة التشريعية حيث كان وما زال هو الذي يهيء المراسيم ويحمل الباى على توقيعها. وما يوقعه الباى بسبب ما يصدره هو بصفة قرارات ولوائح تكون في منزلة واحدة مع المراسيم مع أنها في الاصل تفسير لها .

الادارة

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية قبل النكبة مجلس وزراء ، فشلت السلطات بد هذا المجلس ، ووضعت بجانب كل وزير مديراً إفرنسياً بيده السلطة النافذة ، وأحدثت منصباً باسم أمين السر العام مرتبطا بالمقيم العام وربطت به المديرين الافرنسيين المذكورين ، فغدا أمين السر العام والمديرون هم المباشرين للسلطات التنفيذية فعلاً وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الاعلى لهذه السلطات ، فضلاً عن أنه كان رسميا يشغل منصب وزير الخارجية على ما ذكرناه قبل . وهكذا جمع المقيم العام بيده جميع السلطات الاجرائية الداخلية والخارجية ، اما الوزراء التونسيون فليس لهم من كل مناصبهم إلا الأسم والمرتب . ويقتصر عملهم على جلسة في كل شهر يدعوهم اليها المقيم العام باسم مجلس الوزراء ، تهيأ مواضيعها وقراراتها من قبل أمين السر العام ، فضلاً عن أنها ذات صفة إستشارية .. ومع أنه أدخل شيء من التعديل على هذا النظام عقب الحرب الأخيرة نتيجة للحركة الوطنية حيث منح مجلس الوزراء والوزراء التونسيون بعض الصلاحيات إلا أنه جعل للمديرين الافرنسيين حق حضور هذا المجلس والأشتراك في الرأي فيه ، وأبقى لهم حقهم الأول بحيث لا تأخذ الأوامر والرسائل التي يصدرها الوزير صفة قانونية وتنفيذية الا بعد تواقيعهم عليها ، كما أبقيت رابطتهم بأمين السر العام وأبقيت سلطات هذا ورابطته بالمقيم العام على ما كانت عليه من قبل .

وقد جمعت في يد هذا الموظف جميع السلطات الادارية . فهو الذي يصادق على المراسيم بعد توقيع الباي عليها ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يصادق على جميع القرارات الصادرة من الوزير الاكبر وبقية الوزراء والمديرين ولا تنفذ الا بعد توقيعه . وهو الذي يشرف على هيأة الموظفين وعلى المصروفات العامة . وهو الذي يضع المناهج الاقتصادية ويسهر على تنفيذها . وليس للوزراء التونسيين ان يتصلوا بالوزير الاكبر الا عن طريقه !

وهكذا كان التعديل صوريا بل شراً لأن سلطات الوزارة قبله لم تكن مقيدة

بنصوص رسمية وإنما كانت معطلة تعسفاً .

وإلى هذا فهناك إدارات تعتبر إفرنسية حيث لا يوجد لها وزارات كالأشغال العامة وإدارة البرق والبريد وادارة المعارف، فرؤساء هذه المصالح وجل موظفيها افرنسيون .

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري في القطر مراقب مدني افرنسي، وجعل لهم الامر كله فلا ينفذ شيء من اجراءات وقرارات العمال التونسيين الا بمصادقتهم ولهم نفوذ عظيم وهم مسؤولون أمام المقيم العام وحده ويمثلونه . وقـــد اشتهروا بجبروتهم حتى لقبوا بقياصرة الآفاق .

وقد سلخت المنطقة الجنوبية من القطر عن السلطة التونسية بالمرة ، واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون لادارة الشؤون الأهلية التابعة للمقيم العام . وقد امتاز الحكم العسكري في هذه المناطق بجبروته واضطهاده للسكان .

والوضع العام للحكم أن الوزراء والمديرين مسؤولون أمام المقيم العام الذي يخضع لوزارة الخارجيـــة الافرنسية ، وان فرنسا تحكم في تونس كما تحكم في مستعمرة افرنسية ضاربة بمعنى الدولة القائمة فيها وما اعترفته لها ولأهلها من حقوق عرض الحائط .

وقد ماثت دوائرها في المركز والملحقات بالموظفين الافرنسيين من جميـــع الدرجات استهدافا لاضعاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الافرنسية فضلًا عن ايجاد مجال الرزق لجيش جرار من المستوظفين الافرنسيين بحيث كادت تونس تصبح مستعمرة موظفين افرنسيين . وقد بلغ عددهم في سنة ١٩٤٧ خمسة وعشرين الفا. وهو رقم هائل لا يكاد يصدق لولا أنه مستند الى الاحصاآت المنشورة. وتكاد وظائف التونسيين قاصرة على الدرجات الثانوية والتافهة اذا استثنينا الوظائف الحكومية العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليهـــا مثل الوزارات والعمال الاداريين (الحكام الأداريون) الذين جعل المراقبون والمساعدون والمستشارون الافرنسيون هم اصحاب الشأن في عملهم . ويتقاضى الموظفون الافرنسيون مرتبات عالية وعلاوات وامتيازات متنوعة ، فضلا عن استئثار وظائفهم في الاثراء وعن الغطرسة والصلف ، مما يقاسي منه التونسيون الشدائد ومما شاهدنا بعض صوره في

سوريا ولبنان . ومن تحصيل الحاصل ان تصبح اللغة الافرنسية هي لغـــة التعامل والتسجيل والمراسلات والمراجعات في دوائر الحكومة وان يغدو مكان العربيـة فيها ضيقا أو معدوما ..

المحاكم

وقد أنشئت محاكم افرنسـية الى جانب المحاكم التونسية، ومنحت اختصاصات واسعة ، وحرم على القضاء التونسي النظر في قضايا الأجانب والأفرنسيين والقضايا التي يكون فيها التونسـيون مع الأجانب طرفا ثانيا ، كما حصر فيهـــا حق فصل المنازعات المتعلقة بالعقارات والقضايا السياسية . هذا فضلا عن أن المحاكم التونسية نفسها قد نظمت وفق قوانين افرنسية وعهد برأسة كثير منها الى قضاة إفرنسيين وحصرت مهام نيابة الحق العام فيهـا في نائب عـــام افرنسي ووكلاء افرنسيين وتونسيين يأتمرون بأمره . وكثيراً ما كانت المحاكم الافرنسية اداة ارهاب على الحركة القومية والنشاط السياسي حيث حصرت القضايا المتصلة بذلك فيهـــا . وفضلًا عن هذا فقد خوّل المقيم العام حق الامر باعتقال أي شخص لمـــدة سنتين قابلتين للتجديد دون أي محاكمة ، فكان هذا تتمة لاحكام نطاق الارهاب .

الارهاب

ولقد شهر سيف الارهاب والأرهاق على الحريات العامة بسلسلة من المراسيم واللوائح الظالمة . فالصحافة العربية مقيدة بقيود شديدة تجعلها معرضة لاقسى العقوبات . والاجتماعات كذلك ، وقد قيدت حريـة تنقل التونسيين في داخل بلادهم بقيود شديدة ، وقد سنت قوانين الخدمة الاجبارية بحيث يكون التونسي مجبراً على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه وتحت طائـــلة العقوبات الشديدة . وكثيراً ما اعلنت السلطات صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين واضطرت التونسيين الى خدمتها.

المستعمرون والاراضي

ولقد أنشأت السلطات الافرنسية في أول ما أنشأته ادارة خاصة باسم مصلحة الإستعمار والفلاحة وأناطت بها تنظيم توزيع الاراضى واستثمارها ، ثم أخذت تنفذ سياستها المذكورة على يد هذه المصلحة . ومن أول ما فعلته الغاء مشروع توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين الذين لا أرض لهم ، والذي بدىء بتنفيذه قبل النكبة وانتزعت ما وزع منها من الفلاحين وأخذت توزعها على المستعمرين . وتبلغ مساحتها نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم ونسبتها لمجموع الاراضي الزراعية هي اثنا عشر من المئة . ثم اصدرت تشريعا الحقت بموجبه الاراضي البور بأملاك الدولة وأخذت تتعسّف في تحديد هذه الاراضي وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها ، وتقطعها تدريجيا الى المستعمرين ايضا . وتبلغ مساحة هذه الاراضي ضعف مساحة الأولى . وفعلت مثل ذلك بأراضي الغابات التي تبلغ مساحتها نيفا ومليونا من الهكتارات ، وتعسفت كما تعسفت في تحديد اراضي البور فأدخلت مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة ايضا . وعهدت بحراسة الغابات والاشراف على استثمارها لجيش من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كابوسا شديد الوطأة والبغي على الناس في فرض الغرامات الفادحة تحت ستار الحراسة والتفتيش وحرمانهم من الانتفاع بشيء من احراشهم ! ووضعت يدها على مصادر مياه الري في المنطقة الجنوبية واعتبرتها ملكا للدولة ثم اخذت توجه صرفها الى اراضي المستعمرين في هذه المنطقة فيسرت لهم بذلك حظا سعيداً ببساتين النخيل الواسعة . والحقت اراضي المشاع التي كان يتصرف فيها القبائل بأملاك الدولة أيضا وأخذت تقطع ما تشاء منها للمستعمرين ، واخمدت بالحديد والنار كل حركة صدرت من القبائل بسبيل الدفاع عن اراضيهم ومورد رزقهم ، وهذه الاراضي تبلغ نحو أربعة ملايين هكتار ! ولم تتورع عن اراضي الاوقاف العامة والخاصة ، ففرضت على مصلحة الأوقاف ان تضع تحت تصرف مصلحة الأستعمار مساحة لا تقل عن الفي هكتار سنويا منذ سنة ١٨٩٨ وجعلت لهذه المصلحة

حق اختيار الاراضي التي توضع تحت تصرفها منها مقابل ثمن بخس يقدره خبير افرنسي ، ومنعت وقف الأراضي على المعاهد الدينية وحصره بالعقارات وأباحت بيع الاراضي الوقفية دون اعتداد بالشروط الوقفية . وهكذا نظمت سلسلة نهب اراضي تونس على اختلاف انواعها دون ماردع من شرف او ضمير او حق أو قانون لاحلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل أهلها .

ولأجل تسهيل توزيـــع الاراضي على المستعمرين وإستثمارها أنشأت صندوقاً باسم صندوق الاستعمار رأس ماله من ميزانية الدولة ومن قروض على حساب هذه الميزانية ! ومن الأقساط التي تستوفى ثمناً للاراضي المقطعة مـــع التنبيه أن ثمن الأراضي الذي كان يقدر تافه جداً فضلاً عن تقسيطه لعشر سنوات !

وقد بلغت مساحة الاراضي المقطعة للمستعمرين حتى سنة ١٩١٤ (٧٥٧٠٠٠) هيكتاراً أي سبعة ملايين وسبعمئة الف دونم ومـن سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٨ (١٩٧١٦٠) هيكتاراً حسب الاحصاء الرسمي واستمرت هـذه السياسة الباغية بنفس القياس .

والأراضي الصالحة لزراعة الحبوب في تونس تبلغ نحو ثلاثة ملايين هيكتار لم يبق منها في أيدي التونسيين إلا مليون .

ولقد كان من نتائج هذا النهب المنظم الغاشم ان عم الفقر بين طبقات الفلاحين وكثرت فيهم البطالة وانخفض مستوى معيشتهم وأصبحت تغذيتهم سيئة وصاروا على شفا المجاعات التي تنتشر انتشاراً مريعاً عند اي أزمة من الأزمات .

- ٦ -

المعادن

وفي تونس معادن متنوعة ومنها ما هو غني وجيد النوع من حديد ورصاص وزنك ومنغنيز ونحاس وبروم وفسفات وبوتاس . وقدحصرت السلطات امتيازاتها بالافرنسيين مقابل إيجار زهيد . ومن عجيب ما تصنعه أنها تمنح شركات الاستثمار المعدني مساعدات مالية من الميزانية إذا لحقها عجز مالي فضلاً عن ما تمنحها إياه من

مساعدات متنوعة . وقـــد كانت الصادرات المعدنيه في سنة ١٩٤٦ نصف قيمة صادرات تونس ولم تقل قبل هذه السنة عن ثلثها . وما يستخرج من مناجم تونس يشغل ثلاثة أرباع حمولة كل وسائل النقل في تونس . وفي هذا توضيح لأهمية الثروة المعدنية التونسية المنهوبة .

الصناعات

ولقد كان في تونس بعض الصناعات الوطنية فاستنت السلطات سياسة جمركية كادت تقضي عليها . وتوضع شتى العراقيل في سبيل إستفادة التونسيين من الآلات الصناعية الحديثة . وكان من هـذه السياسة ان نالت الصناعات والسلع الافرنسية إمتيازات واستثناآت متنوعة فغدت هي المتحكمة في السوق التونسية تحكماً إستغلالياً فظيعاً ، وحميت بقوة هذه الامتيازات والاستثناآت من المنافسة الأجنبية. ومما تؤدى اليه السياسة الافرنسية الاقتصادية اضطرار المنتج التونسي علـى ضيق نطاق انتاجه الى بيع نتاجه للتجار والشركات والمصدرين الافرنسيين بالأثمان البخسة وعدم ترك اي مجال للانتفاع به انتفاعاً حراً .

التجاره

ولما كانت التجارة والصناعة والزراعة الصالحة المنتجة في أيدي الافرنسيين فقد عمدت السلطات إلى جعل معول الميزانية على الضرائب غير المباشرة التي يتحمل اكثر عبئها المستهلكون الذين غالبهم تونسيون . ولقد بلغت هـــذه الضرائب في سنة ١٩٤٨ ثلاثة وسبعين في المئة من مجموع إيراد الموازنة . وهكذا ضمنت جـل الغنم للافرنسيين وأعفتهم من الغرم ونظمت بهذا الاسلوب الباغي استنفاد ما في ايدي التونسيين من قليل الايراد .

- ٧ -

التعليم

ومع ضخامة أرقام الموازنة حيث بلغت سنة ١٩٤٨ نحو عشرة مليارات من الفرنكات فإن حظ المرافق العامة وخاصة المرافق العائدة للتونسيين ضئيل جداً .

فلا يحظى من اطفال العرب الذين هم في سن التعليم بمقاعد في مدارس الحكومة إلا عشرهم او اقل . ففي سنة ١٩٤٧ مثلاً كان عدد هؤلاء نحو ستين الفاً في حين يقدر عدد الذين هم في سن التعليم بسبعمئة الف ، لأن عدد التونسيين نحو ثلاثة ملايين ونصف . هذا في حين أن عدد أبناء الاوروبيين الذين هم في مدارس الحكومة المخصصة لهم كان في هذه السنة نحو ستة وخمسين الفاً والاوروبيون يبلغون نحو ربع المليون ! ومنهـــج التعليم في المدارس الحكومية العربية إفرنسي صرف لا يكاد يوجد فيه للعربية والدين الاسلامي مكان تمشياً وراء فكرة تغيـــير الوجه العربي الاسلامي من تونس وجعله إفرنسياً .

وتضع السلطات شتى العراقيل في سبيل محاولات التونسيين لتلافي النقص والخطر بجهودهم الخاصة على سوء حالتهم المادية وضعف وسائلهم . وقصارى ما امكنهم إنشاء عدد محدود من المدارس الابتدائية في المدن وبعض الكتاتيب الأولية في القرى والبوادي لا تتلافى إلا شيئاً ضئيلا من ذلك النقص والتقصير . ومع انه يوجد بعض المدارس الثانوية في تونس إلا ان جل مقاعدها مخصص للافرنسيين كما ان منهجها إفرنسي ومكان العربية فيها ضيق جداً ولولا المدرسة الصادقية الثانوية التي تعيش على اموال الوقف لما كان هناك شباب تونسي مثقف بعض الشيء بثقافة عربية اسلامية . وليس في تونس تعليم عال . وتوضع العراقيل الكثيرة في وجه الذين يرغبون في إرتياد مناهله في اوروبا . وكل ما في الامر ان السلطات تسمح لبعض الشبان بالسفر الى اوروبا . في نطاق ضيق وشروط عسيرة .

وعناية السلطات بالمرافق الصحية والاجتماعية بالنسبة للعرب لا تخرج عن هذا الاطار وتلك الفكرة بما تبدو مظاهره وآثاره في انتشار امراض السل والتراخوما والبطالة وسوء المسكن والغذاء وضعف البنية والحياة البائسة التي يرتكس فيها السواد الاعظم منهم ...

التجنس

وقد فتح باب التجنس للتونسيين لتحويلهم الى رعايا افرنسيين كوسيلة من وسائل الهدف الذي استهدفوه ، وجعلته مغرياً بالمنح والامتيازات وميسراً بأخف

الشروط ، في حين حرم على الأجانب التجنس بالجنسية التونسية ؛ حتى لقد اصدر تشريع يقضي باخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم في تونس من الرعوية التونسية والحاقهم بالجنسية الافرنسية !

وقد نشط كذلك التبشير في اوساط المسلمين وخاصة قرام وباديتهم كوسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف هدف تبديل وجه تونس العربي المسلم ، ويسرت الوسائل والحماية لبعثاته ومنحت المساعدات المالية الكبيرة ..

وقد انشئت كتائب تونسية تحت قيادة الافرنسيين وتنظيمهم على أساس التطوع والاغراء ، وكان عددها يزاد حين الحاجة . وكثيراً ماحاربت الى جانب الافرنسيين في اوروبا وغيرها ، واستخدمت في مصالحهم ومآربهم الاستعمارية . وقد جعلت هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل ذلك الهدف حيث يكاد المتجند احيانـــاً في حياته الطويلة التي يحياها في الوسط الافرنسي والنظام الافرنسي ينسى لغته ودينه وعاطفته !

- ٨ -

النضال الوطني

ولقد ابى التونسيون كما قلنا ما اريد لهم ولبلادهم من استعمار واذلال وارهاق وتبديل وجه ودين ، فأخـــذوا منذ بدء النكبة يقفون موقف المناوىء المناضل ويقومون بالحركات الوطنية الثورية . وقـــد ذكرنا ما كان من ثورات عنيفة في السنة الاولى من الاحتلال ، وما كان من ثورة ابن خليفة التي امتدت ثلاثين عاماً في المنطقة الجنوبية ولم تفتر إلا في سنة ١٩١٠

زعامة علي باش

ولقد اخذت حركة المقاومة والنضال تدخل في نطاق التنظيم الوطني منذ بدء القرن الحالي ؛ وكان من اول من تولوا زعامة الحركة الوطنية الزعيم علي باش . ومن

ابرز واقدم حوادث هذه الحركة مظاهرات عام ١٩١١ وما كان فيها من اشتباكات دموية بين الجماهير وقوى الاحتلال بسبيل الاحتجاج على عسف السلطات الافرنسية. وقد أعلنت السلطات الأفرنسية بمناسبتها الأحكام العسكرية التي ظلت البلاد تحت كابوسها إحدى عشرة سنة، واضطر الزعيم وكثير من أنصاره الى الفرار الى خارج البلاد وخاصة إلى الأستانة فأصدرت السلطات امراً بمنعهم من العودة إلى وطنهم.

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اعتقل اكثر من بقي من رجال الحركة او الذين يمتون اليهم. ومع ذلك فقد ثار سكان الجنوب ثانية عام ١٩١٥ وخاصة قبائل بني زيد ثورة عنيفة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والخسائر والضحايا.

الحزب الحر الدستوري وزعامة الثعالبي

وعقب هدنة الحرب العالمية نشأ الحزب الحر الدستوري واضطلع منذئذ بالحركة الوطنية، وأخذ ينشط في سبيل تنظيم صفوف التونسيين وتوجيههم نحو غاية الحزب وهي الغاء الحماية واستعادة السيادة، وممن انضم الى الحزب الامير محمد المنصف الذي ولي العرش وكان ولياً لعهده. واخذ الزعيم الثعالبي وغيره ممن كانوا في خارج تونس ينشطون ويقدمون العرائض لمؤتمر الصلح ويبثون الدعوة الى قضية تونس ويلفتون اليها الانظار وينشرون الرسائل الخ.

ولقد ضاقت الحكومة الفرنسية ذرعاً بالزعيم الثعالبي فاعتقلته في باريس وارسلته الى تونس للمحاكمة بتهمة التآمر مع الاعداء، فأثار هذا العمل هياج الشعب، وتفاقم الخطب حتى اضطرت السلطات الى اطلاق سراح الزعيم، وحينئذ تولى بنفسه قيادة حركة الحزب التي اخذت تقوى وتعم وتنذر بانفجار عام.

وتشجع الباي محمد الناصر فأخذ يؤيد مطالب الشعب ويهدد بالتخلي عن العرش إذا لم تستجب فرنسا اليها، وتوترت الحالة بينه وبين المقيم العام حتى ارسل هـــذا قوة حاصرت القصر وكان ذلك عام ١٩٢٢ فهاج الشعب ايضاً وقام بمظاهرات عامة في كافة المدن التونسية حتى اوشك الحال ان ينقلب الى ثورة عاصفة فاضطرت السلطات ثانية الى النكوص والتهدئة، وقطعت وعوداً صريحة بإجابة المطالب الوطنية. وقد

زار ميلران رئيس الجمهورية الافرنسية تونس بسبيل التهدئة ايضا .

غيرأن فرنسا لم تلبث ان اخلفت بوعودها واخذت تسلك سبيل القمع، فعطلت الصحف الوطنية ، ومنعت الاجتماعات العامة ، واعتقلت عدداً كبيراً من رجال الحركة وشبابها.واستطاع بعضهم ومن جملتهم الزعيم الثعالبي الافلات.وكانت فترة خمدت فيها الحركة الوطنية بعض الشيء نتيجة للاضطهاد الباغي وتشتت رجال الحركة وقادتها . ولقد اجتمعنا مراراً واحياناً مدة طويلة مع الزعيم الثعالبي في فلسطين أثناء زياراته لها وإقامته فيها ، فكنا نسمع ما يدمي القلب من بلاء تونس الشهيدة وشدة قسوة فرنسا ومجانبتها كل حق ومنطق في ما كانت تنتهجه من مناهج وتتصرف من تصرفات بسبيل تحقيق هدفها الباغي .

الحزب الحر الدستوري بزعامة ابي رقيبة

على ان الحركة لم تلبث ان انبعثت من جديد على يد الشباب الذين اخذوا ينشطون ويملأون الفراغ ، وانتعشت خاصة في عام ١٩٣٠ بسبب حادثين وقعا فيه . فقد عقد الافرنسيون مؤتمراً تبشيرياً للنظر في نشرالنصرانية في تونس وسائر بلاد المغرب العربي ، وكان من استهتارهم ان وصفوه كحلقة من سلسلة الحروب الصليبية التاسعة . وقد اخذت السلطات الافرنسية تستعد لحفلات كبيرة تقام بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال تونس . فتداعى الوطنيون الى مؤتمر كبير قرروا فيه استنكار العملين واستطاعوا ان ينشروا دعاية واسعة ضدهما ويؤلبوا الرأي العام عليها ، مما اضطر السلطات الى العدول عن إقامة حفلات ذكرى الاحتلال . ولكنها لم ترد أن تبدو مهزومة فاعتقلت فريقاً من الشباب وقدمتهم للمحاكمة فثارت ثائرة الشعب وقامت مظاهرات صاخبة فجنحت ثانية الى المسايرة وافرجت عن المعتقلين والغت محاكمتهم . فكان هذا مما قوى نشاط الحركة الوطنية الجديدة التي ترأسها الزعيم ابو رقيبه .

وقد اهتمت السلطات سنة ١٩٣٢ لتشجيع حركة التجنس واستصدرت فتاوى من رجال الدين الموالين لها بأن التجنس لا يُخرج عن الدين فتصدت الحركة الوطنية

لهذه المحاولة وعاضدها الشعب فضرب بفتاوى المشايخ عرض الحائط واخذ يمانع في دفن المتجنسين في مقابر المسلمين، وادى الموقف الى اشتباكات عديدة نفخت كذلك في الحركة الوطنية روحاً وقوة حتى ان السلطات اضطرت الى انشاء مقابر خاصة بالمتجنسين مما عد نصراً عظيما للحركة الوطنية . وكان من اثر الضغط الروحي العام ان اخذ المتجنسون يطالبون بالعودة إلى تونسيتهم .

- ٩ -

الميثاق القومي وأثره

وقد أعيد تنظيم الحزب الحر الدستوري من جديد . وعقد القائمون بأمره مؤتمراً في عام ١٩٣٣ وضعوا فيه ميثاقاً قومياً يتضمن تحرير البلاد من الافرنسيين وإستقلالها إستقلالاً تاماً ، وصار هذا الميثاق هو شعار الحركة الوطنية منذئذ . وقد سارعت السلطات إلى حل الحزب ، غير أن الوطنيين لم ينهزموا فعقدوا مؤتمراً ثانياً عام ١٩٣٥ وخرجوا منه بتنظيم حزبي جديد يقوم على أسس شعبية ونشطوا في عقد الاجتماعات العامة والتطواف في المدن والقرى والبوادي . وقد جاء في هذه الظروف مقيم إفرنسي عام فحاول تخدير الشعب بما اظهره من إستعداد للتوسعة على الحريات ولكن الحزب ظل متمسكاً بالميثاق القومي فلم يلبث المقيم العام أن نكص على عقبيه وسار في سياسة مضادة لما اظهره ، وقرر القضاء على الحركة الوطنية ، فاعتقل أبرز أعضائها وقادتها ونفاهم الى الصحراء الجنوبية ، فأثار هذا العمل الشعب وعمت الاضطرابات البلاد .

القمع والنضال السري

واعلن الاضراب وحدثت اشتباكات دموية . وركبت السلطات رأسها فاشتدت في القمع والاضطهاد والارهاب فكانت محنة قاسية استمرت نحو سنتين دون انقطاع فلما أخذ الجو الدولي بالتجهم بسبب تنمر موسوليني استبدل المقيم العام،

فجنح الجديد الى التخفيف فأطلق سراح المعتقلين ووسع على الناس في الحريات ؛ فتمكن الحزب من استكمال تنظيم صفوفه في هـــذه الفرصة ؛ وانتشرت شعبه بسرعة كبيرة في مختلف أنحاء البلاد ، ورافقها حركة تشكيلات الكشافة والنقابات تحت لواء الحزب ، فأصبح الشعب جميعه تقريباً متكتلا في تشكيلات الحزب . وعمدت فرنسا الى سياسة التخدير فأرسلت أحد وزرائها لدرس الحالة وأعلن ضرورة إصلاح الادارة ؛ ولكن الوعد ظل حبراً على ورق وظلت القافلة تسير وفق المنهج الاستعماري المرسوم ، فدعا الحزب الى مؤتمر ثالث عـــام ١٩٣٧ تقرر فيه خطة المقاومة والعنف ؛ فقابلت فرنسا القرار بالقمع والتنكيل واخذت تعتقل رجال الحرب أثناء تجولاتهم وتمنع الاجتماعات العامة ، فأدى هذا الى صدام ثم الى اشتباكات دامية واسعة المدى عام ١٩٣٨ ، وقامت مظاهرات عامة ظهرت فيها قوة الحزب واشتدت السلطات في القمع والمطاردة والاعتقالات ، واعلنت الأحكام العرفية وغصت السجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش يعيث فسادا في البلاد ، ويعتدي على الناس في الشوارع وينتهك حرمات البيوت . غير أن هذا لم يكن ليقضي هذه المرة على الحركة التي شملت جميع الطبقات وقويت شعلتها ؛ فاستمر الكفاح وأخذ يصطبغ بصبغة عنيفة لم تعرف من قبـــل ، وكان يزداد قوة كلما أزدادت السلطات بالعسف والبطش ؛ وكانت اضطرابات ووقائع دموية شديدة بالرغم من الأحكام العسكرية واعتقال الألوف واستمرار سياسة التنكيل والارهاب

وقد عمد من استطاع النجاة مـــن رجال الحزب الى التنظيم السري ونشر الاذاعات السرية لاذكاء الروح الوطنية ، وكان تنظيما قوياً وثيقاً يدل على تصميم القائمين به وبراعتهم . وارسلت فرنسا لجنة تحقيق نيابية تقدم اليها وفود البلاد بطلب اطلاق سراح المعتقلين وتحقيق مطالب الشعب . وقد استمرت هذه الحركة القوية التي بدأت قبل الحرب العالمية الثانية بالرغم من اعلان الحرب .

بعد انهيار فرنسا

ولما انهارت فرنسا جنح عمالها الى التهدئة والمسايرة بعض الشيء فتنفس الناس

الصمداء ورأى الوطنيون ان الوقت قد حان لاعلان بطلان الحماية والمناداة باستقلال تونس . وقدم الحبيب تامر الذي تولى التنظيم السري أثناء موجة الارهاب الشديدة عريضة للباي يطلب فيها إعلان سقوط الحماية واطلاق سراح المعتقلين في البلاد وفي فرنسا كما هيئت عرائض مماثلة مـــن مختلف الطبقات وحملتها وفودهم ؛ فاعتقلت السلطات الوفود قبل مقابلتهم للباي فجدد هذا حالة التوتر وبدأت حركة تخريبية وثورية قوية ، فأعتقلت هيئة الحزب فقامت مقامها هيأة ثانية فاعتقلت فقام مقامها هيأة ثالثة وظلت الحركة نشيطة والاضطرابات مستمرة .

- ٩ -

وفي سنة ١٩٤٢ ارتقى العرش محمد المنصف الذي هو مـــن اعضاء الحزب الدستوري فتعززت الحركة الوطنية كثيراً . وقد قدم الى حكومة فيشي طلباً بإحترام السيادة التونسية وإجابة رغائب الشعب التي كانت أصواته ترتفع بالمطالبة بها فوعدته بالانجاز ولكنها لم تف . وكان هذا من أسباب تبييت الغدر له . ونزلت في هذه السنة جيوش المحور إلى تونس بمساعدة القادة الفيشيين ؛ وقام المعتقلون بحركة تمرد ، وتمكنوا من فتح باب السجن ولكنهم لم ينجحوا في حركتهم . وقد سايرت السلطات الموقف فأطلقت سراحهم كما اطلقت سلطات المحور سراح المعتقلين في فرنسا ومنحتهم حرية الانتقال ، فذهب بعضهم الى ايطاليا والمانيا ، وكانت فرصة عظيمة للحركة الوطنية في داخل البلاد وخارجها ازدادت فيها قوة ونشاطاً وأملا وانطلاقاً وتضامناً . وحاول الباي أن يخطو الى تحقيق المطـــالب القومية بنفسه ؛ ولكن الخطوة عقمت بإحتلال الحلفاء تونس وصيرورتها ميداناً من ميادين الحرب بين الحلفاء والمحور .

ووجدت السلطات الافرنسيه الديغولية التي برزت تحت جناح الحلفـاء والتي سمت نفسها بفرنسا الحرة كذباً وزيفا الفرصة سانحة للقضاء عـلى الحركة الوطنية فخلعت الباى ونفته وقامت بحركة قمـع إجماعي في كافة أنحاء القطر ، وأعدمت المئات بدون محاكمة كما القت بالالوف في غياهب السجون والمعتقـــلات النائية للارهاب وإثارة الرعب .

علي باش الزعيم التونسي

عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي



الحبيب ابورقيبه زعيم الحزب الدستوري التونسي

على ان الشعب لم يهن والحركة لم تخمـــد ، وقامت ثورات مسلحة في بعض الانحاء لتعبر عن إرادة تونس الحرة المناضلة وان لم تستطع زلزلة الافرنسيين عن جورهم وغدرهم ، ولا سيما إنهم قووا بما احرزه الحلفاء من نصر على المحور واستعادوا بعض ما كان لفرنسا من مكانة بينهم .

- ١٠ -

وفي سنة ١٩٤٥ استطاع بعض قادة الحزب الافلات مـــن تونس الى مصر متحملين اقسى ما يمكن ان يتحمله امرؤ في سبيل وطنه وأخذوا ينشطون فيها في سبيل الميثاق القومي .

ولقد استمرت السلطات على نهجها في البطش والقمع للقضاء على الحركة دون ما خجل ولا تورع مما اذاعته فرنسا وحلفاؤها من مبادىء الحرية ومناهضة الاستعمار واغمض الحلفاء أعينهم عن هذا الجور الرهيب لان اكثرهم كان كاذباً مضـللا فيما يذيعه . وقد تكررت الاضطرابات في تونس ضد ذلك الغدر وهذا الاغماض .

المؤتمر الكبير والميثاق القومي

وعقد رجال الحركة سنة ١٩٤٦ مؤتمراً شهده عدد كبير من علية القوم ورجال الحركة وجددوا العهد لميثاقهم بإعلان بطلان الحماية والكفاح في سبيل الاستقلال والانضمام الى قافلة الحركة العربية العامة عن طريق الجامعة العربية التي كانت قد نشأت وأخذت تمثل في دور قيامها أعداف الحركة العربية القومية ، واخذوا وما يزالون يعملون بكل وسعهم في سبيل تحقيق ميثاقهم في الداخل والخارج دون وهن ولا كلل بالرغم مما تسلكه فرنسا فيهم من سياسة الشدة والعنف حيناً والتخدير حيناً آخر وكان من هذا الأخير التعديل المزيف الذي ادخل عـــلى نظام مجلس الوزراء الذي ظنت فرنسا انه قد يرضي الشعب مع بعده كل البعد عن رضائه لأنه لم يعد يرضى عن ميثاقه القومي بديلا ولا ينخدع عنه باى خدعة .

وهكذا تسير تونس في سبيل هدفها القومي وتنضم الى قافلة الحركة العربية التحريرية العامة، وتتصارع مع قوى البغي والعدوان الذي اصبح طابعاً مشؤوماً للسياسة الافرنسية ، وهي صارعة له ان شاء الله بعد ان اتقدت فيها الشعلة وعمت بنورها البلاد .

الفصل الثالث

فرنسا ومراكش

- ١ -

حالة مراكش قبل النكبة

ومنذ أن أنشبت فرنسا مخالبها بتونس انصرفت إلى التفكير الجدي في القفزة الثالثة . أي إنشاب هذه المخالب بمراكش التي كانت تحرك مطامعها قديماً لتتم بذلك إحكام السلسلة التي اعتزمت على غل أقطار المغرب العربي بحلقاتها ، وقلبها جميعاً الى مستعمرات إفرنسية .

ولقد لعبت المملكة المراكشية أو « المغرب الاقصى » حسب تسميتها العربية القديمة أدواراً عظيمة في تاريخ الاسلام وتعاليه وحضارته وفتوحاته على مختلف الأدوار ، ومنها اتجه الفاتحون الاولون الى الأندلس وأطراف أوروبا الغربية ، وإلى أواسط افريقية كما انها ظلت تمد السلطان العربي في اسبانيا بالدم الجديد آناً بعد آن حيث يعود اكبر الفضل الى الدول التي قامت فيها في القرون الوسطى في بقاء ذلك السلطان نحو ثمانية قرون .

ومنذ ثلاثة قرون قامت فيها الدولة العلوية الشريفية التي ما تزال سلالتها تتربع على عرشها . وقد تقلبت الحالة في مراكش في عهد هذه الدولة بين اليسر والعسر والقوة والضعف ، واستطاع بعض سلاطينها ان يجعلوا الدولة في بعض الظروف قوية محترمة الجانب مخطوبة الود ، وأن يقفوا من مطامع الدول منها موقف الاباء والنضال الجدي .

تنافس فرنسا واسبانيا ومطامعهما

غير أنها كان يعتورها ظروف فتور وضعف وارتباك بسبب ما كان يقوم فيها من فتن قبائلية من آن لآخر وبسبب سني الجدب التي كانت تحدث المجاعات المبيدة ، فكان الطامعون يغتنمون الفرص لدس يد الفساد ، وكانت اسبانيا وفرنسا بنوع خاص اكثر الدول تبيتاً للطمع في هذه البلاد الغنية الواسعة واكثرهما ترقبا للفرص وتوثباً للقفزة وتحريكا للفتن واشدها تنافساً فيما بينها عليها . وقد استطاعت الأولى في بعض ظروف الضعف ان تستولي على بعض المراكز والشواطي الشمالية الواقعة على البحر الأطلانطي ، وكان هذا مما أدى الى نضال مرير ومديد بينها وبين الدولة العلوية لم يكن ينجح في اجلاء اسبانيا عن جميع ما في يدها .

ولقد مر بين احتلال فرنسا لتونس وفرضها الحماية على مراكش نحو ثلاثين عاماً ١٨٨٢ - ١٩١٢ لم تن فيها فرنسا عن تهيئة الاسباب وتحين الفرص لتنفيذ عزيمتها وكان التنافس والتجاذب والتشاد الاستعماري بين الدول الاوربية الكبرى على الشرق الأوسط وشمال افريقيا قد اشتد في اواخر القرن التاسع عشر فأخر فرنسا عن الوصول الى بغيتها .

المؤتمر الدولي عام ١٨٨٠

وقد تداعت هذه الدول كنتيجة من نتائج التنافس والتشاد حول مراكش الى مؤتمر انعقد في مدريد عام ١٨٨٠ لتنظيم علاقاتها بمراكش اشترك فيه احدى عشرة دولة اوروبية والولايات المتحدة الاميركية وانتهى بمعاهدة فرضت على مراكش كثيراً من الالتزامات ومن جملتها دولية طنجه ، وان كانت نصت على الاعتراف باستقلال مراكش وتمام سلطانها واحترام اراضيها ، وصبغت قضية مراكش بصبغة دولية أوهمت أنها تدرأ عنها شر مطامع فرنسا واسبانيا خاصة .

اصابع فرنسا

ولكن فرنسا لم تعبأ بذلك ونشطت الى استغلال تلك الالتزامات اكثر من غيرها حيث رأت فيها الثغرة النافذة ، فأخذت ترسل عمالها الاستعماريين في شكل

بعثات طبية وتبشيرية ، وتنشيء الشركات والبيوتات التجارية مما كان من تلك الالتزامات الممنوحة للدول على السواء . وقد استطاعت ان تحصل على طلب من السلطات لبعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثه وسيلة الى نفوذ فرنسا العملي والرسمي ، ثم اخذت تغري بعض اصحاب الطرق الصوفية وتعمل على كسب ولائهم وتسييرهم في الخطة التي اختطتها بسبيل ما اعتزمت عليـــه من نية الغدر ، حيث كان للطرق الصوفية ومشايخها تغلغل شديد في السواد الاعظم .

- ٢ -

الاتفاقات السرية

ولقد حرك هذا النشاط الدول ، فأخذ كل من انكلتره وايطالية والمانيـــة تتحفز للسير في خطط مماثلة ، وحركت اسبانيا خاصة لانها رأت فيه خطراً على ما تعده منطقة حيوية لها، فاضطرت فرنسا الى السعي في سبيل التفاهم مع هذه الدول وتصفية الجو والطريق لنفسها ، ونتج عن هذا السعي ابرام سلسلة اتفاقات سرية بينها وبين ايطاليا سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل حريتها في العمل في ليبيا، وبينها وبين انكلتره سنة ١٩٠٤ وافقت فيها هذه على اطلاق يد فرنسا في مراكش مقابل اطلاق يدها في مصر ، وبينهـــا وبين اسبانية سنة١٩٠٥تعهدت فيها هذه بعدم معارضة مشاريع فرنسا في مراكش مقابل اعتراف هذه باحتلالاتها ومركزها الخاص في المنطقة المراكشية الشماليـــة وتعهدها بتسوية حدود مرضية .

ضغط فرنسا على مراكش وأثره

وسارعت بعــد ذلك الى خطوة ثانية فقدمت مذكرة للحكومة المراكشية تطالب فيها بزيادة عدد أعضاء البعثة العسكرية وحصر جمع الشؤون العسكرية في يد هذه البعثة ، وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية المحلية من قبل مراقبين افرنسين

بحجة ان امن البلاد الداخلي والخارجي بما يهمها هماً عظيما بسبب مصالحها الاقتصادية والحدود المشتركة بينها وبين مراكش في الجنوب والشرق . غير انها اصطدمت بموقفين موقف سلطان مراكش الذى عرض المطالب على مجلس اعيان البلاد فقرر رفضها لتعارضها مع معاهدة مدويد وطلب عرضها على الهيئة الدولية ، وموقف المانيا التي تجاهلتها فرنسا حيث زار الامبراطور غليوم طنجة بمظاهرة صاخبة وصرح لممثلي الحكومة المراكشية بأنه ينظر الى السلطان على اعتباره الحاكم الشرعي المستقل

المؤتمر الدولي الثاني

وأدى الموقفان الى انعقاد المؤتمر الاولي في سنة ١٩٠٦ في الجزيرة كان من نتائجه تجديد الاعتراف باستقلال مراكش ووحدتها وسيادة السلطان ، وعدم الاعتراف لأي دولة بمركز خاص فيها ؛ وهكذا منيت فرنسا بالهزيمة في هذه الجولة ولكنها لم تنهزم وظلت تترقب الفرصة للتنفيذ والانقضاض . ونصحت داهية الاستعمار التي لا يهمها عهد ولا ذمة في سبيله وهي بريطانيا زميلتها باوضاء المانيا قبل أن تخطو خطوة عملية وقالت ان مؤازرتها لها والاغضاء عن قرارات مؤتمر الجزيرة منوطان بذلك .

فتنة ابي حمارة وأثرها

غير ان فرنسا لم تأخذ بهذه النصيحة واستنحت فرصة فتنة داخلية قام بها ثائر نعت بأبي حماره وكان يزعم أنه ذو حق في العرش فأمدته وساعدته حتى عمت فتنته البلاد واستمرت بضع سنين . وقد استنفدت الفتنة طائل الاموال فاضطر السلطان المولى عبد العزيز الى الاستقراض من فرنسا واسبانيا وانكلتره ، واستغلت فرنسا الموقف فأجبرت السلطان على قبول مراقبتها على الجمارك ضمانة للأموال التي استقرضها . وحينما بلغت الفتنة ذروتها ارسلت قوة احتلت مدينتي الدار البيضاء ووجده المجاورة لحدود الجزائر بحجه منع الفتنة عن هذا القطر وحماية حدوده ، واجبرت السلطان على توقيع معاهدة اعترف بها بهذا الاحتلال وبحق فرنسا في التدخل في الرسوم الجمركية وباقرار نظام خاص للدار البيضاء ومناطق الحدود المجاورة للجزائر واسناد اداوتها لعمال افرنسيين على ان يكون كل هذا موقتاً .

موقف المانيا وارضاؤها

وأهاج هذا الشعب والمانيا معاً . اما الشعب فقد اتفق جهرة من رؤسائه مع المولى عبد الحفيظ اخي السلطان على خلع الاخير واعتلائه العرش مكانه على اساس انهاء الاحتلال والتدخل الافرنسي ، وانتهاج منهج اصلاحي شامل في الدولة ، فثار عبد الحفيظ على اخيه وتمكن من خلعه ثم أخذ فعـــلا في اتخاذ الاجراآت للاصلاح في مختلف المناحي من دستور وقوانين وتعليم وعمران الخ . واما المانيا فأرسلت بارجة الى ميناء اغادير كتهديد لفرنسا وطلبت من هـــذه ومن زميلتها اسبانيا ان تسحبا قواتها الاحتلالية . وحينئذ رأت فرنسا انه لا مناص من ارضاء المانيا وتم ذلك بمعاهدة عقدت سنه ١٩١١ اعترفت المانيا فيها لفرنسا بحمايةمراكش مقابل تنازل هذه لها عن بعض ممتلكاتها في افريقية الاستوائية .

نجاح المؤامرة ومعاهدة الحماية

وهكذا استحكمت حلقات المؤامرة الاستعمارية الاوروبية وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها مـــن معاني الحق والشرف كما نسيت معاهداتها وتوكيداتها واعترافها بسيادة مراكش ووحدتها حينما نال كل منها تعويضاً ، وتركت هـذه وجهاً لوجه وحدها امام فرنسا ، وقد شعر الشعب بالمؤامرة فانفجرت ثورته عـلى السلطان وضعف امر الحكومة ضعفاً شديـداً فاستـنحت فرنسا الفرصة وزحفت قواها في اواخر عام ١٩١١ نحو فاس عاصمة الدولة بحجة تأمـين الامن [الذي هي مسئولة عنه وفاقا للاتفاقات السابقة ثم حماية السلطان مـن رعيته واحتلتها ، ثم قدم الوزير الافرنسي معاهدة الحماية الى السلطان واخذ يضغط عليه ترغيبا وترهيبا في ظل قوى الاحتلال التي ملأت العاصمة حتى وقعها وكان ذلك يوم ٣٠ مارس من عام ١٩١٢ .

نصوص المعاهدة ومداها

ولقد نصت المعاهدة على انشاء نظام جديد يسمح بالاصلاحات الادارية والقضائية والثقافية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة في ادخالها لمراكش ، وتعهد فرنسا ببذل تأييدها الدائم للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه او عرشه او يقلق امن مملكته ، وانطواء النظام الجديد على احترام التقاليد الدينية الاسلامية واستمرار تطبيقها ، وحرمة السلطان ومكانته المعتادة ، وصيانة المنشآت الاسلامية والوقفية ، وتخويل فرنسا بمفاوضة اسبانيا والاتفاق معها على تنظيم مركزها في القسم الشمالي من البلاد، وموافقة السلطان على احتلال فرنسا لكل مكان ترى إلى احتلاله ضرورة لاستتباب الامن وضمانة حرية التجارة، وحق فرنسا بمزاولة كل عمل من اعمال الحراسة البرية والبحرية في المياه المراكشية ، وواجب السلطان وخلفائه بإصدار الاوامر التي يقتضيها النظام الجديد طبقاً لاقتراحات الحكومة الافرنسية، وتمثيل فرنسا لدى السلطان بمقيم عام مفوض ومسئول عن تنفيذ المعاهدة يكون في ذات الوقت هو الوسيط الوحيد بين السلطان وحكومته وبين الممثلين الأجانب والمكلف بجميع القضايا التي تهم الاجانب في المملكة المراكشية وصاحب الحق في المصادقة باسم الحكومة الافرنسية على كل امر يصدر من السلطان والاذن بنشره ليصبح نافذاً ، ورعاية مصالح مراكش ورعاياها في الخارج من قبل ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها ، وتعهد السلطان بعدم عقد اي عقد ذي صبغة دولية دون موافقة سابقة من فرنسا ، وامتناعه عن عقد اي قرض عام او خاص او منح اي امتياز على اي شكل دون موافقة سابقة من فرنسا كذلك ، وتنظيم الشؤون المالية بضمان الخزينة وجباية مداخيل الدولة من قبل خبراء افرنسيين مع رعاية الحقوق المخولة لحاملي سندات الدين المراكشي العام .

والنصوص العجيبة الفظيعة التي تمنح فرنسا بها لنفسها حق التصرف المطلق في البلاد وتجعل مقيمها العام فوق السلطان وتقيد هذا بحيث لا تجيز له اي حركة او عمل إلا بموافقة هذا المقيم ، بل والتي تجاوزت في صراحتها وبعد مداها النصوص

المفروضة على تونس والجزائر مع اتحاد الجوهر والقصد لا تدع شكاً في انها امليت بالقوة والاكراه والخديعة ؛ كما ان موقف السلطان عبد الحفيظ يؤيد ذلك حيث ثارت ثائرته حينما عرضت عليه ورفض التوقيع عليها قائلاً انه يأبى ان يهين نفسه بنفسه، وأخذ يفند النصوص ويتساءل عن الضمانات التي تقدمها فرنسا بشأن التقاليد الاسلامية . غير انه وجد نفسه امام تهديد ظن انه سيكون اوخم عاقبة على بلاده فوقع المعاهدة كارهاً تفادياً لهذه العاقبة ، ثم انسحب من العرش عقب توقيعها . وقد احتوى نص تنازله اشارة صريحة الى ظروف التوقيع ونتائجه حيث جاء فيه : لقد رأينا أنفسنا عاجزين عن القيام بواجباتنا التي يجب ان نقوم بها كملك نحو شعب فقرّرنا التنازل ...

- ٥ -

ثورة فاس ضد المعاهدة

ولقد كان وقع المعاهدة والاحتلال على الشعب شديداً صاعقاً ، اهاجت ثائرته وجرحت كبرياءه ، وكان من نتيجة ذلك ان انقض الجنود المراكشيون ليلة ١٧ – ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباطهم الافرنسيين وقتلوهم وكانوا ثمانيه وستين ضابطاً ثم خرجت الكتائب المراكشية فاستولت على معظم المدينة واخذ الجنود يتعقبون الافرنسيين في العاصمة (فاس) ويفتكون بهم وانضم اليهم الاهالي هائجين صاخبين ليعبروا عن شعور الألم الشديد الذي ألم بهم ، وسادت الفوضى في العاصمة في الايام التالية ، وكان دوي الرصاص يلعلع فيها ليـــلاً ونهاراً ، وازداد الحرج والفوضى عندما أخذت القبائل المجـاورة تزحف على العاصمة لتشترك مع الثائرين في الفتك بالغزاة البغاة .

وهلعت فرنسا من الاخبـــار فعجمت عيدانها واختارت اصلبها راقساها وهو المارشال ليوتي الذي يعد سفاح مراكش الباغي وارسلته قائداً ومقيما عاماً ، وجاء بموكب عظيم تعمد اظهار الابهة والارهاب ، ودخل فاس في اواسط شهر مايس ١٩١٢ دخول الغازي المطمئن ، فكان دخوله بمثابة صب الزيت على النار حيث اشتد

لهيب الثورة في كل مكان في العاصمـــة وحاصرتها القبائل الثائرة ، وكانت الفرق الافرنسية تنهزم واحــــدة بعد اخرى حتى لقد حدث المارشال نفسه بالانسحاب ، ولكن المدفعية استطاعت ان تنقذ الموقف وتفك الحصار فأدى هذا الى خمود النار في فاس .

ثورات الجنوب

غير ان روح التمرد والألم كانت قد سرت في انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه الهبه في الجنوب واكتسحه واحتل في آب ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على منطقة الشاوية . ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على جيش الشيخ وأرغمه الى الانسحاب من مراكش إلا ان حركة التمرد والمقاومة بفضل دعوة الشيخ ظلت مستمرة الى سنة ١٩٣٥ .

وكذلك ثار الزعيم موسى وحمو في منطقة تافيلات في اقصى الجنوب في نفس الظروف وكانت ثورة عسكرية قوية واسعة كلفت الافرنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات ، وانهزمت فيها بضع حملات ، ومع ان الافرنسيين دبروا اغتياله فإن حركته لم تخمد حيث خلفه على رأسها ابو القاسم النقادي الذي استطاع ان يستمر في تمرده ومقاومته الى سنة ١٩٣٥ أيضاً .

وفضلا عن هاتين الثورتين الكبيرتين والمديدتين فقد شبت ثورات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد وخاصة في مناطق جبال الأطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة، وكانت كلما خمدت واحدة شبت اخرى الى سنة ١٩٣٣

تنازل السلطان عبد الحفيظ

ولقد كان السلطان عبد الحفيظ شديد الالم من الموقف . وكان الشعب يعرف انه اجبر على المعاهدة إجباراً فلم تتزلزل مكانته في نفوسهم. فرأى ليوتي ان يستغل هذه المكانة فحاول تهدئة السلطان واستدراجه باللين ، وهدده بالواسطة بفقد عرشه إذا لم يتضامن معه على تسيير الامور ، ولكنه ابى ان ينقاد اليه وأعلن عزمه على

مغادرة مراكش وانتقل الى ميناء الرباط بسبيل ذلك بعد ان اسمع ليوتي قارص النقد وحذره من النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة البغي التي انتهجها الافرنسيون ، ووقع وثيقة التنازل عن العرش وغادر البلاد في ١١ آب ١٩١٢ ، وخرج اهل المدينة زرافات زرافات ليلقوا آخر نظرة على الملك الذي آثر ان يقضي بقية عمره في المنفى على ان يحتفظ بالعرش ويساهم في ما يُبَيَّتُ لبلاده من غدر وعسف، وخلفه اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل مع الافرنسيين الدور الذي اباه اخوه.

نكبة تقسيم مراكش رسمياً

ولقد نصت المعاهدة المفروضة على تخويل فرنسا تنظيم علاقة اسبانيا بمراكش ومركزها ... لم يكن يوماً ما شرعياً وظلت مراكش تكافحه في كل مناسبة فكانت نكبة مراكش بهذا النص مزدوجة تقسيم واستعمار . وقد جرت المفاوضات بين الدولتين الباغيتين وانتهت بعقد معاهدة في ما بينهما في تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ نصت على بقاء المنطقة الشمالية التي تبلغ مساحتها نيفاً وعشرين الف كيلومتر مربع تحت الاحتلال الاسباني على ان تكون داخلة في نطاق سيادة السلطان الدينية والمدنية يمثله فيها خليفة عنه، يختاره من مرشحين تقدمهما اسبانيا له، ويكون لاسبانيا ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية فتمثلها في الخارج وتدخل ماتراه من نظم واصلاحات، ويكون لها مقيم عام له من الصلاحيات ما للمقيم الافرنسي العام في المنطقة الافرنسية.

ومنذئذ وفرنسا في معظم البلاد المراكشية واسبانيا في المنطقة الشمالية منها تطبقان مناهج استعمارهما المظلمة التي تماثل ما يطبق منها في الجزائر وتونس ، وتحكمان البلاد بالحديد والنار وتقمعان كل حركة نضالية او وطنية بكل شدة وقسوة ، وتقبضان على مصالح البلاد ومرافقها بيد استعمارية جشعة ، وتستغلان خيراتها لصالح رعاياهما وتحولان دون اي تقدم جدي علمي او اقتصادي او عمراني في البلاد وتحاربان العروبة والاسلام فيها حرباً شعواء ، وتبثان روح الوهن والفتنة والفرقة بين طبقات الاهلين تحقيقاً للهدف الباغي اللئيم وهو تبديل وجه البلاد وهدم كيانها القومي وقلبها الى مستعمرتين افرنسية في الجنوب واسبانية في الشمال لغةً

ووجهاً وديناً واستثماراً .

ولقد كانت مراكش قبل النكبة دولة مستقلة ذات سيادة تامة لهـــا قوانينها ووزراؤها وحكامها وهيئاتها الشورية وسفراؤهاوقواها البرية والبحرية وحركتها العلمية والعمرانية والزراعية والاجتماعية التي اخذت بالسير في المدة الاخيرة في سبيل التحسن ، فاتجه اهتمام الافرنسيين والاسبانيين الى وقف ذلك كله ، وإنشاء جهاز يقوم على موظفين منهم ويسير في تحقيق الهدف الاستعماري الباغي الذي استهدفوه بأسرع ما يمكن من الخطى .

شخصية المقيم العام المزدوجة

وكان اول ما فعله الافرنسيون ان استصدر المقيم العام مرسوماً من السلطان الذي نصبه باعتباره الواسطة الوحيدة بينه وبين الـدول الاجنبية ، والقائد الاعلى للقوى البرية والبحرية . فغدا بذلك ذا شخصية مزدوجة ، افرنسياً يمثل دولته ، ومراكشياً تتمثل فيه هذه المهام المراكشية ! ونتيجة لذلك الغيت وزارتا الشؤون الخارجية والحربية وقصرت الحكومة المحلية ووزاراتها على الشؤون الادارية ، وانشئت في دار الاقامة العامة مكاتب سياسية ومدنية وعسكرية لمساعدة المقيم العام في مهامه المزدوجة !

تشكيلات الادارة

ثم انشأوا ثلاث هيئات لتتولى بالفعل إدارة الـدولة . وهي امانة السر العامة للحماية والادارة العامة للشؤون الشريفية ومصلحة الادارة الأهلية . وجميع رؤساء وموظفي هذه الهيئات افرنسيون وهي مرتبطة بالاقامة العامة .

والهيأة الأولى تشرف على الشؤون التشريعية بحيث لا يعد اي شيء منها نافذاً ولا يصدر اي تشريع إلا عن طريقها وبمصادقة امينها العام .

وتقوم الثانية بتنسيق الأعمال بين الاقامة العامة والسلطان وحكومته . ويلقب

رئيسها بلقب المستشار ويشهد اجتماعات مجلس الوزراء ، ويتفرع عنها خمسة اقسام للشؤون المالية والاقتصادية والصحية والتعليمية والاشغال العامة ، وهي التي تهيء كل ما يقتضى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها الى مجلس الوزارة لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ. ثم هي التي تختار موظفي الحكومة او تبدي رأيها فيهم الذي يكون هو الأصل والنافذ دائماً .

وتضطلع الثالثة بالشؤون المدنية العامة من صحافة وطباعة وجمعيات واندية وعمال واجتماعات وبلديات واتصالات شعبية . وهي كتلك تهيء كل ما ترى تنفيذه من اعمال ومشاريع متصلة بهذه الشؤون وترسلها إلى مجلس الوزراء لاقرارها وتقوم بعد ذلك بمراقبة التنفيذ .

اصابع وخطط التغلغل والسياسة البربرية

ولهذه الهيأة شبكة منتشرة في جميع انحاء البلاد وقد استطاعت ان تستصفي لها أولياء في مختلف الاوساط وخاصة من بين رجـــال الطرق الصوفية الذين كان الافرنسيون يستخدمونهم في مآربهم قبل النكبة وظلوا عـلى صلة بهم ، وبواسطة هذه الشبكة والاولياء والمأجورين يتغلغل الافرنسيون بطريق هذه الهيأة في داخلية البــلاد وخصائص امور اهلها وتوطيد اقدامهم في الاماكن النائية ، وخاصة في القبائل البربرية .

وقد كان من اول ما أوحت به هذه الهيأة استصدار ظهير (مرسوم) مـــن الملك في سنة ١٩١٤ سجل فيه اعترافه بجنس بربري يفترق عـــن الجنس العربي وبعادات وتقاليد بربرية تفترق عن العادات والتقاليد العربية والاسلامية وبضرورة تنظيم شؤون البربر وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة تدريجياً وحسب مقتضى الظروف

وكان هـذا الظهير تدشينا رسميا للخطة اللئيمة التي بيتتها السلطات الافرنسية للتفريق بين الشعب المراكشي وإثارة نعراته ، وسلخ القبائل البربرية عن الاسلام والعروبة التي اندمجت فيها منذ الأحقاب الطويلة ، وتهيئة الجو للتبشير بالنصرانية بينها مرفقا بدعاية أصل البربر الاوروبي وديانتهم المسيحية وكون العروبة والاسلام

أجنبيين عنهم وليسا الا وسيلة تحكم واستعمار فيهم جاءت فرنسا لتخليصهم منها! وهي نفس الخطة التي سارت عليها السلطات الافرنسية في الجزائر على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

وقد استصدرت هده الهيئة في سنة ١٩١٥ ظهيراً جديداً بسبيل تنفيـــذ تلك الخطة يقضي بتأليف هيئات قبائلية باسم الجماعات كما فعلت السلطات في الجزائر من قبل للنظر في شؤون القبائل وفق تلك العادات والتقاليد ، وجعل لكل جماعة سكرتير إفرنسي ليكون الموجه النافذ في مختلف شؤون القبيلة وفقا للمنهج الذي ترسمه له .

المراقبون الافرنسيون في جانب الحكام

ولقد كانت مناطق البوادي تدار برآسة عامل مراكشي يلقب بالقائد ومناطق المدن تداو برآسة عامل مراكشي يلقب بالباشا . فأقام الافرنسيون إلى جانب كل من القواد والباشاوات مراقبا إفرنسيا صار هو الحاكم المطلق في المنطقة ، بحيث أنيط به مراقبه جميع الشؤون وحظر عـلى الباشاوات والقواد اتخاذ أي قرار او القيام بأي عمل بدون موافقته .

الادارة المباشرة في المناطق المهمة

ومع ذلك فقد نزعوا ثماني مناطق من يد العمال المراكشيين واناطوها بحكام افرنسيين . وهذه المناطق الثمان هي اهم ولايات مراكش وعمالاتها مـــن حيث السكان والثروة والنشاط ،فجعلت الادارة والسيطرة فيهابيد الافرنسيين مباشرة. ولقد جعل اربع منها عسكرية واربع منها مدنية ، وأنيطت العسكرية بحـــكام عسكريين يقوم الى جانبهم نواب مدنيون ويساعدهم هيئات اركان حربية ومكاتب إستعلامات يقوم عليها ضباط ؛ وجميعهم أفرنسيون ؛ وأنيطت المناطق المدنيـــة بحكام مدنيين يقوم الى جانبهم نواب عسكريون ويساعدهم هيئـــات ومكاتب استعلامات ، وجميع الذين يتولون هـذه الامور افرنسيون كذلك . وقد قسمت

كل هذه المناطق الى أقاليم والاقاليم الى دوائر ، وأنيطت الفروع وفروع الفروع بحكام ومساعدين وهيئات ومكاتب استعلامات ايضا ، وجميع الذين يتولونها إفرنسيون أيضا ..

وقد كان حكام المناطق العسكرية والمدنية وكذلك المراقبون الافرنسيون الذين اقيموا الى جانب القواد والباشاوات في مناطق المدن والبادية الأخرى يمثلون المقيم العام ؛ وبصفتهم هذه كانوا يشرفون على قوى الأمن والشرطة والخيالة المراكشية مباشرة ...

الموظفون الافرنسيون

وفضلاً عن كل هذا فقد سار الافرنسيون على خطة استبدال الموظفين المراكشيين بالموظفين الافرنسيين وخاصة أصحاب الوظائف المهمة فغدت مراكش كشقيقتيها مستعمرة موظفين حيث بلغ عددهم (٢٢٠٠٠) من مجموع (٣٧٠٠٠)؛ وقد اختص الموظفون الافرنسيون بالمرتبات العالية والعلاوات المتنوعة باسم الاغتراب والاسرة والمسكن .وغدت اللغة الافرنسية بطبيعة الحال السائدة في الدواوين والاعمال ، فكان في ذلك مضافا إليه طبيعة الصلف والغطرسة وحب استثمار الوظيفة المتمكنة في الموظف الافرنسي كابوس شديد على صدور الأهلين يمطل مصالحهم ويثير آلامهم وحسراتهم .

دور ضباط الاستخبارات

وقد كان ضباط الاستعلامات الذين انتشروا في كل ناحية من انحاء البلاد وتشكيلاتها والذين زاد عددهم عن الثلثمئة كابوسا شديداً اخر لما كانوا يحيطون به الناس من الرقابة ويبثونه فيهم من الدسائس وينصبونه لهم من المكائد ويثيرونه من النعرات ويستصفونه من الانصار والمأجورين بسبيل الفتنة والتفرقة والدس ، وغدوا عماد السلطات الافرنسية في السياسة المحلية واصحاب الكلمة المسموعة في المناطق والاقاليم والدوائر .

ولقد أنشىء في البلاد خمس عشرة بلدية جميع رؤسائها افرنسيون ، حتى بلديات المدن التي ليس فيها افرنسيون . وكل ما جعل للمراكشيين فيها هو مساعدون الى جانب الرؤساء الافرنسيين هم الى الآلة والصورة اقرب منهم الى الحقيقة والأثر .

غرف الزراعة والصناعة والتجارة الافرنسية

وقد انشىء منذ عهد مبكر في كل منطقة غرفٌ للزراعة واخرى للصناعة والتجارة ، حصرت عضويتها في الافرنسيين ، وكان اعضاؤها يعينون تعيينا ثم صاروا ينتخبون انتخابا من قبل الزراع والصناع والتجار الافرنسيين .

وتقدم هذه الغرف التقارير واللوائح للسلطات في مختلف الشؤون الصناعية والزراعية والتجارية وخاصة من نواحي الاساليب الاستثمارية والاستعمارية ، بما ينطوي فيه مفهوم ان مراكش لم تعد ان تكون مستعمرة إفرنسية كل ما تفكر فيه السلطات الافرنسية والمنظمات الافرنسية هو افضل الاساليب والوسائل لاستعمارها واستثمار خيراتها وثرواتها لصالح الافرنسيين .

مجلس شورى الحكومة الافرنسي ومدى تعبيره

ثم أنشىء بعد قليل من انشاء هذه الغرف مجلس سمي بمجلس شورى الحكومة كانت مهمته في البدء تنسيق اعمال ونشاط تلك الغرف ؛ وكان يتألف تبعا لطبيعة بنيان هذه الغرف من أعضاء افرنسيين كانوا يعينون تعيينا ثم غدوا ينتخبون إنتخابا من قبل الجاليات الافرنسية بعد ان كثر عددها واتسع نشاطها واستد كيانها وساعدها .

وهكذا كان هذا المجلس حين نشأ معبراً آخر عن ذلك المفهوم وبأسلوب أشد نكاية واستهتاراً ، حيث انطوى فيه معنى ان الحكم والحكومة والمصالح الزراعية والصناعية والتجارية وبكلمة واحدة كيان البلاد الدولي والاقتصادي إنما هو كيان إفرنسي وحسب . ومع ان هذا المجلس قد تطور أخيراً بعض الشيء وأدخل فيه عنصر مراكشي عن طريق تمثيل الغرف التجارية والزراعية والصناعية المراكشية

فقد ظل ينطوي على ذلك المفهوم والاسلوب . وقد صار يتألف من رجال الادارة الافرنسيين وممثلين افرنسيين تنتخبهم الجاليات الافرنسية غير الزراعية والتجارية والصناعية ، وممثلين للغرف التجارية والزراعية والصناعية الافرنسية والمراكشية. وصار هذا المجلس بمثابة مجلس نيابي ذي صفة استشارية ، مع التنبيه على ان العنصر المراكشي فيه محدود وأن اكثريته العظمى افرنسية . ومن الطريف المعبر عن ذلك المفهوم والاسلوب ان المقيم الافرنسي العام هو الذي يرأس هذا المجلس الذي احتفظ بذلك الاسم ويتلو عليه بياناً بما قام به من اعمال في الدولة ، ويحضره رؤساء المصالح الافرنسيون ليدلوا ببيانات عن اعمالهم ويجيبوا على ما يوجه اليهم من اسئلة وانتقادات في صدد هذه المصالح . وفي هذا المجلس تناقش ميزانية الدولة وتوضع في القالب المناسب لترفع الى الملك للتصديق ، وتحمل بطبيعة الحال جميع نفقات الاقامة العامة والادارات والتشكيلات الافرنسية المتنوعة .

- ٨ -

ودارت هذه الآلة الاستعمارية المستحكمة الحلقات والشاملة النطاق في طريق هدفها كما دارت مثيلتها في تونس والجزائر من قبل .

المهاجرون

ففتحت ابواب البلاد للمهاجرين الافرنسيين وأخذت تسهل لهم اسباب التوطن والاستقرار والاثراء ؛ حتى بلغ عددهم نحو ثلثمئة الف افرنسي بالاضافة الى خمسين الف اوروبي آخر .

الاراضي والمزارعون

وأقطع المستعمرون الزراعيون بالاساليب المتنوعة التي جري عليها في تونس والجزائر مساحات واسعة من اجود الاراضي انتزعت من ايدي اصحابها حتى بلغت نحو مليون هكتار أي عشرة ملايين دونم . وهذه المساحة تعدل نحو ربع



سلطان مراكش المولى عبد الحفيظ

الاراضي الزراعية الصالحة . ويبدو هول النسبة إذا ما لوحظ أن عدد المراكشيين في المنطقة الافرنسية يقرب من تسعة ملايين . كذلك فقد منحوا متنوع المساعدات المالية من خزينة الدولة وخصصوا بامتيازات مكنتهم من التوطن والاثراء . ومن جملة ذلك خفض الضرائب عنهم الى النصف بالنسبة للمراكشيين ، وتشريع العمل الاجباري في المشاريع العامة بالمجان والاجرة الزهيدة واعتبار شق الترع وحفر الابار وتعبيد الطرق وأنشاء المخافر في الاراضي الممنوحة للمستعمرين مما يدخل في نطاق هذا التشريع . ولقد بلغ من امر هؤلاء المستعمرين أن تسلطوا في ظل هذه الآلة على الفلاحين والاهالي المجاورين لهم وتحكموا فيهم تحكم السادة بالعبيد وتيسرت لهم فيهم اليد الكادحة الرخيصة وأثروا ثراء عظيما واصبحوا ذوي قوة ونفوذ يحسب حسابها في الدوائر الافرنسية في مراكش وفي باريس معاً .

السياسة الاقتصادية

وقد عدلت أنظمة الجمارك ومنح بها الافرنسيون فوائد عظيمة من جملتها اعفاء كثير من السلع والمصنوعات الافرنسية من الرسوم او خفضها ، فحميت من المزاحمة ويسر لها احتكار السوق المراكشية والتحكّم فيها .

ولقد كادت الشركات الصناعية والتجارية والزراعية تنحصر في ايدي الافرنسيين حيث قامت شركات افرنسية مدعومة بأموال ضخمة تحكمت في المرافق والاعمال الاقتصادية المتنوعة، ونالت الامتيازات الاحتكارية العديدة والمعادن والمناجم في مقدمتها وهي كثيرة وغنية جداً . ولقد وصل الامر الى وضع العقبات والمشاكل في وجه كل فلاح مراكشي أراد شراء آلة زراعية حديثة ، وفي وجه كل صانع مراكشي اراد ان يدخل على مهنته شيئاً من التجديد ، وفي وجه كل تاجر مراكشي اراد ان تكون له صلات تجارية خارجية تصديرية او استيرادية فضلا عن العقبات والمشاكل التي تقف في وجه كل محاولة مراكشية ترمي الى تأليف شركات اهلية . ومن عجيب ما يقع ان الادارة الافرنسية تستولي على ما تقدره زائداً على الاستهلاك المحلي من غلات محلية زراعية وحيوانية بالثمن الذي تقدره والذي لا يكاد احيانا يسدد نفقاته وتتولى هي تصديره الى الخارج .

وقد ادت هذه السياسة الى إفقار الشعب وانحطاط مستوى معيشته وانتشار البطالة والمجاعات وقتل الصناعات المحلية وشل كل نشاط إقتصادي مراكشي. ويكاد معدل اجر العامل المراكشي اجمالا لا يرتفع اليوم عن ٣٥ فرنكاً اي (٣٥) قرشا سوريا او اقل. ولقد كانت المجاعات تفتك احيانا كالوباء الجارف نتيجة للفقر وسوء الغذاء حتى إنها ذهبت سنة ١٩٤٥ بنحو مليون نسمة، مع ان البلاد زراعية ومحاطة ببلاد زراعية، بما لا يمكن ان يكون اي احتمال لفتك المجاعة هذا الفتك الذريع لو كانت حالة البلاد المالية مساعدة ولو اجدبت في بعض السنين.

- ٩ -

الميزانية

ونظرة واحدة الى ميزانية الدولة التي يفرضها الافرنسيون تكفي لمعرفة بشاعة استثمار واستئثار وتحكم هذه الآلة الاستعمارية واستهتارها واهمالها لمرافق البلاد واهلها. فقد كانت نفقات عام (١٩٤٧) نحو ثمانية مليارات ونصف من الفرنكات ينفق نحو ٨٠ في المئة منها على الدوائر الافرنسية لحماً ودماً وعظماً، وعلى التشكيلات الافرنسية وعلى الموظفين الافرنسيين. وباقيها على الديون والشؤون المراكشية.

التعليم

وفي الميزانية رقم ضخم مخصص للتعليم وهو مليار فرنك. غير ان التدقيق في ما يجري عليه التعليم في مراكش يظهر ان اكثر هذا المبلغ ينفق كذلك على الافرنسيين. فإن عدد الطلاب المراكشيين الذين يتلقون العلم في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان سنة ١٩٤٧ (٤٥٠٠٠) منهم الف يتلقون التعليم الثانوي الذي ليس بعده اي تعليم ارقى؛ في حين ان عدد الذين يتلقون التعليم من ابناء الافرنسيين والاوروبيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم كان نحو (٧٦٠٠٠) منهم (١٣٠٠٠) في الاقسام الثانوية. وإذا لاحظنا الفروق الكبيرة التي لابد من وجودها في معدات

ومرتبات اساتذة المدارس الافرنسية ظهر لنا ان نحو ربع ذلك المبلغ الضخم فقط ينفق على المدارس المراكشية ! وإذا ما لوحظ ان عدد الذين هم في سن التعليم من المراكشيين يبلغ نحو مليون وربع ، وان عـــدد الذين هم في سن التعليم من الافرنسيين والاوروبيين لا يزيدون كثيراً عن الخمسة والسبعين الفاً بمعدل ٢٠ ٪ من مجموع العدد ظهر هول ذلك الاهمال والاستئثار ، لانه لا يوجد طفل اوروبي بدون مدرسة بينما ان ٩٦ ٪ من اطفال المراكشيين لا يوجد لهم مكان في المدارس الحكومية !!.. ومن المضحك المبكي الذي يظهر قيمة التعليم في المدارس الحكومية الخاصة بالمراكشيين كيفية بالاضافة الى تلك الضآلة في الكمية ان عدد الذين نالوا الشهادة الابتدائية منهم في سنة ١٩٤٧ كان ٨٨٢ صبياً و ٨٢ بنتاً .. والى هذا فان اللغة العربية والدين الاسلامي يحاربان في هذه المدارس حرباً شديدة ويضيق مكانهما اشد التضييق . وهدف هـــذا التعليم هو اضعاف الروح القومية والوطنية والدينية وتخريج موظفين ثانويـين متشبعين بالولاء أو العبودية لفرنسا . وللمرشال ليوتي كلمة تشير الى هذا الهـدف دون ما خجل حيث قال فيما قال : انه ليس لنا اي فائدة من تدريس اللغة العربيـة ويجب ان تهدف سياستنا الى ابعاد القبائل عن تعليم ابنائها هذه اللغة التي لن نجني من ورائها خيراً .

محاربة اللغة العربية والاسلام

وله كلمة اخرى تكشف عن الروح اللئيمة التي كان يحملها – وهو ممثل السياسة الافرنسية – ضد هذه اللغة والدين الاسلامي معاً حيث قال ان اللغة العربية تنشر الاسلام لاتصالها بالقرآن، وان مصلحتنا لتقضي علينا بابقاء القبائل خارجة عن نطاقهما مما هو تتمة للخطة التي ذكرناها من قبل . ولقد كان مما فعله ليوتي منذ عهد مبكر بسبيل ذلك انشاء لجنة خاصة لاحياء اللهجات البربرية في القبائل ومحاربة اللغة العربية فيها . .

والارقام التي ذكرناها عن نسبة الطلاب المراكشيين هي احسن مما كانت عليه من قبل على مايبدو . فقد ذكرت نشرة اصدرتها ادارة التعليم في تشرين الثاني من

عام ١٩٣٩ ان عـــدد الطلاب المراكشيين في المدارس الحكومية الخاصة بهم هو (١٩٣٨١) بينما كان عدد الطلاب الاوروبيين (٥٧٥٥٩) .

ولقد حاول المراكشيون ان يسدوا ثغرة التعليم الواسعة من حيث الكيفية والكمية ويتلافوا اثر التقصير الباغي والروح اللئيمة ضد الثقافة العربية والاسلامية واستطاعوا بجهود عظيمة وبنفقات باهظة يكادون ينوؤن بها ان ينشئوا عدداً غـير يسير من المـدارس الحرة وفق النظام المدرسي القديم . على ان الآلة الاستعمارية تضع شتى العراقيل في وجه نمو هذه المدارس وتحسينها. بل انها اصدرت عام ١٩٢٧ ظهيراً للحد من اتساعها وتعطيل تمويلها بالاكتتابات الشعبية . وهي تترصد للموجود منها لتسارع الى إقفاله بسبب اي موقف تفسره وفق هواها . وقـــد حالت سنة ١٩٤٨ دون انشاء هذه المدارس ، واقفلت واحدة لان مديرها لم يذهب بتلاميذه لتحية المقيم العام الذي زار وزان سنة ١٩٤٨ ، ومنع المقيم العام في السنة نفسها السلطان من شهود حفلة تدشين مدرسة في الرباط انشئت بالاكتتابات العامة ومن وضع الحجر الأساسي لمدرسة اخرى مثلها في مدينة مراكش .

ونتيجة لهذا كله فإن الشعب المراكشي مرتكس في الجهل ، ونسبة الامية فيه تزيد على التسعين في المئة ...

كذلك توضع العراقيل والسدود في وجه الشبان الذين يتوقون الى ارتيـــاد مناهل العلم في اوروبا ، وقد كان نتيجة ذلك انه لايوجد في جميع مراكش إلا ثلاثة اطباء وستة محامين وستة مهندسين مراكشيين استطاعوا أن يتغلبوا على هـــذه العراقيل او يتفلتوا منها !

ومثل هذه العراقيل واشد توضع في طريق من يود ان يولي وجهه شطر المشرق العربي وارتياد معاهده ، وقد عرفنا ذلك بأنفسنا . فقد استطاع بضعة نفر من ابناء مراكش ان يفلت فجاء ودخل مدرسة النجاح في نابلس وعد ذلك فتحاً عظيما ، واضطر هذا النفر ان يبقى نحو ست سنين دون ان يعود الى بلاده في عطلة خشية من عدم تمكنه من العودة الى المعهد الذي رأى في الانتساب اليه هذا الفتح مع انه معهد ابتدائي وثانوي . وقد كان من شأن هذا النفر أن برز في مجال الحركة الوطنية حينما تم تعليمه وما يزال يشغل الصفوف الأمامية فيها . وقد علمنا ان السلطات قد تجهمت لتسرب هـــذا النفر الى المشرق العربي فأخذت تشدد المنع حتى لا تسري عدواه . . .

اهمال المرافق الصحية

وروح الاهمال والاستئثار بادية في الشؤون الصحية ، فثمانون في المئة مما يخصص لهذه الشؤون في الميزانية ينفق على شؤون الجالية الافرنسية والاوروبية من مستشفيات ومستوصفات ومكافحات الخ . وقد نشب مرض التيفوس في اواخر الحرب العالمية الأخيرة ففتك في المراكشيين فتكاً ذريعاً حتى لقد كانت امواتهم تبلغ المئات يومياً في بعض المدن دون ان تقوم السلطات الصحية بمجهود جدي في كفاح الوباء .

- ١٠ -

مراكش تحت الحكم العسكري

ولقد اعلنت السلطات حالة الطوارىء والحكم العسكري منذ تم الاحتلال، ولم تلغ الى الآن ! أي ان مراكش منذ ثمان وثلاثين سنة تحت كابوس الحكم العسكري وحالة الطوارىء . وكان نتيجة هذا ومن نتائج المنهج الاستعماري الذي سارت عليه هذه السلطات ان حرم المراكشيون من مختلف حرياتهم . فلم يسمح لهم خلال هذه المدة الطويلة بتأسيس اي ناد او جمعية او حزب حتى ولا بانشاء فرق رياضيه و كشفية مع وجود نصوص قانونية تسمح بذلك ، لأن هذا قيد بموافقة السلطات وإذنها، ولم تر هذه السلطات ان توافق على شيء من ذلك . والقليل الموجود غـــير قانوني قام بقوة الظروف وبدون إذن السلطات واعترافها وقد كان قبل النكبة منظمات عديدة ظلت السلطات تحاربها حتى قضت على اكثرها، ولم يتسع صدرها إلا لطوائف المشعوذين والدجالين ممن ينتسبون الى الطرق الصوفية التي كانت مطية من مطاياها. هذا في حين انها تحمي باعة الخمور والحشيش والمتجرين بالاعراض من الأجانب، وفي حين تسمح للجالية الافرنسية بتأسيس احزاب مستقلة او تابعة لاحزاب فرنسا ، وتسمح لها بتأسيس متنوع الاندية والمنظمات .

ولقد سمح الافرنسيون بقيام جمعيات خيرية محلية في بعض المدن لمساعدة الفقراء والمرضى ، غير انهم جعلوها تحت اشراف مراقبين افرنسيين وتوجيههم، ومؤلفة من

الفئات المتزلفة التي ليس لها من هم العمل إلا الانتساب اليه والتقرب للمراقب الافرنسي والتأمين على كل ما يقوله ويقترحه ، بحيث فقدت هذه الجمعيات كل مظهر مجد من مظاهر النشاط والانتاج .

كذلك كان امرهم إزاء الصحافة . والصحف العربية القليلة التي تصدر في مراكش هي التي يصدرها اناس مأجورون يكتبون ما يوحي اليهم او تصدرها إدارة الشؤون السياسية مباشرة على الاغلب . وما يصدره غير هؤلاء يستهدف لمراقبة شديدة قبل الطبع تجعلها فاقدة الروح . وقد سد باب المغرب امام اي صحيفة او نشرة خارجية غير افرنسية وخاصة عربية ، حتى لقد بلغ عدد الممنوعات عام ١٩٤٨ الفاً ومئتين .

- ١١ -

نضال مراكش

ولم يستسلم المراكشيون ايضاً كإخوانهم من قبل لما اريد لهم من تبدل الوجه والروح واللسان والكيان . ولقد بدأ كفاحهم منذ الاحتلال واستمر الى اليوم . وقد ذكرنا قبل قليل ما كان من الثورات الكبرى في فاس ومناطق الجنوب وجبال الاطلس على اثر النكبة كما ذكرنا موقف السلطان عبد الحفيظ وتنازله الاحتجاجي . ولقد ظلت الاحتجاجات والاضرابات والثورات الدامية تتكرر وتكون شديدة عنيفة احياناً . ومع ما كان الافرنسيون يقابلون هذه الحركات به من القمع والتنكيل ويصيبون بعض النجاح في خطواتهم الارهابية والاستعمارية فإنهم لم يستطيعوا ان يخضعوا أهل البلاد ويقضوا على مقاومتهم ، بل لقد كان هذا النجاح الذي يصيبونه عاملاً من عوامل اشتداد الكره والمقاومة والتذمر والتصميم على النضال الى النهاية .

الظهير البربري وأثره

وفي سنة ١٩٣٠ استصدرت السلطات الظهير الشهير بالظهير البربري الذي يقضي بنزع اختصاص القضاء الشرعي الاسلامي بالنظر في شؤون القبائل البربرية كما كان

جاريا الى هذه السنة وتسوية هذه الشؤون وفق العادات والتقاليد البربرية القديمة إحكاماً للخطة التي تبيتتها وبدأتها عام ١٩١٤ على ما ذكرناه قبل ، واشتدت مع هذا حركة التبشير بين القبائل فأثار ذلك هياجاً عظيما وصلت اخباره الى المشرق العربي فأثارته بدوره وحملت هيئاته الوطنية على الاحتجاج والاستنكار لما انطوى فيه من شديد الكيد وسوء القصد للاسلام والمسلمين والكيان المراكشي . فقام في مختلف انحاء مراكش مظاهرات صاخبة ووقع اشتباكات دامية ، والتجأ الناس الى المساجد يجأرون الى الله بالنقمة على الظالمين واشتدت السلطات في القمع والمطاردة حتى امتلأت سجونها ، واخذ الناس يؤلفون الوفود من مختلف انحاء البلاد بما فيها القبائل البربرية ويوفدونها الى الملك للاحتجاج فكانت السلطات تترصدهم وتحول دون وصولهم الى العاصمة او مقابلة الملك وترسل بعضهم الى السجون . وقد تمكن بعضهم مع ذلك من اختراق الارصاد ومقابلة الملك وتقديم العرائض اليه بالمطالبة بتوطيد سلطات الملك وحكومته وخضوع الحواضر والبوادي للشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وتعميم تعليم اللغة العربية والقرآن والديانة الاسلامية واستعمال اللغة العربية في الدواوين وايقاف حركة المبشرين ومنعهم من نشر ما يمس بكرامة الاسلام وبنيه ومن التجول في البوادي وشهود المواسم والاسواق ومنع الاعانات الحكومية عنهم واخراج الرهبان والمبشرين من وظائف التدريس والحكومة الخ الخ ؛ وخطبت الوفود أمامه خطباً قوية لم يسع الملك الا ان يذرف دموع الحسرات أمامها ، ولم تجد محاولاته في اقناع السلطات الافرنسية بالتخفيف من غلوائها شيئاً . . .

كتلة العمل الوطني

وقد كانت هذه الحركة موقظة للأفكار ، فلم يلبث فريق من الشباب ان نشط الى التكتل والعمل وفق الاسلوب الحديث ونتج عن هذا تأليف هيأة وطنية باسم « كتلة العمل الوطني » ؛ فكان هذا تدشيناً لعهد الحركة الوطنية الحديثة في مراكش . وقد اخذت هذه الكتلة تنشط في التنظيم والدعاية نشاطاً كبيراً فلم تلبث السلطات ان حلتها .

الحزب الوطني

غير ان رجالها لم ينوا عن نشاطهم واغتنموا إحدى الفرص المواتية فعادوا الى تكتلهم بإسم « الحزب الوطني » بزعامة علال الفاسي الذي مزج دعوته الوطنية بالدعوة الدينية فاستطاع ان يشغل بحركته حيزاً كبيراً ويترك في بني وطنه أثراً قويا ويثير فيهم الشعور القومي والديني معاً ، ويزيد فيهم الكره والحقد على المستعمرين واهدافهم الباغية ، والتصميم على النضال والتحرر منهم . وقد نشأ إلى هذا حزب آخر هو « حزب الحركة القومية » بزعامة الوزاني سار هو الآخر في بادىء الامر في نفس الطريق التي سار فيها الحزب الوطني ، وكان له نصيب في ما انتشر واتسع من الشعور الوطني في طبقات الشعب .

اعتقال زعماء الحركة وتعذيبهم

فعادت السلطات الى شدتها ، فاعتقلت الزعيمين عام ١٩٣٧ ونفت الفاسي الى افريقيا الاستوائية والوزاني الى منطقة مراكشية نائية حيث دام اعتقالهما نحو عشر سنين ، كما اعتقلت عشرات آخرين من رفاقهم وزجتهم في السجون وسامتهم العذاب الشديد الذي أزهق ارواح بعضهم . فكان هذا مؤديا الى خمود الحركة بعض الشيء ، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية بعد قليل فاستطاعت فرنسا ان تسيطر على الموقف بيد حديدية أشد .

مراكش في اثناء الحرب

ولقد كانت مراكش كما كانت تونس والجزائر منبعاً غزيراً للقوى الافرنسية في هذه الحرب كما كانت كذلك في الحرب الاولى حيث جند منها عشرات الالوف وارسلوا إلى مختلف الجهات ، وذهب منهم الوف الضحايا . ولقد أغدقت على مراكش الوعود الواسعة بالاصلاح والحرّيات كما اغدقت على شقيقتيها . وكانت مراكش وسواحلها الغربية خاصة نقطة حساسة جداً في العمليات الحربية . وقد

ظلت السلطات الافرنسية في مراكش موالية لفيشي عندما انهارت فرنسا فاقتحم الحلفاء شواطيء مراكش الغربية في اواخر عام ١٩٤٢ ، وحاول القائد العام ان يقاوم فتدخل الملك الذي كان يشترك مع شعبه في كره الافرنسيين ونضاله وعواطفه الوطنية املا بأن تكون فرصة هذا الانهيار سعيدة على مراكش .

وفي سنة ١٩٤٣ قدم روزفلت الى مدينة الدار البيضاء وكان شديد العناية بالاطلاع على احوال البلاد ولمس ما تعانيه من المنهج الاستعماري الافرنسي فارسل كلمته المشهورة الصادقة كل الصدق .. ان الاستعمار الافرنسي اسوأ ما يمكن ان ينكب به شعب من الشعوب .. واجتمع به الملك وشرح له الحالة السيئة التي ترتكس فيها البلاد فطمأنه بمستقبل سعيد بعد نهاية الحرب تحقيقا لمبادىء ميثاق الاطلانطي التي يهتف بها ، ولقد ابرم رجال ديغول روزفلت بما اطنبوا به من عظمة الامبراطورية الافرنسية في المغرب العربي وما يمكنهم ان يهيئوه منها من الجيوش ويعدوه من وسائل التموين والقواعد الحربية اذا ما توفرت لهم المعدات الاميركية حتى ضاق بهم ذرعا وقال لابنه ان هؤلاء الافرنسيين لا يفكرون حتى في ايام محنتهم في مصلحة الاهالي الذين شردوهم وابتزوا ارزاقهم دون ان يقدموا لهم مقابل ذلك شيئا !

استئناف النشاط الوطني وحزب الاستقلال

وفي اوائل سنة ١٩٤٤ استأنف الوطنيون المراكشيون نشاطهم بسبيل إستغلال ظروف ما بعد الحرب وهتافات الحلفاء بمبادىء الحق والعدل فالفوا حزبا جديداً بزعامة أحمد بلافريج ضم جميع العناصر الوطنية باسم حزب الاستقلال . وقد دشن الحزب نشاطه بمذكرة مسهبة شرح فيها تاريخ مراكش الاستقلالي قبل النكبة ومأساتها الاستعمارية بعدها ، وطالب باستقلال مراكش ووحدة اراضيها والالتماس من الملك السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه ، والانضمام الى الدول الموقعة على ميثاق الاطلانتي ،وإقامة نظام سياسي شوري أسوة بنظام الحكم في البلاد العربية ، وقدمت المذكرة الى الملك والى ممثلي اللجنة الديغولية والولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا .

ثم اخذت الوفود الممثلة لجميع طبقات الشعب تفد الى القصر الملكي من جميع انحاء المملكة مؤيدة لهذه المذكرة التي عرفت في تاريخ الحركة الوطنية بوثيقة الاستقلال ، واجتمعت الوزارة المراكشية تحت رآسة الملك وقررت تأييدها . وهكذا تطورت الحركة واتخذت صفة شعبية واستقلالية عربية .

القمع والتنكيل والانفجار

وكان لهذا العمل اثر شديد لدى السلطات الافرنسية ؛ ومع انها لم تكد تنسى حمقها وجنونها في لبنان فانها اقدمت على حركة جنونية وباغية اخرى حيث اعتقلت بلافريج ونفته الى كورسيكا ثم القت القبض على عدد كبير من رجال الحزب وشبابه بتهمة الفاشية ؛ فانفجرت البلاد بالمظاهرات والاشتباكات الصاخبة وخاصة في مدن فاس والرباط وسلا والدار البيضاء ووجده ، حتى لقد كان من أمر فاس أن صمدت شهرين طويلين في وجه القوى والحملات الافرنسية مما حمل السلطات على قطع تيار الكهرباء وموارد الماء والتموين عنها لحملها على الاستسلام والخضوع ؛ ولقد اشتدت هذه السلطات في القمع والتنكيل دون مارحمة او هوادة واستعملت المصفحات والمدفعية فازهقت ارواح الكثيرين واعتقلت المئات من الوطنيين وعذبتهم اشد العذاب في المعتقلات العسكرية حيث جلدوا وسيقوا حفاة عراة في مناطق الثلج والصقيع . ولم يكن لمراكش الحظ الحسن الذي كان للبنان والذي حرك الانكليز ثم الاميركان واثار العالم العربي ، ولا سيما ان بغي فرنسا كان مثيراً باعتقال رئيس الجمهورية والوزراء وحل مجلس النواب في بلد اعترف باستقلاله ، فلم تتحرك قلوب الحلفاء ولم تنبض عروقهم لهذه المأساة الدائمة التي مثلت على مسرح مراكش بين سمعهم وبصرهم !

جمعية الدفاع في القاهرة

ولقد استطاع بعد قليل بعض رجال مراكش ان يفلت من مراكش الى

القاهرة حيث الفوا جمعية الدفاع عـــن مراكش ، واخـذوا يرفعون اصوات الاستنكار لما يحـــز في بلادهم المنكودة وامتهم المظلومة ورجالهم الذين يسامون العذاب الاليم ، فكانت جمعيتهم هـذه النواة للحركة المغربية العربية الشاملة التي ترعرعت في القاهرة في السنين الاخيرة ، والتي غدت جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية المغربية في داخل البلاد وخارجها .

ولقد افرج عن علال الفاسي والحسن الوزاني في سنة ١٩٤٦ فعـاد الاثنان الى مراكش .

انضام الحركة بالحركة العربية

واستأنفا ما انقطع من نشاطها ، وانضم الفاسي الى حزب الاستقلال الذي كان يضم اكثر العاملين في الحقل الوطني ويردد صدى نشاطه جمهرة الشعب المراكشي ويعضده الملك فيه ؛ وغدت العلامة المميزة له المناداة بالفكرة العربية والاندماج في الحركة العربيه الشامـلة والتضامن في ذلك مـــع الأقطار العربية الأخرى المغربية والشرقية .

وهكذا التحقت مراكش فعلاً بموكب هذه الحركة ، وغدا نضالها موسوماً بها وهي ما تزال قوية التصميم في هذا النضال الى ان يتحقق هدفـه العربي القومي ، وهو متحقق ان شاء الله لانه منبثق مـــن شعب عربي ابي ضد الظالمين البغاة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !

- ١٢ -

سياسة اسبانيا الباغية في مراكش الشمالية

وتتمة للكلام نقول ان المنطقة الشمالية التي تعرف بالريف والتي نكبت بالاسبان قاست وما تزال تقاسي ما قاسته شقيقتها الجنوبية من الافرنسيين ؛ سواء في عهد الملكية او الجمهورية او الدكتاتورية ، حيث سار الاسبان عـلى غرار فرنسا في الروح والمنهج ومحاولة هدم الكيان وفي التنكيل والقمع والاستثمار ، وكل ما

هنالـــك أنهم تأخروا في السير الحثيث بسبب الثورة الريفية الكبرى التي كانت إمتداداً للنضال القائم ضدهم قبل النكبة الافرنسية حيث كانوا يحتلون بعض اقسام البلاد منذ امد غير قصير .

ولقد كان الريفيون لا يهدأون في هـذا النضال ، واتسم في اوائل القرن الحاضر بسمة حرب عصابات تعرف بالثورة الجبلية ؛ وكانت تشتد حتى يبلغ عدد المشتركين فيها احياناً الألوف العديدة ، وتشغل عشرات الألوف من الجند الاسباني وتستنفد جهود اسبانيا وأموالها وتكبدها اعظم الخسائر .

حرب الريف بقيادة الامير الخطابي

وظل الأمر كذلك الى ان برز الامير عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢٠ فانضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات ، وانقلبت الحالة من ثورة عصابات وإزعاج الى حرب رسمية هجومية ، وأخذ الجيش الريفي الباسل يتقدم في جميـــع الميادين ، والقوى الاسبانية تنهار امامه مع تفوقها العظيم في العدد والعـدد ، ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح معظم المنطقة تحت سيطرته ولم يبق في يد الاسبان الا بعض المدن الساحلية مثل مليلا وسبته ، وكانت اخباره تصل الى المشرق فتهزه هزاً لما كان يرافقها مـن أخبار البطولة والانتصارات التي سجلت اعظم المفاخر للنضال العربي في هذا القسم من الوطن العربي الكبير .

وقد اعلن الامير جمهورية الريف وانتخب رئيساً لها ، وأخـذ يمارس سلطانه كذلك . وثار الرأي العام الاسباني ضد الحرب وأخـذ الجيش الاسباني يتمرد ، واضطر بريمودي ريفيرا رئيس اسبانيا الى جس النبض في صدد الصلح فاشترط الامير جلاء القوات الاسبانية عن جميع ما تحت إحتلالها بما في ذلك سبته ومليلا . وعلمت فرنسا بالأمر فجن جنونها من احتمال جنوح إسبانيا الى الصلح عـلى اساس هذا الشرط او في نطاقه خشية استفحال أمر الامير وامتداد حركته التحريريه الى سائر مراكش ؛ فضغطت على اسبانيا من جهة وسارعت من جهة اخرى الى إرسال جيوشها واساطيلها لشد عضدها . وهكذا غدا الامير يواجه قوى دولتين ؛ وصمد مع ذلك نحو سنتين اخريين يبدي مع جيشه من ضروب البسالة والتحمل والمقاومة

ما لا يزال ماثلا في الاذهان ، حتى اذا كان عام ١٩٢٦ كان قد نفد ما في يده من زاد وعتاد ومعدات ، وكانت دسائس الافرنسيين وذهبهم خاصة يلعب دوره مما ادى الى خذلان الامير من قبل انصار اقوياء فلم يكن بد من الاستسلام لفرنسا التي وعدته بالرعاية ، ثم نكثت فنفته مع أسرته الى جزيرة ريونيون النائية الموبوءة رغم احتجاجه . وظل في منفاه البغيض الى سنة ١٩٤٧ حيث استسنح فرصة نقله الى منفى افرنسي فنزل الى بور سعيد بحركة بارعة واعلن التجاءه الى مصر وملكها فكان له فيهما الملجأ الكريم .

-١٣-

مصادرة الاراضي وتوزيعها

ومنذ انتهاء الحرب الريفية اخذت اسبانيا تفرغ لتنفيذ مناهجها الاستعمارية . وقد تمثلت هذه المناهج في كلمة مأثورة لأول مندوب سام اسباني حيث قال: سوف لا نرتكب الغلطة التي ارتكبها اجدادنا مع مسلمي الاندلس فألقوا بهم في البحر بل ان خطتنا معهم ستكون حازمة حاسمة بحيث نرغمهم على ان يلقوا هم بأنفسهم في البحر . . !

ولقـــد دشن الاسبان سياستهم بحصار منطقة نفوذهم وتطويقها ثم تقسيمها الى مقاطعات وإحاطة كل مقاطعة بسياج من حديد ، ثم سيطروا على الادارة المدنية ، ونظموا حملة انتقامية ضد جميع الذين ساهموا في الثورة من قريب او بعيد فصادروا املاكهم واعدموا الكثير منهم وسجنوا وعـــذبوا من وقع في ايديهم وشردوا باقيهم . ثم سنوا قوانين الامتيازات العنصرية ونزع ملكية الاراضي وطلبوا من خليفة الملك اصدار مراسيم لاقرار قوانينهم فامتنع ثم توفي فجأة، وخلفه ابنه وكان قاصراً فأنشأوا مجلسا صورياً للوصاية واستصدروا ما شاؤوا من المراسيم ، وكان من فحوى تلك القوانين نزع ملكية ساحات واسعة من اخصب الاراضي وضمها الى الممتلكات الاسبانية واحتكار جميع منابع الثروة في البلاد ومنحها للشركات الاسبانية، ثم فتحوا ابواب البلاد لمتعطليهم ومتبطليهم وطلاب الثروة منهم فأخذوا يزحفون

ويستلمون من السلطات الاراضي المنزوعة والمساعدات المالية ، وقدم فيمن قدم عدد كبير من الرهبان والقساوسة ، فمنحتهم السلطات المساعدات الكبيرة باسم المؤسسات الكنيسية ، واخذوا من ناحيتهم في محاربة الاسلام والعروبة في مختلف مجالاتها .

الادارة

ومع ان الاتفاق الافرنسي الاسباني نص على قيام حكومة مراكشية برئاسة الخليفة تتمثل فيها السلطات وتصدر عنها الاوامر والقوانين فإن هذه السلطات تضاءلت حتى صارت عدماً وقام الى جانبها ثلاث سلطات او بتعبير اصح ثلاث حكومات إسبانية ؛ وهي حكومة المندوب السامي وحكومة الحماية وحكومة النقابات .

ففي الاولى دائرة بمثابة رئاسة الوزارة واخرى بمثابة وزارة الخارجية وثالثة بمثابة وزارة الحربية ورابعة بمثابة وزارة العدلية . وفيها امانة السر العام للحماية التي هي صلة الوصل بين دوائر المندوبية ودوائر الحماية. وفوق كل هذا هيأة استشارية تضع الخطط العامة لسياسة اسبانيا في المنطقة تتألف من القساوسة وغلاة المستعمرين العسكريين والمدنيين .

وفي الثانية تشكيلات مماثلة تسمى بالنيابات ؛ منها نيابة الامور الأهلية التي هي بمثابة وزارة الداخلية ، ونيابة الامور المالية ونيابة الاشغال العامة والمواصلات ونيابة الاقتصاد ونيابة المعارف .

وهيأة النقابات – وهي الادارة الثالثة – تضم نقابات العمال والزراع والتجار والملاك والموظفين ، وتسيطر على البلديات والغرف الزراعية والتجارية . وهي اسبانية اللحم والدم وهمها توفير العمل واسباب الراحة والنجاح للمهاجرين الاسبان.

والرؤساء والموظفون في هذه الحكومات الثلاث الذين يعدون بالالوف العديدة اسبانيون يتناولون نفقاتهم من خزينة المنطقة . ويبدو الهول في هذا إذا ما لوحظ ان مساحة المنطقة هي نحو عشرين الف كيلو متر مربع وسكانها نحو مليون، وهي بالنسبة إلى المنطقة الشمالية واحد من خمس وعشرين مساحة وواحد من تسعة سكاناً .

السلطات المراكشية

اما السلطات المراكشية فتتألف من حكومة فيها رئاسة وزارة ووزارات عدلية واوقاف ومديريات املاك ومعارف وبيت مال ومن ادارات تابعة لها في انحاء المنطقة . غير انها مسلوبة من كل سلطة فعلية ، ولا تباشر عملاً ولا تنجز امراً إلا وفق ما تقترحه نيابة الامور الاهلية وتوافق عليه . ولم تكتف اسبانيا بذلك وبحكوماتها الاسبانية الثلاث بل ملأت دوائر الحكومة المراكشية المركزية وتوابعها بعدد كبير من الموظفين الاسبان وجعلتهم كل شيء فيها .

الموظفون الاسبانيون

وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٦ (٢٩٣٤) بينما لم يتجاوز عدد الموظفين المراكشيين خمسة آلاف . والأغرب والابشع ان الموظفين الاسبان يشغلون مختلف الوظائف سواء في ذلك الخطير والحقير ؛ بل ان عددهم في بعض الوظائف الحقيرة يزيد زيادة كبيرة على عدد المراكشيين . . فقد كان عدد سعاة البريد في العام المذكور (٨٧) منهم (٧١) اسبانياً ، وعدد سائقي السيارات الرسمية (٨٠٩) منهم (٧٧١) اسبانياً وعددالتراجمة (٤٦) منهم (٢٨) اسبانياً وعدد الماسحين (٥٧) جميعهم اسبان وعدد حراس الغابات (١٢٧) منهم (٦٨) اسبانياً وعدد موظفي مصلحة التلفون (٩٤) منهم (٩٣) اسبانياً وعدد راكبي الدراجات النارية (٢٦) منهم (٢٤) اسبانياً وعدد الممرضين (١١٦) منهم (١١٣) اسبانياً .

الميزانية

وقد بلغت ارقام ميزانية النفقات لعام ١٩٤٦ وهي من وضع الاسبان مئتين وأحد عشر مليوناً من البسيطات (والبسيطة تعدل نحو نصف شلن) ينفق منها على الادارات الاسبانية وموظفيها والموظفين الاسبان في دوائر الحكومة المراكشية والمدارس المخصصة لأبناء الاسبان أكثر من ثمانين في المئة منها .

وسياسة التجهيل نافذة بأبشع مظاهرها. فالمدارس الحكومية المخصصة للمراكشيين لا تستوعب أكثر من اربعة في المئة من الذين هم في سن التعليم منهم حيث يوجد فيها نحو سبعة آلاف في حين أن عدد الذين هم في سن التعليم يزيد عن مئتي الف! وليس من هذه المدارس إلا مدرسة ثانوية واحدة غير كاملة ؛ هذا فضلاً عن المنهج الاسباني الذي تسير عليه هذه المدارس والذي يهدف في الدرجة الاولى الى محاربة اللغة العربية والتقاليد الاسلامية. أما المدارس الحكومية المخصصة لأبناء الاسبان فانها تعد بالعشرات منها الابتدائي ومنها الثانوي ومنها الفني ، وتستوعب ٨٥٪ ممن هم في سن التعليم منهم. وقد وضعت العراقيل في طريق الذين يتوقون الى ارتياد معاهد العلم في أوروبا أو في المشرق العربي ؛ حتى إنه لم يتخرج طول مدة حكم الاسبان من المراكشيين إلا طبيبان واربعة محامين ومهندس واحد ؛ وكان ذلك بطريق التهريب إذا صح التعبير. كذلك وضعت العراقيل المتنوعة في طريق المحاولات التي يحاولها المراكشيون في سبيل سد شيء من ثغرة التعليم الواسعة.

الاهمال الصحي

وقد اهملت وسائل الصحة إهمالاً فظيعا. فليس في المنطقة إلا ثلاثة مستشفيات وفي حالة رديئة وبائسة جداً؛ فضلاً عن سيطرة الرهبان الاسبان على إدارتها سيطرة تامة. وليس في المنطقة كذلك مستوصفات صالحة ولا وسائل إسعافية ناجعة في مكافحة الأمراض المحلية والأوبئة.

السياسة الاقتصادية

وقد سار الاسبان على سياسة اقتصادية استهدفت السيطرة على جميع صادرات المنطقة ووارداتها سيطرة تامة. فغدت المنطقة سوقاً للمنتوجات الاسبانية دون مزاحم ، وحوربت الصناعات المحلية المراكشية أشد حرب ، ووضعت العراقيل في



الافرنسيون يطلقون النار على المراكشيين



الافرنسيون يقودون المراكشيين الى الاعدام



علال الفاسي



عبد الخالق الطرسي
زعيم حزب الاصلاح

طريق كل نشاط مراكشي زراعي أو صناعي أو تجاري حتى إنه ليس هنـاك فلاح مراكشي يمارس زراعته بالآلات الحـــديثة ؛ وحصرت الامتيازات والشركات والمناجم والمعادن بالاسبانيين فتحكموا في خيرات المنطقة وثروتها ومعادنها وتجارتها وصناعتها وسائر مرافقها .

المعمرون الاسبان

ولقد بلغ عدد المهاجرين الاسبان في المنطقة نيفاً ومئة الف وزاحموا المراكشيين في كل ميدان ، ومنحوا متنوع المنح والامتيازات . وقد بلغ ما صار في حوزة المزارعين منهم نحو ثلاثة ملايين دونم من أجود الأرض وأخصبها ، نزعت من يد العرب بمختلف الوسائل، وقد أمدوا بالقروض والامتيازات المتنوعة التي استطاعوا بها الاستقرار والاثراء وإنشاء جيد الحقول والبساتين ؛ وهـــذا فضلا عما انتزعته السلطات الاسبانية من أراضي المناضلين والأوقاف الواسعة وألحقته بأملاك الدولة والتي تستثمر منه ما تستثمر وتقطع منه ما تشاء للمزارعين الاسبان . ومن الطريف أن المهاجرين الاسبان زاحموا المراكشيين حتى في المهن والمشاغل الحقيرة كمسح الاحذية وكنس الشوارع مثل ما زاحموهم في الوظائف الحقيرة كالسعاة والبوابين والمراسلين الخ .

وتستند اسبانيا في تنفيذ سياستها الباغية وتوطيد سيطرتها الشديدة الى حكم الارهاب المؤيد بثمانين الفاً من الجند موزعين توزيعاً دقيقاً وعشرين الفاً من البوليس المنظم بطريقة الغستابو .

السياسة البربرية

ومع أن إسبانيا لم تصدر ظهيراً مثل ظهير البربر الذي أصدرته فرنسا في المنطقة الجنوبية فانها طبقت السياسة البربرية تطبيقاً دقيقا ؛ فأسست نيابة في قبائل الريف وأطلقت يدها في تطبيق تلك السياسه . وقد أخذت هذه تتحكم في دنيا القبائـــل ودينها وتقاوم الدروس الدينية والمدارس القرآنية وتحـــول دون الاتصال بينها

وبين أبناء المدن وتحارب اللغة العربية وتشجع على إحياء اللهجات البربرية والعودة إلى التقاليد الجاهلية دون الشرع الاسلامي الذي تدين به هـــذه القبائل وتطارد الذين يتجولون بينهم من أبناء المدن وكثيراً ما تلقيهم في غياهب السجون ، ولا تسمح بالتجول إلا لمنافقي مشايخ الطـــرق والدين ومشعوذيهم الذين يسيرون في الاتجاه الذي توجههم فيه . أما المبشرون المسيحيون والرهبان فلهم كامـل الحرية بالتجول والتبشير بالنصرانية بين هذه القبائل والتهجم على الاسلام ونبيّه .

- ١٤ -

استئناف النشاط الوطني

ومع ما كان من أثر كارثة استسلام الأمير عبد الكريم وانتهاء مقاومته فان الريف لم يلبث قليلاً حتى أخذ يستأنف نشاطه الوطني والسياسي والثقافي في سبيل الدعوة الى المقاومة وتحقيق الأماني الوطنية والحقوق السياسية وتلافي التقصير من ناحية الثقافة العربية والاسلامية . ولم تكد سنة ١٩٣٦ تأتي حتى أصبحت الحركة الوطنية حركة شعبية عامة .

حركة فرانكو

غير أنها اصطدمت بالحرب الأهلية الاسبانية ، حيث اتخذ فرانكو منطقة الريف قاعدة لحركاته . ولما احتج الخليفة والهيئات الوطنية على ذلك اعتقل الطاغية عدداً كبيراً من رجال الحركة كما وضع الباقين تحت المراقبة العسكرية ومنعهم مـــن مغادرة بيوتهم وحرم عليهم أي نوع من أنواع النشاط السياسي أو الثقافي ، وجند كثيراً من أبناء المنطقة بالقوة ليحاربوا في صفوفه ! وقد ذهب منهم أربعون الف ضحية في هذه الحركة .

ولما تم الفوز لفرانكو تظاهر مدة ما بحسن النية والرغبة في تحقيـــق بعض المطالب الوطنية ، وأوصى مندوبه الجديد بحسن السلوك مع الخليفة ، وأغدق الوعود للمراكشيين ، فاغتنم الوطنيون الفرصة وأنشأوا حزب الاصلاح ، وأقبل الناس

على الانتساب إليه حتى غدا قوة عظيمة . وتقدم رجاله يطالبون استناداً الى الوعود ومظاهر النية الحسنة بتغيير الحالة القائمة وإلغاء الحكم المباشر الارهابي وإعلان الحكم الذاتي في المنطقة. وإلى هذه الفترة تعود تلك الدعايات التي انتشرت لصالح عهد فرانكو وتصويره كصديق للعرب والمسلمين راغب في الأخذ بأيديهم وصلاح شؤونهم .

على أن رجال الاستعمار في إسبانيا والمنطقة الذين أخذوا يتخوفون من عواقب هذه الحرية التي تمتع بها المراكشيون في هذه الفترة ومما يمكن أن ينالوه ، ويرون في ذلك خطراً يهدد النفوذ الاسباني استطاعوا إقناع فرانكو بخطل هذه السياسة ؛ فأمر مندوبه بتغيير أساليبه فاستطاع هذا بالاغراء والرشاوى أن يثبط الحركة ويفرق الصفوف ولكن هذا لم يكن كافياً في نظر أولئك الاستعماريين لأن الخليفة كان قد سار شوطاً غير يسير في طريق الاصلاح الحكومي والثقافي إغتناماً للفرصة السانحة ؛ فسعوا حتى بُدل المندوب برجل عسكري تمكن من وقف هذا السير بالقوة والصرامة .

أثناء الحرب العالمية الثانية

ونشبت الحرب العالمية الثانية وظهرت ميول فرانكو نحو المحور وأحب أن يغتنم فرصة انتصارات هتلر وانهيار فرنسا ليحل محلها في الشطر الثاني من مراكش ويستعد لذلك ، ومع أن الظروف لم تواته فانه أوسل سنة ١٩٤١ مندوباً جديداً بتعليمات شديدة كان من نتائجها الغاء الاحزاب الوطنية ، ومصادرة الحريات ، وتشديد مظاهر الارهاب البوليسي ، فاكتسحت البلاد موجة من الارهاب ، وأخذ الموظفون الاسبان واستعماريوهم يستغلون هذا الجو ابشع إستغلال بالنهب والسلب والرشاوى والمصادرات والمطاردة ، فكانت محنة قاسية انصبت على رؤوس السكان الذين كانوا يظنون أنهم أوشكوا أن يحصلوا على بعض حقوقهم ومطالبهم .

مراسيم التحكم والارهاب الجديدة

ولقد انتهج المندوب الجديد سياسة قائمة على التفريق والتنكيل والتوهين، وسار في هذه السياسة خطوة عملية جديدة حيث طلب من الخليفة المصادقة على أربعة

قرانين يرفع أحدها ضريبة الأرث على المراكشيين إلى ثلث التركة ، ويخول ثانيها إدارة الحماية حق التصرف المباشر في الاطيان والعقارات ويرفع ضريبة الاملاك الى ثلث الدخل ، ويحدد ثالثها الساحة المبنية لسكن الاسرة المراكشية ويفرض على التي تشغل مساحة أوسع من المحدد أن تسكن معها غيرها ، ويقيد رابعها رصيد التاجر المراكشي بما لا يزيد عن عشرة الاف بسيطة أي نحو مئتي جنيه ويمنعه من التعامل بأكثر من ذلك في وقت واحد . وثار الخليفة على هذه القوانين قائلا إنها جنون إداري وطغيان لا يعرف له مثيل في تاريخ البشر وأبى التوقيع عليها . ولكن المندوب لم يبال وعبّأ جيشه وحاصر مدن المنطقة وقراها وأخذ ينفذ منهجه الجديد بالقوة والطغيان ، وعمد إلى الاراضي الزراعية فنزع ملكية أحسنها وضمه إلى ممتلكات الدولة الاسبانية واستقدم عدداً كبيراً من المهاجرين الاسبان ووزع عليهم هذه الاراضي بعد أن أمدهم بقروض من الخزانة المراكشية . وبعد ذلك تصدى للتعليم فمسخ ما بقي له من صورة باهتة وأخضع التعليم الحر على ضعفه الى رقابة يرأسها أحد قواد جيشه كما أخذ يشجع المؤسسات الكنيسية ويعمل على نشرها في جميع أنحاء المنطقة، وأعقب ذلك بسياسة بربرية رسمية حيث قسم المنطقة الى مقاطعات عربية وأخرى بربرية وأخضع الاخيرة للعرف الجاهلي ومنع سكانها من تعلم اللغة العربية !

ولقد طارد هذا الطاغية مدة حكمه رجال الوطنية وصادر صحفهم وأقفل أنديتهم وحرم عليهم الاجتماعات وفرض رقابة صارمة على البريد والمطبوعات ، ومنع السفر الى الخارج والتنقل في الداخل . وظل هذا الكابوس الثقيل جاثماً الى سنة ١٩٤٥ حيث بدل المندوب بأخر نتيجة للشكاوى والصراخ ولا سيما صراخ بعض رجال الحركة الوطنية الذين استطاعوا الافلات الى مصر ورفع أصواتهم الى العالم والى هيأة الامم ...

المظاهرات والقمع

وقد كان يظن أن اسبانيا ستقلع عن سياسة الطغيان بعد انهيار المحور، ولكن الحوادث خيبت هذا الظن حيث سار المندوب الجديد على منهج سلفه بل وزاد

لميه ، حيث سير في سياسة توسيع نطاق الهجرة ونزع ملكية الاراضي . وطرق الخليفة باب فرانكو فلم يفز بطائل ، وأخذ المنهج الجديد طريقه الى التنفيذ، فأخذ احرار المنطقة الذين هم في الخارج يثيرون الضجة في البلاد العربية واروقة الجامعة واوساط العالم الغربي معاً فلجأت السلطات الى خطـــة الانتقام من الذين هم في منطقتهـــا من رجال الحركة فأعلنت حالة الطوارىء والحصار وأخذت تطاردهم وتتهيأ لضربهم الضربة القاضية . وفي ٢٨ آب من سنة ١٩٤٦ نظم حزب الاصلاح مظاهرات سلمية في مدن المنطقـة بسبيل الاصلاحات العاجـلة ، فكانت فرصـة للتنكيل اغتنمتهـا السلطات وأخذت تشتد بالقمع والقسوة فكانت اصطدامـات عنيفة قتل وجرح فيها الكثيرون ، واحتج الخليفة وانذر بوخيم العاقبة . ولكن السلطات لم تعبأ واستمرت في خطتها الباغية ، اخذت تدبر المؤامرات ضد الخليفة وزعماء الحركة .

ومايزال الموقف يسير في هذا السبيل المظلم الذي تسجل اسبانية الفرانكية به من العار ما سجـله اصحاب العهود السابقة وما سجلته فرنسا ، ومـا هو موغل في الظلم والبغي ايغالاً لا يكاد يصدق صـدوره من اوحش الامم واقساهـــا قلباً وتكشف زيف الدعاية المضلة عن فرانكو وعهده وحسن نياته نحو العرب .

قوة الحركة الوطنية وشمولها

غير ان هـذا كله لم يثبط عزم المراكشيين حكومة وشعبا عن المقاومة وقـد أصبحت الحركة الوطنية حركة شاملة يساهم فيها الجميع حتى الذين سبق لهم ان تعاونوا مع السلطات بحسن نية . وهي حركة منظمة تنظيما دقيقاً هدفها استقلال البلاد ووحدتها والالتحاق بقافلة الحركة العربيـــة العامة التي أخذت تتسم بها بما ينشئه أحرار الريف من الصلات بالحركة العربية المشرقية ورجالها ومنشآتها. ولقد اتقدت الشعلة فلن تنطفىء باذن الله حتى تدور على الباغي الدوائر .

ومما يجدر ذكره أن ملك مراكش وخليفته في منطقتي الاحتلال متضامنان مع الحركة الوطنية التي تهدف الى ذلك الهدف القومي ؛ وهذا مما يجعل الامل اقوى في الفوز .

خاتمة

- ١ -

صلة بغي فرنسا بالحركة العربية

وسبق البغي الافرنسي على المغرب العربي ليقظة الروح القومية ونشاط الحركة العربية الحديثة في المشرق العربي ، وخاصة في البـــلاد التي ظلت مرتبطة بالدولة العثمانية الى آخر الحرب العالميـــة الاولى قد يسوغ القول انه لم يكن مناوأة في أصله للحركة العربية التي سجلت بعثها العملي الجديد عقب اعلان الدستور العثماني ، وخاصة في بلاد الشام والعراق . غير ان المغرب العربي هو الساحة الطبيعية التي تكمل ساحة الحركة العربية على اعتبار امتداد الوطن العربي الكبير اليها على ما قلناه في مطلع الجزء الاول ، وأن من الطبيعي ان يعد كل عائق في سبيل تواصل هذه الساحة مناوأة لتلك الحركة من حيث المبدأ .

ولقد حرصت فرنسا اشد الحرص على بقاء المغرب معزولاً عن تيار هذه الحركة وضربت بينه وبين الشرق ستاراً حديديا كثيفاً منعت النفوذ اليه او منه ، وخاصة بعد اليقظة القومية في الشرق وما كان بسببها من حركات وطنية ونضالية . ولم يقتصر هذا المنع على حركة دخول المغاربة الى الشرق ودخول المشارقة الى الغرب بل شمل كذلك مظاهر الحركة الفكرية والسياسية في الشرق من صحف وكتب ونشرات وإرتياد معاهد العلم الديني والمدني ، بل لقد شمل الحج حيث لم يكن يسمح للمغاربة احياناً بأدائه ، وحينما كان يسمح لبعضهم كان يحتاط لأن يكون المسموح لهم من الانصار والموالين وتحت اشراف ،وظفين عرب مخلصين للسلطات الافرنسية فضلاً عن تقييد السماح بقيود مالية وغير مالية تجعله ضيق النطاق جداً . فكانت في ذلك مناوأة من حيث الواقع كذلك لتلك الحركة كما هو واضح ،هذا فضلا عن ما في ما انتهجته فرنسا من نهج استعماري في التجهيل والافقار والتنكيل والارهاب ومحاربة الثقافة العربية ومحاولة هدم الكيان القومي وتبديـــل وجه المغرب العربي ولسانه وكيانه من مناوأة للعروبة ومقوماتها على كل حال .

موقف فرنسا من قضايا العرب وصلته بالمغرب

ولقد كانت فرنسا في ما سارت عليه من خطط في سوريا ولبنان تفكر دائماً في المغرب العربي ودرجة تأثير خططها فيه سلباً وإيجاباً. وقد تكررت الاشارة إلى هذا على لسان رجال فرنسا قبل الحرب العالمية الاخيرة وفي اثنائها وبعد انتهائها وخاصة في ظروف الازمات التي كانت تعصف في سوريا ولبنان ، كما كانت تنظر بنظر التجهم والغيظ الى ما اخذ يبدو من الحركات التجاوبية في بلاد المشرق العربي نحو المغرب العربي ، لما كان يتسرب من اخبار البغي والقمع والنضال في اقطار المغرب ثم لما كان من نشاط أحرار هذه الاقطار وحركاتهم ودعوتهم على منابر الشرق العربي وفي أوساطه ومجالاته بعد الحرب ؛ حتى لقد وصل التجهم الافرنسي هذا الى ان جعل الحكومات الافرنسية والصحافة الافرنسية تقف من القضايا العربية موقف العداء والتعطيل ، وكان آخر موقف لها في هذا الباب موقفها من الحركة اليهودية ، ثم موقفها من قضية ليبيا ومناصرتها ايطاليه وحرصها على عودة سلطانها عليها ، وطمعها في قسمها الجنوبي فزان حرصاً على ابعاد عدوى الاستقلال والحرية عن المغرب ، مما يعد مظهراً طبيعياً لتيار الحركة العربية الحديثه وشمولها العرب على اختلاف اقطارهم ، ومما يدخل موقف فرنسا منه في باب مناوأة الحركة العربية العامة بطبيعة الحال .

بطولة وصبر رجال الوطنية المغربيين

وقصص تمكن احرار المغرب من اختراق ذلك الستار الحديدي ونشاطهم في الاوساط المشرقية والعالمية تنطوي في الحق على بطولة رائعة ؛ حيث كان منهم من يسير ماشياً عبر الصحراء المهلكة مئات الاميال معرضاً نفسه للهلاك بالجوع والمرض والتعب والافتراس ، وقد كان بعضهم استطاع في اثناء احتلال تونس من قبل المحور ان ينتقل لأوروبا فكانت له الفرصة الذهبية للبقاء حراً خارج هذا الستار ، ولم يكونوا ذوي ثروة ولم يتمكنوا من جانب مال يساعدهم ، ولم يف المشرق العربي بواجبه في ذلك ، فصبروا صبر الابطال وفنوا في حركاتهم ونشاطهم القومي أعجب

الفناء وأروعه . وما كان من حركة دعائية نشيطة لفتت ابناء المشرق اكثر من ذي قبل الى المغرب وقضاياه بعد الحرب الاخيرة هو أثر مبارك من آثار حركة هذا العدد القليل الشجاع الصابر الزاهد الذي استطاع اختراق ذاك الستارالكثيف ويضاف الى هذا ما بدأ من ثنايا هذه الحركة من فهم تام للحركة العربية الحديثة واندماج فيها ، وانتشار الشعور والوعي فيها بين المشتغلين بالحركة النضالية والوطنية في المغرب العربي سواء منهم من اخترق الستار او بقي في ميدان النضال والكفاح مما يدل عليه كثرة الترديد والتجاوب في صدد هذه الحركة من مختلف الانحاء المغربية ورجالات المغرب عامة ، بحيث يصح ان يقال ان المغرب العربي هو داخل فعلا في نطاق هذه الحركة وأهدافها ، وان احراره ومناضليه ورجالاته ينشطون في هذا النطاق .

التقاء الحركة العربية المغربية والمشرقية في ساحة واحدة

وهكذا يلتقي القائمون بالحركة القومية العربية في المشرق معهم في ساحةالعمل القومي المشترك ، وتكمل حـــدود الساحة التي كانت مقسومة بالستار الحديدي الكثيف، ونصبح الحركة العربية منتظمة نظريا وعملياً جميع ساحة الوطن العربي الكبير الممتدة من الخليج العربي وبحر الهند شرقاً الى مضيق جبل طارق والبحر الاطلانطي غرباً .

ومن الجدير بالذكر كمظهر من مظاهر ذلك ما بدا من رجال الحركة القومية لمغربية من اهتمام لحركة الجامعة العربيـة ورغبة ملحة باندماج المغرب العربي فيها منذ سير المشاورات الاولى بسبيلها حيث كانت البرقيات والعرائض تتوالى محتجة عاتبة ومعلنة للرغبة في الاندماج في هذه الحركة اسوة بفلسطين ، بل لقد بدا ذلك الاهتمام وهذه الرغبة من رؤساء المغرب الأعلين فضلا عـن كبار الزعماء ومختلف الهيئات ، ثم ما أخذ يتوالى عـلى الجامعة بعد قيامها مـــن مراجعات واقتراحات مـن هيئات المغرب ورجال حركتها بسبيل قضاياهم وتقرير تعويلهم عليها واعتبارها جامعتهم ايضاً . ولقد تجاوبت الجامعة معهم منـذ البدء في ذلك نتيجة للشعور العربي الذي ينتظم رجال الجامعة وشعوب دولها بوحدة الحركة

العربية وشمولها ، فاحتوى ميثاقها تسويغ اشتراك ممثلين للبلاد العربية الاخرى التي لم يكن في امكانها التوقيع على الميثاق والاشتراك في الجامعة كدول ، وكان المعني به في هذا التسويغ المغرب العربي في الدرجة الأولى كما احتوى كذلك ملحقاً خاصاً كان المغرب العربي هو المعني به ايضا في الدرجة الأولى هذا نصه :

« نظراً لان الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجانها شؤونا يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ولأن أماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له ان يرعاهـا وان يعمل على تحقيقها فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية توصي مجلس الجامعة عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق بأن يذهب في التعاون معها الى أبعد مدى مستطاع وفيما عدا ذلك بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم امانيها وآمالها وان يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من أسباب . »

ثم أخذ هذا التجاوب يشتد حتى لم تكد دورة من دورات مجلس الجامعة تخلو من بحث في القضايا المغربية واقرار قرارات ما في صددها وإرسال المذكرات المتنوعة بسبيلها والوقوف موقف التأييد والاحتجاج والاستنكار والوساطة حيث اقتضى ذلك حتى غدت هذه القضايا من صميم أعمال الجامعة وامانتها العامة .

- ٢ -

المؤتمر المغربي في القاهرة وصداه

ولقد طرأ عاملان مهمان قوّيا حيوية ونشاط احرار المغرب ورجال حركته النضالية والوطنية. أولها المؤتمر المغربي الذي عقد في القاهرة في مطلع عام ١٩٤٧، فقد كان اجتمع في هذه العاصمة العربية الكبرى عدد غير يسير من احرار الأقطار المغربية الثلاثة، ينتسبون الى مختلف الهيئات والاحزاب الوطنية فيها، وكان رجال كل قطر يجاهدون وينشطون في سبيل قطرهم دون تضامن وثيق كشأن اخوانهم في المشرق مع اشتراكهم في بلاء واحد وعدو واحد . فرأوا انه قد آن لهم ان يشكلوا جبهة واحدة للعمل التحريري داخل البـلاد وخارجها ، فعقدوا مؤتمرهم

المذكور الذي ضم مندوبي مختلف الاحزاب والهيئات الوطنية في الاقطار المغربية الثلاثة ، ورمزت حفلتا افتتاحه وختامه الى ما قلناه من اندماج الحركة الوطنية التحريرية المغربية بالحركة المشرقيـة وانهيار السد القائم بين المغرب والمشرق حيث دعي فريق كبير من رجال الاقطار العربية المشرقية لهاتين الحفلتين وخطب بعضهم فيها منوهاً بالحركة المغربية التحريرية العربيـــة والتقائها في ساحة واحدة بالحركة المشرقية التحريرية ، وبالتوائق الذي يجب ان يسود رجال هذه الحركة في المشرق والمغرب لما تمثلانه من وحدة اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والروح والدين والمصالح المتنوعة والاتصال الارضي الذي لا يفصله فاصل طبيعي او عنصري على ما ذكرناه في مطلع الكتاب .

وكان من نتائج هذا المؤتمر ان تقرر (اولا) ميثاق سياسي قومي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ – بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر

٢ – مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد .

٣ – المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب جميعها .

٤ – رفض الانضمام الى الاتحاد الافرنسي في اي شكل من أشكاله .

٥ – اعتبار ايام احتلال الجزائر (٥ حزيران) وفرض الحماية على تونس (١٢ مايس) وفرض الحماية على مراكش (٣٠ مارس) ايام حداد في أقطار المغرب .

٦ – تعزيز الكفاح بالداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء .

وثانياً ميثاق تنسيقي واحد يقوم على الاسس التالية :

١ – ضرورة الاتفاق بين الاحزاب الوطنيـة داخل كل قطر اما باندماجها في حزب واحد او بتكوين جبهة وطنية منها .

٢ – إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الاقطار الثلاثة بحيث تهدف الى الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل للكفاح المشترك والعمل على توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الاقطارالثلاثة وتوجيهها توجيهاً قومياً والوقوف جبهة واحدة عند حدوث أزمة في أي قطر منها .



شباب الحزب الحر الدستوري يحملون اعلام دول الجامعة العربية في عرض عام



الامير عبد الكريم الخطابي بعد فكاكه



المؤتمر المغربي في القاهرة

و(ثالثاً) الطلب من الجامعة التي تمثل دور المشرق العربي :

١ – إعلان بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس ومراكش وعدم شرعية احتلال الجزائر وتقرير استقلال هـذه الاقطار وقبول ممثلين عنها في مجلس الجامعة .

٢ – عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة اقطار المغرب على تحقيق ميثاقها .

٣ – ارسال لجنة تحقيق الى اقطار المغرب .

٤ – تعيين ممثلين للدول العربية المشرقية في اقطار المغرب العربي .

٥ – العمل على نشر الثقافة العربية في بلاد المغرب وحل مشكلة الطلاب المغاربة الذين يلجأون الى المشرق بقصد اتمام دراستهم وتذليل العقبات التي تقوم بطريقهم.

و(رابعاً) تكوين مكتب واحد للحركة التحريرية المغربية يضم ممثلي مختلف الأحزاب في أقطار المغرب الثلاثة يطلق عليه اسم « المكتب المغربي العربي » ويصدر عنه كل نشاط وتوجيه واتصال وشكوى ومراجعات مما يتصل بالحركة الوطنية النضالية في الاقطار المغربية .

وهكذا استطاع رجال الحركة القومية المغربية ان يقوموا بعمل لم يقم به اخوانهم المشارقة ولو نظرياً حتى الذين كانوا امام عدو واحد كفلسطين والاردن ومصر والعراق .

وقد ردد رجال الحركة الوطنية والاحزاب في داخل البلاد المغربية صدى هذه القرارت وأيدوها وأظهروا استعدادهم للتضامن فيها. ومنذئذ اشتدت روح النضال والحركة في مختلف الساحات بحيث صارت حركة التحرير المغربية قوية ملموسة الآثار في الأوساط العربية والعالمية على السواء .

زعامة الامير عبد الكريم

أما العامل الثاني فكان تحرر الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف الذي كان في أسر فرنسا على ما اشرنا اليه في مناسبة سابقة . فقد توجه أحرار المغاربة اليه ليتولى زعامة الجبهة النضالية الموحدة وقبل الرجاء فأصبح للحركة التحريرية المغربية جبهة واحدة وزعامة واحدة ، واشتدت تلك الحركة قوة واثراً .

- ٣ -

المصاعب والآمال

ومع اننا لا نجهل عمق الروح الاستعمارية الباغية التي تسيطر على رجال فرنسا وساستها على اختلاف الوانهم ، وما سوف تلقاه الحركة التحريرية المغربية من المصاعب في سبيل تحقيق أهدافها وأهداف الحركة العربية التي غدت مندمجة في قافلتها ، سواء في احكام الستار الحديدي المضروب بين المغرب والمشرق او في الاسراع في فرنسة المغرب ثقافياً وسياسياً حتى اصبحت نغمة الاتحاد الافرنسي المغربي تشتد ارتفاعاً وقوة وتخطو خطوة عملية بالنسبة للجزائر التي أدخلت في الحلف الاطلانطي كجزء اتحادي من فرنسا ، أو في التوسع في أساليب الدّس والتفرقة والقمع والتنكيل ومكايدة عرب المشرق في قضاياهم المعقدة . ومع أننا لسنا نجهل ان هذا ضعف البنية العربية عامة في المشرق والمغرب نتيجة لكابوس الجهل والتغلب والاستعمار الذي ظل جاثماً على صدريهما امداً طويلا وما لهذا الضعف من آثار اليمة سياسية وخلقية ووطنية واقتصادية واجتماعيـــة وشخصية وعامة في كيان العرب وحركتهم ، ولسنا نجهل أخيراً ما يحتاج اليه العمل التحريري المغربي من وسائل عظيمة ليس من السهل تداركها، فان كل هذا لا يجعلنا نفقد الامل في نجاح الحركة التحريرية المغربية عامة ، ويجعلنا نعتقد انه ليس في وسع فرنسا مها بطشت وغدرت واحتالت ودست ووضعت العراقيل وسدت المنافذ ان تقضي عليها وتطفىء شعلتها المتقدة ، فهناك شعب ابي قوي المراس مستمسك بعروبته وتقاليده اشد الاستمساك يزيد عدده على العشرين مليونا ، ومن ورائهم اخوان لهم يزيدون على الخمسين مليونا لابد من ان يتضامنوا معهم عاجلا أو آجلا في سبيل تحررهم وتحقيق اهداف الحركة العربية العامة في الجناح الغربي ، وليست السنين القليلة التي نرجو ان يتحقق هـذا فيها بالشيء المهم في اعمار الامم وحركاتها النضالية القومية، ولن يبقي القوى قوياً، ولن يبقى الضعيف ضعيفاً . ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل الظالمون وسيعلمون اي منقلب ينقلبون .

وقعت بعض أخطاء مطبعية صححنا بعضها في مايلي
وتركنا بعضها الى فطنة القارىء

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠	٧	وبحويلها	وتمويلها
٦٦	٢١	قطيعة	قطعية
٦٩	٢٥	النية	البنية
٧٨	٧	الرهن	الوهن
٨٣	٩	الافرنسية ان تسلم	الافرنسية أمر أن تسلم
٩٥	٩	تجريبية	تجريحية
٩٦	١	ينجموا	يجنحوا
١٠٨	٢	وبالتضامن الذى	وبالتضامن مع لبنان الذي
١٠٩	٦	هددها	هدؤها
١٣٥	٦	ينقل	ينتقل
١٤٢	١٣	قراراً	فوراً
١٤٩	١٥	وسطر	وسط
١٥٧	٧	فيك اليوم يوم	فيك يوم
١٧٥	٥	الاهاون	الاهلون
١٨٠	١	سارلة	رسالة
١٨٦	١٥	قضاء	قضاة
١٨٩	٧	منخمة	ضخمة
٢٠١	١٤	الماصلى	المصالي
٢٣٠	٢	جهرة	جمهرة

كتب المؤلف الاخرى المطبوعة

دروس في فن التربية	مترجم عن الافرنسية
مختصر تاريخ العرب والاسلام	جزآن
دروس التاريخ العربي	
دروس التاريخ المتوسط والحديث	
دروس التاريخ القديم	
موجز تاريخ أوروبا في الشرق العربي	
تركيا الحديثة	
عصر النبي وبيئته قبل البعثة	مقتبس من القرآن
سيرة الرسول جزآن	مقتبس من القرآن
القرآن واليهود	
حول الحركة العربية الحديثة	الجزء الأول

كتب اخرى تحت الطبع والاعداد

هدى القرآن ودستوره في شؤون الحياة
القرآن المجيد تنزيله وأسلوبه ومناهج تفسيره وجمعه
الاجزاء الثالثة والرابعة من كتاب حول الحركة العربية الحديثة
القرآن والمرأة
القرآن والجهاد
التفسير الحديث . وهو تفسير كامل للقرآن

مطبعة اليابا - بيروت - تلفون ٣٩ - ١٤